السيد محمد رشيد رضا

الوحي المحمدي

ثبوت النبوة بالقرآن
ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام
دين الأخوة الإنسانية والسلام

عز الدين للطباعة والنشر

السيد محمد رشيد رضا
الوحي المحمدي
عز الدين

السيد محمد رشيد رضا



الوحي المحمدي

ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام

دين الأخوة الإنسانية والسلام

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر


الوحي المحمدي

الطبعة الثالثة مصححة صدرت سنة ١٤٠٦ هـ
الطبعة الثانية صدرت في يوم عرفة من سنة ١٣٥٢ هـ
الذي نزل فيه على النبي (ص) في حجة الوداع
﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم ،وأتممتُ عليكم نعمتي ،ورضيتُ لكم الإسلام دينا﴾
(كما صدرت الطبعة الأولى في يوم ذكرى المولد النبوي منها)

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر
هاتف ٨٣١٦٤٠ - ٢٧٥٥٠٦ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٥٠٥١/١٣ بيروت - لبنان

تصدير كتاب الوحي المحمدي

(الطبعة الثانية)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله جل ثناؤه أن جعل قبول هذا الكتاب وتأثيره فوق ما كنا نقدر ونحتسب ، على ما نظن من دقة اختبارنا للعالم الاسلامي ، فانه لم يكن إلا خلاصة عامة من تفسير المنار للقرآن الحكيم ، وأكثر المسلمين قد هجروا القرآن هجراً غير جميل ، إذ باتوا يجهلون أن فيه كل مايحتاجون اليه من حياة روحية وأدبية ، وقوة سياسية وحربية ، وثروة وحضارة ونعمة معيشة ، بَلْهَ ما يلزم ذلك من الفوائد السلبية كدفع طغيان الاجانب عليهم ، وصد عدوانهم عن بلادهم ، وإنقاذهم من استذلالهم لشعوبهم .

في القرآن كل ماذكرت وما هو أكثر منه وأكبر ، ولا يطلبونه منه ، ومنهم من يطلبه من غيره – حتى الحياة الروحية يعتقدون أنه هو ينبوعها الاعظم ، ويوجد فيهم من يطلبها من غيره (كالأوراد والاحزاب) بناء على أنها مستمدة منه ويقل فيهم من يزيد عليها تلاوة ألفاظه ، وانما يتلوها تاليها منهم ومن غيرهم لأن لقارئها على كل حرف منه عشر حسنات ، لا للتدبر والادكار الذي أنزل لاجله القرآن (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ * أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ؟ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ؟ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ * إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ)

إن أكثر المسلمين يجهلون أن للقرآن تأثيراً صالحا ما في حياتهم المعاشية والمدنية والسياسية وهي أكبر همومهم ولا مرشد لهم فيها ،ويجهلون البرهان العقلي المقترن بالشعور الوجداني ،على أنه وحي الله لنبيه ورسوله ، وان في اتباعه سعادتهم في دينهم ودنياهم ، ولا يجدون أحداً من الذين يتولون تربيتهم وتعليمهم في بيوتهم ولا في مدارسهم يقنعهم به ،ويربي فيهم ملكة الوازع النفسي لاتباعه ،لا يعرفون كتابا من كتب عقائدهم أو تفاسيره يهديهم الى هذا ، والمجهول المطلق لا تتوجه اليه النفس ، فلا عجب اذا هجروا القرآن وأعرضوا عن تدبره

إن تفسير المنار قد ألف لاستدراك هذا التقصير في كتب التفسير ،ولكنه لا يدرس في المدارس ، ولا يعتمد عليه في التربية . ولا يخطر في بال من لم يقرأه أنه يجد فيه بيان كل ماتحتاج اليه الامة لتجديد حياتها ومجدها، ولا لدفع الغوائل عنها ، ويوشك أن يكون أكثر من اطلعوا عليه لا ينوون بقراءته ما ألف لأجله من الاصلاح والهدى ، وتجديد ثورته الاولى ، «وانما لكل امرىء مانوى»

كل مايحتاج اليه المسلمون من اصلاح وتجديد حضارة وملك متوقف فيهم على هداية القرآن وتنفيذ النبي ﷺ وخلفائه الراشدين (رض) له، ولا يصلح آخر هذه الامة إلا ماصلح به أولها كما قال الامام مالك (رح) وكيف السبيل إلى اقناعهم بذلك ونحن ندعوهم إلى هذا منذ ثلث قرن، وقل منهم من سمع فاستجاب، واستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، حتى أهابت بهم صيحة هذا الكتاب باسم الوحي المحمدي ، وإعجاز القرآن للبشر بما تقتضيه حضارة هذا العصر وعلومه ومشكلاته السياسية والقومية ، وتحدي علماء الافرنج بعلومه وإصلاحه، ودعوتهم الى الاسلام به، لانقاذ العالم المدني من أخطاره وانتياشهم من تياره ، فكانت أول صيحة صخت الاسماع ، فأصغت الآذان ، وأشخصت الابصار ، وأهطعت الاعناق، بالقرآن للقرآن ، ،فبادر أهل الغيرة إلى ترجمته بما اختلف من اللغات،

وبث دعوته في الاقطار ، فأسر ماسرني من تأثيره إنما هو توجيه القلوب إلى هداية القرآن ، وروح القرآن ، وأن اشترك فيه العربي والعجمي ، والسني والشيعي والاباضي ، ولا غرو فالقرآن فوق المذاهب والاجناس والاوطان ، ومن آياته المحكمات (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات) ، ومن خطابه للرسول ﷺ (إنَّ الذينَ فرَّقوا دِينَهمْ وكانوا شِيَعًا لستَ منهُمْ في شيء)

وانما مزية هذا الكتاب أنه بين إعجاز القرآن للبشر بالدلائل العلمية العصرية التي يفهمها كل قارىء ، وأبرز لهم خلاصة إصلاحه للبشر مفصلة في عشرة مقاصد ، مؤيدة بالشواهد ، وذكرهم بما كان من إحداثه أعظم ثورة عالمية وانقلاب ديني مدني في الارض ، وعرض على أبصارهم مالا مراء فيه من فساد حال شعوب الحضارة الغربية ، وعجز علومهم وفنونهم عن تلافي شرها ، وتدارك خطرها بعبارة مختصرة ، تعلوها عناوين كبيرة أو صغيرة ، تشير الى ما تحتها من كنوز ، وماوراءها من ركاز اسلامي مركوز ، فلا تتعب القارىء الكسول ، ولا تنفر السامع الملول ،

من الدلائل على تقبل جميع المسلمين له بقبول حسن ما أثبتناه في التقاريظ الملحقة بهذه الطبعة ، من كتب أئمة الفرق الثلاث الكبرى التي تضم الملايين من أهل القبلة ، وما يرجى من مساعدتهم لنا على تعميم نشره . فأما إمام أهل السنة فانه أبدى لنا عزمه على ذلك و كانت نسخ الطبعة الاولى قد نفدت ، وأما امام العترة والشيعة الزيدية فانه عند ماراه كتب الينا يستأذننا بطبعه في اليمن لتعميم نشره فيه ، فكتبنا اليه بأننا سنعيد طبعه منقحاً مزيداً فيه ، فكتب ثانياً ما يراه القراء في أول التقاريظ

وقد كان بادر الى المساعدة على نشره من اول وهلة صاحب السعادة السري عزيز عزت باشا المصري فتبرع بثلاثين جنيها وزعنا بها نسخا كثيرة في اوربة

وغيرها ، وتبرع صاحب السعادة محمد صادق المجددي وزير الافغان المفوض في مصر بمائة نسخة منه المؤتمر الاسلامى في القدس ليوزعها رئيسه على فروعه في الاقطار وتبرع آخرون بعشرات من النسخ على من يظنون انتفاعهم بالكتاب . دع من انتدبوا للترغيب فيه ، وبيعه لمن يشتريه ، احتسابا لوجه الله عز وجل

وأما التقاريظ فقد نشرنا طائفة مما حفظناه منها لبيان آراء المسلمين في الكتاب من الطبقات المختلفة ، وأحسنهم رأيا من بين أنه فيض من عين معين القرآن ، اشتدت حاجة الناس اليه في هذا الزمان ، وأنه خير مايدعى به إلى الاسلام ، وما يدحض شبهات المعطلين الماديين ، والملاحدة المتفرنجين ، وما يفند تضليل دعاة التنصير ، ويفضح مايلبسون من شفوف الرياء والتزوير ، وما يلبّسون على غيرهم من إفك وتغرير . فقد اقيمت عليهم الحجة في هذا الكتاب بأنه لايمكن اثبات أصل دينهم ، ولا معجزات نبيهم (لاربهم) الا بثبوت هذا القرآن ، وانه وحي من الرحمن

وأما الذين استأذنونا بترجمته باللغات المختلفة فقد أذنا لهم كلهم لأول وهلة ، ولم نلبث أن علمنا ان أحد مترجميه باللغة الاوردية (الهندية) قد أتم عمله ، وهو تلميذنا الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي مؤسس جريدة (هند الجديد) في كلكتة ، وهو ينتظر صدور الطبعة الثانية ليدخل في ترجمته مايجده من تنقيح وزيادة ، وإن مترجما آخر بها ينشر ترجمته في بعض الصحف تعجيلا للفائدة

وكذلك يترجمه آخران باللغة الصينية (أحدهما) الشيخ بدر الدين الصيني المدرس في دار العلوم الندوية في لكهنؤ (الهند) وصاحب المقالات المشهورة في الصحف العربية . (وثانيهما) صاحب مجلة ضياء الهلال ، وهو يدرس تفسير المنار في بلده (قبودان) وقد كتب الينا يسألنا عن كلم في الكتابين ، وسنرسل الى كل منهما هذه الطبعة الجديدة ليعتمدا عليها

وقد استأذنيت من يريد ترجمته بالفارسية ، لاجل وزارة المعارف الافغانية . ولا أدري ما فعل من أذنت له بالترجمة التركية ، ولا مدير المجلة الاسلامية في لندن (رفيو اسلاميك) وقد أذنت له بترجمته باللغة الانكليزية ونشرها ، بيد انني سأرسل اليهم هذه الطبعة الثانية وأدع لهم الخيار في إيثارها على الاولى أو الاكتفاء بها

كنت قبل العلم بخبر هؤلاء المترجمين عازما على تغيير وتبديل في تنقيح مسائل الكتاب وترتيبه وفصوله والزيادة فيه ، ثم خشيت أن يشق عليهم تغيير الترجمة بالتبع للتغيير في الاصل ، أو الاضطرار إلى استئناف العمل ، ولهذا وعدت بما وعدت به في بيان امتيازات هذه الطبعة من فاتحتها (ص٢١) ولكن رأيتني مضطرا إلى إخلاف هذا الموعد من ناحية الزيادة على الاصل في صلب الكتاب في كثير من المسائل المجملة والموجزة بتفصيلها وإيضاحها

وأما الزيادات الكبيرة التي وعدت بجعلها علاوات ملحقة بالكتاب فظللت ثابتا على وعدي بها ، ولما طال الكتاب بما زدته في هذه الطبعة حتى كاد يربو على ثلث الاصل ، اخترت أن أجعل الملحقات في جزء مستقل ، وقد ختمت الكتاب بدونها ، فهو قائم بنفسه مستغن في اثبات الوحي المحمدي واثبات النبوة به ، والتحدي بما جاء فيه ، وبناء الدعوة الى الاسلام عليه ، وانما تكون تلك الملحقات تعزيزا له ، وهذا بيان لما أشرت اليه ووعدت به منها . مع زيادة يجوز أن تتبعا غيرها

علاوات كتاب الوحي

(١) أنباء الغيب في القرآن ، وعلى لسان النبي عليه الصلاة والسلام ، مما ظهر صدقه في عصره ﷺ ومن بعده ، ولا يزال يظهر منها مايدل على صدقه ، حتى يأتي أمر الله عز وجل

(٢) سنن الله في الخلق ونظام القضاء والقدر ، وقد أتينا في هذه الطبعة بالاصل فيها

(٣) سنن الله تعالى في نظام الاجتماع ، وقد ألممنا بها بعض الالمام

(٤) المسائل العلمية والفلكية التي كانت مجهولة في عصر التنزيل وعرفت بعده بقرون، وقد نوهنا بها مراراً أوضحها مافي خاتمة الكتاب

(٥) الامور الصحية التي كانت مجهولة في جملتها أو تفصيلها وكشفها الطب

(٦) أسرار العبادات وحكم التشريع التي لايعرف قدرها إلا بالنبوغ في علوم كثيرة منها علم النفس وعلم الحياة وعلم الاخلاق وعلم الطب وعلم الاجتماع

(٧) خلاصة مجملة من سيرته ﷺ وأخلاقه وآدابه وشمائله، الدالة على نبوته

(٨) خلاصة من سيرة الخلفاء الراشدين، وأمراء الصحابة وقوادهم الفاتحين، وهدي السلف الصالحين، المجلية لاصلاح الدين وتفضيله على غيره

(٩) الدلائل الثمانية التي حذفتها من خاتمة الطبعة الاولى المؤكدة لكون القرآن من عند الله تعالى مع زيادة عليها

(١٠) الكلام في هذيان من عارض القرآن من المتأخرين الذين ادعوا النبوة والالوهية كالباب والبهاء الايرانيين وميرزا غلام أحمد القادياني الهندي وايراد الشواهد من وحيهم الشيطاني الذى يضحك الثكلى

لولا ان أكثر الناس يفهمون من التفصيل بالاسهاب، مالا يفهمون من الاجمال في الايجاز، لاكتفوا منا في إثبات الوحي المحمدى بما ذكرناه من المطالب الاربع الاولى، إذ الغرض من ذكرها الدلالة على أنها مما يعلو علم محمد ﷺ الكسبي، واستعداده العقلي، ويستحيل أن تكون من وحي إلهامه النفسي، ولكنهم طالبونا بها، وصرح بعضهم بأننا أغفلناها

ولولا أن هذا الكتاب وضع في قالب الاختصار لفصلنا فيه هذه المطالب، ونظمناه في سلك ماسميناه المقاصد، ولمددنا تلك المقاصد مدا، وأكثرناها عدا، فجعلنا الاول منها ثلاثا، والخامس بعدد جمله عشراء،

وحينئذ يمكن بسط علوم القرآن الدالة على انه من عند الله في عدة أسفار كما صرحنا بذلك في الصفحة ١٢٨ منه

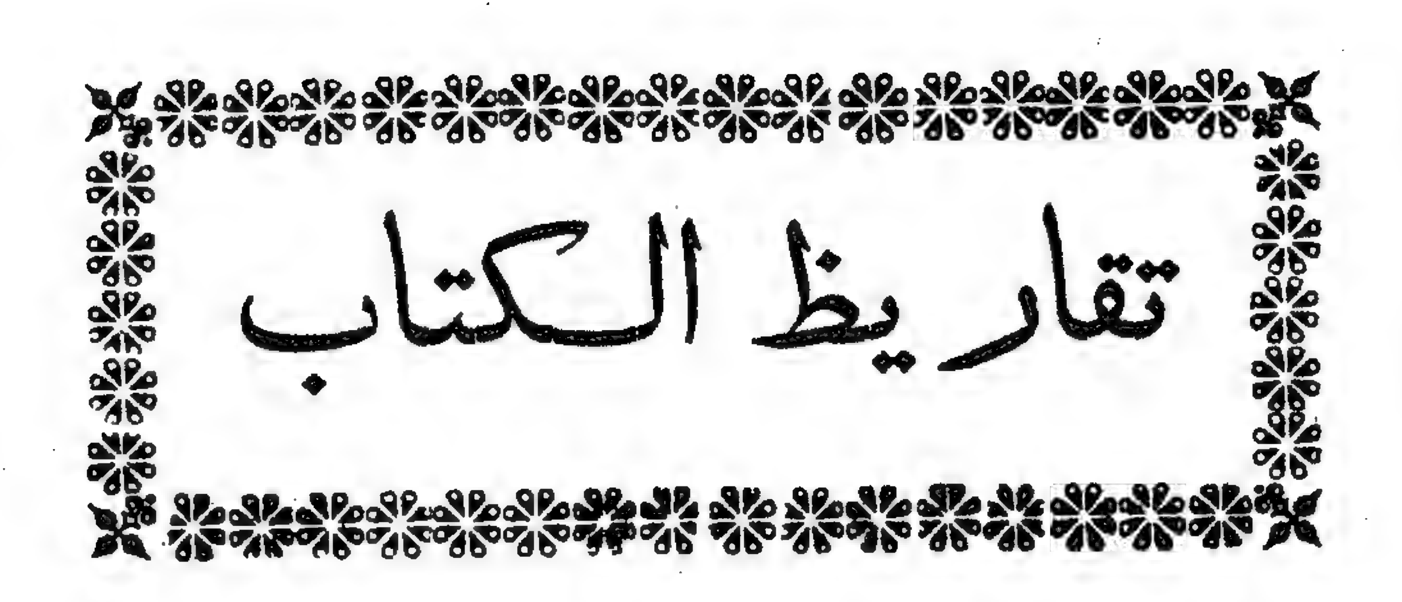
هذا وانني قد بينت في آخر مقدمة الطبعة الاولى (ص١١) أنني كتبته في أوقات متفرقة ، وزمن هم وعسرة ، وأشرت إلى ما أراه يفتقر الى الاصلاح من عبارته، ككثرة الاحالة فيه على تفسير المنار لأنه كان في الاصل استطرادا فيه، والى بعض التكرار فيه.

وقضى الله أن أعيد طبعه في زمن قصير ، وعسير غير يسير ، وقد وفقني فيه بفضله لحذف كثير من الاحالات غير الضرورية منه. وجعل أكثر ما بقي منها في حواشيه حتى لا تشغل قارئه ، وأما أكثر ما يراه في صلبه من الاحالات ، فهو على ما سبق فيه لا على ما في غيره

وأما ما في الطبعة الاولى من التكرار ، فقد أشرت في مقدمتها إلى أن منه ما هو مقصود لذاته اقتداء بالقرآن ، وهذا الصنف منه قد أبقيته وزدت فيه ، وقد حذفت من خاتمته مقدمات إثبات الوحي المحمدي الست، وما يتلوها من الدلائل الثمانية على كون هذا القرآن من كلام الله ووحيه، وخلاصة المقاصد العشر من علومه الاصلاحية، لان أكثر ما أوردته منها مختصر مما قبله، وقد استغني في هذه الطبعة عن أكثره

هذا وانني أصدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب في يوم ذكرى مولد النبي ﷺ من هذا العام (١٣٥٢) على المشهور بين الناس[1] لتذكيرهم فيه بأظهر الدلائل على نبوته، ودحض أقوى الشبهات على دعوته ، فيكون خير ما يذكرون من نعمة الله تعالى به . وها أناذا أصدر الطبعة الثانية منه في يوم عرفة من هذه السنة نفسها تذكيرا بما نزل عليه فيه من قول الله عز وجل (٥ : ٣ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسلامَ دِيناً) لان موضوع الكتاب بيان إكماله تعالى لهذا الدين، وإتمام نعمته على العالمين، واستمرار حاجة جميع البشر إلى هدايته أبد الآبدين ، والحمد لله رب العالمين

١) هو الثاني عشر من ربيع الاول، والارجح عند المحدثين انه التاسع أو العاشر منه


تقاریظ الکتاب

تقاريظ كتاب الوحي المحمدى

قد حبذ الفضلاء هذا الكتاب أحسن التحبيذ، وقرظوه بالممتاز من التقريظ، وشكروا لنا ودعوا، فمن الشكر لله تعالى وللمحسنين من الناس، والتعاون على إذاعة دعوة الاسلام، أن ننشر أهم ما حفظناه مما كتب إلينا، ومما نشر في الصحف التي اطلعنا عليها

ونبدأ بكتابين كريمين، لملكي الاسلام الكبيرين، الامامين الجليلين : إمام العترة الزيدية يحيى بن حميد الدين ملك اليمن الميمون، وإمام أهل السنة والجماعة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ملك المملكة العربية السعودية، وخادم الحرمين الشريفين، أدام الله توفيقهما، وأعز العرب والاسلام باتفاقهما وتعاونهما، وإننا ننشرهما بحسب تاريخ ورودهما

كتاب الامام يحيى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الختم

(أمير المؤمنين، المتوكل على الله رب العالمين، الامام يحيى حميد الدين)

إلى السيد العلامة محمد رشيد رضا صاحب المنار حفظه الله

لقد ظفرت العيون بما تشتهيه، وحظيت من الاماني بما تبتغيه، بعد ارسال رائد لحظها، وتمتعها بالوموق على تلك الرياض الانيقة، وينابيع التحقيق الغزيرة، التي أودعتموها ذلكم المجموع، النفيس المطبوع، المسمى (بالوحي المحمدي) فانه والحق يقال وحيد في بابه موضوعا وتنسيقا، واستدلالا وسياقا، يهدي إلى القلوب، ما يرفع عنها الرين والكروب، ويتحف المطالع، بما تستلذه المسامع، ويستطيبه

القاريء والسامع، وتثلج له الصدور ، وتنبعث من حقائقه أشعة النور، فجزاك الله خيراً على هذه الخدمة الدينية التي نراها من العمل الصالح ، والمتجر الرابح، والقصد الناجح، وانا لتعميم الانتفاع به، نطلب منكم أن ترسلوا إلينا من نسخه المصححة أخيراً مائة نسخة على حسابنا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢

***

كتاب جلالة الملك عبد العزيز

(بسم الله الرحمن الرحيم)

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل

إلى حضرة الاخ المكرم السيد محمد رشيد رضا حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله . أما بعد فقد تلقينا كتابكم الكريم ، المؤرخ في ٢٣ من رمضان سنة ١٣٥٢ وأحطنا علما بما ذكرتم بارك الله فيكم . لقد اطلعنا على كتابكم (الوحي المحمدي) فسرنا اهتمامكم باخراجه للناس ، وقيامكم بما فرض الله من الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، في زمن تكاثرت فيه الشبهات ممن ران الشيطان على قلوبهم فصدهم عن سبيل الله حتى ضلوا وأضلوا . فكان كتابكم من أبلغ القول في اظهار حجة الله القائمة على عباده ، يدعو من كان له قلب إلى دين الحق، ويبين للجاحد الملحد بطلان حجته . فجزاكم الله عن الاسلام والمسلمين خيراً . وأخذ بيدكم في تأييد الدعوة الاسلامية . ونشر عقائد السلف الصالح . ووفقنا وإياكم لما فيه نصر لدينه . وإعلاء لكلمته . انه على كل شيء قدير . والسلام . في ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٥٢ (الختم)

كلمة من كتاب لامام طائفة الاباضية الهمام

كنا أهدينا نسخة من كتاب الوحي المحمدي إلى هـذا الامام الجليل مع كتاب خاص فجاءنا كتاب منه (من نزوي — عمان) بعـد جمع ماتقـدم وما بعده قبل طبعه قال في أوله بعد البسملة

من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي

إلى حضرة العلامة المحقق أخينا السيد محمد رشيد رضا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فان رأيتم في إبطائنا في الرد على كتابكم الكريم المرسل معه مؤلفكم فذاك لاعن إهمال وعدم تقدير ، وان لكم ولأمثالكم من إخواننا علماء الدين الحنيف منزلة كبرى في القلب لا يحلها سواهم ... (ثم قال بعد بيان العذر)

« أما مؤلفكم العظيم فهو في غنى عن التقريظ والمدح ، واعجابنا به لايحد ، ولاشك أنه الحجة الدامغة والقول المتين ، لمن لا يدين بهذا الدين القويم ، وفقكم الله لخدمة الاسلام والمسلمين ، وبارك الله فيما تنوون وتقصدون ، وسلام الله عليكم » (الامضاء)

كتاب صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الازهر بالامس ، ورئيس المحكمة الشرعية من قبل
ورئيس جماعة الدفاع عن الاسلام اليوم

صديقي السيد الجليل الاستاذ محمد رشيد رضا

أستطيع بعد أن فرغت من قراءة كتابكم (الوحي المحمدي) أن أقول إنكم وفقتم لفتح جديد في الدعوة إلى الدين الاسلامي القويم ، فقد عرضتم خلاصته من ينابيعه الصافية عرضا قل أن يتيسر إلا لفرع من فروع الشجرة النبوية المباركة ، وقد استطعتم أن توفقوا بين الدين والعلم توفيقا لا يقوي عليه إلا العلماء المؤمنون ، فجزاكم الله عن الاسلام أحسن مايجازى به المجاهدون ، ولكم مني تحية الاخاء والسلام عليكم ورحمة الله

محمد مصطفى المراغي

تقريظ الاستاذ الفاضل صاحب المصنفات المفيدة

(الشيخ محمد أحمد المدوي الازهري)

كتاب جديد أخرجه الاستاذ الكبير صاحب المنار ، وآية كبرى من آيات الله في التأليف ، وحسنة من حسنات صاحب المنار (وحسناته كثيرة) تقرأ هذا السفر فترى فيه حججا دامغة ، واحاطة بمقاصد الاسلام ، ودفعا لشبه يوردها أعداء الحق ، ولقد يخيل اليك أثناء دراستك للكتاب أن صاحبه لمس أمراض النفوس فوضع لها علاجها ، كما تراه قد أقام الحجة من العقل والنقل على الملحدين من رجال العلم ولاسيما الماديين منهم ، وإنه لكتاب تحتاجه جميع الطبقات ، وحاجة الذين يهمهم نشر الدين والدعوة اليه أشد ، أفاض في مباحث الوحي ، وأقام الادلة على أن ذلك الوحي لم يكن نابعا من نفس محمد ﷺ كما زعم المسيو درمنغا في كتابه « حياة محمد » وغيره . وانما هو نازل من السماء

ليس بالعجيب أن نرى لصاحب المنار هذه المعجزة العلمية فان البحوث الدينية والتحقيقات العلمية قد امتزجت بلحمه ودمه ، حتى أصبحت الكتابة فيها هينة عليه لينة له ، ويأخذ منك العجب منتهاه حين تجلس اليه فيحادثك وتحادثه ـ وقلمه يسيل بتحرير مسائل في الدين أقل ما يحتاج الكاتب اليه فيها ان ينقطع عن العالم ليجمع شتات فكره رجاء أن يلم بأطراف مسألة منها

وهذه آثاره في تفسير كتاب الله تعالى ناطقة بنبوغه وتفوقه ، وأنه بز علماء التفسير جميعهم في إبراز القرآن الكريم للناس معجزة دائمة ، وهداية عامة شاملة ، وسعادة لهم في دينهم ودنياهم ، تقرأ طائفة من التفسير فتحس في خلال القراءة أن من ورائك سوطا من أسواط الحق يسوقك إلى الفضيلة ويردعك عن الرذيلة ، وأن صلتك بكتاب الله تعالى وتعلقك به في هدايته وفقه معانيه هي أغلى شيء في هذه الحياة ، وأعظم رزق ساقه الله إليك ، كما تحس في ذلك التفسير أنك في دائرة من دوائر المعارف الالهية الكبرى

وجدير بأستاذ له هذا الاثر أن يطلع على الناس بأمثال الوحي المحمدي مما يغذي أرواحهم ، وينمى معارفهم ، دع ما وراء ذلك كله من قوة في البيان ،

ورواء في الاسلوب ، وتنسيق لطرق الاستدلال ، ودقة في المأخذ ، كل ذلك تجده في مؤلفات صاحب المنار ، وتراه أوضح وأجلى في [كتاب الوحي المحمدي] وما سبقه من كتاب (نداء للجنس ، اللطيف وحقوق المرأة في الاسلام]

وكل ما نتمناه أن يُلهم الناس رشدهم ، ويعرفوا للعاملين قدرهم ، فيكافئوهم على هذه المجهودات بمطالعة كتبهم ، وان ينسأ الله في أجل صاحب المنار حتى يتم تفسيره الذي خدم فيه احد عشر جزءا من أجزاء القرآن الكريم ، وان يمده بروح منه ويبعد عنه مشاغل الحياة حتى يعيش موفور الصحة هادىء البال

وأن يستجيب فيه دعاء الاستاذ الامام وهو يقول في آخر حياته

فيارب ان قدرت رُجعى قريبة — الى عالم الارواح وانفض خاتم
فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا — رشيدا يضيء النهج والليل قاتم
ويخرج وحي الله للناس عاريا — من الرأى والتأويل يهدى ويلهم

﴿ كلمة من كتاب ، للاستاذ الكريم صاحب الامضاء ﴾

لئن اجتمع علماؤنا الرسميون على أن يأتوا بمثل هذا الكتاب لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا

أطال الله حياتك يامرشد الحيران . وياخليفة حكيم الاسلام . حتي تصير الامة الاسلامية (رشيدية) اسما ولحما ودما إن شاء الله ، رغم أنف الحاسدين امثال صاحب سجود الشمس تحت العرش . وأعوذ بك ربي أن أكون من الجاهلين .

ياصاحب الفضيله

قرأت كتابكم « الوحي المحمدى » إلى آخره فاذا به فيض من نور الله ، وقبس من ضيائه ، يجب على كل مسلم متدين أن يقرأه إذ أنه خير كتاب من نوعه ألف في هذا الموضوع ، بل يجب على كل مسلم غيور أن يعمل على ذيوعه وانتشاره بين طبقات الامة حتي يعم نفعه . وهذا ماعاهدت الله عليه خدمة للدين وابتغاء وجهه الكريم . (احمد احمد القصير)

في كفر المندره

﴿ طائفة مما كتبه النابغون من علماء ديار الشام الاعلام ، أيد الله بهم الاسلام ﴾

— ١ —

للاستاذ العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار (١)

اذا أردت أن تعرف قيمة تفسير المنار للقرآن الحكيم ، وأن تتحقق أنه أفضل تفسير للمسلمين في هذا العصر يقوم به أقدرهم عليه ، وأولاهم به ، وأنه لايسد مسده تفسير آخر ، لانه يستمد من قوى هذا العصر وحقائقه ، ويدفع ما تجدد من الشبهات والشكوك ، ويقيم الادلة القاطعة ، ويورد الشواهد الحسية والتاريخية على ان الحكومة الاسلامية هي أفضل حكومة في العالم كله .

اذا شاقك ذلك وأردت أن تعرفه يقينا ، فاقرأ كتاب (الوحي المحمدي) للسيد الامام علامة العصر الاستاذ السيد محمد رشيد رضا منشيء المنار ومؤلف تفسيره ، فهو نموذج من ذلك التفسير العجيب الذي صدر منه عشرة مجلدات ضخمة إلى الآن ، فسر بها ثلث القرآن الحكيم ، وكتاب (الوحي المحمدي) منها هو تفسير لقوله تعالى (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ؟) في أول يونس من الجزء الحادي عشر (٢)

ولعمر الحق إنه أتى في هذا الكتاب بالعجب العجاب ، فقد أثبت نبوة محمد ﷺ بالبراهين العقلية والعلمية القاهرة ، وأورد الشواهد التاريخية والحسية الكثيرة ورد جميع ضلالات بني آدم عنها ، لاسيما شبهات فلاسفة الافرنج ، ومطاعن الملحدين وخرافات المشعوذين .

وقد كان بعض فلاسفة الغرب كتوماس وديتيه ودرمنغام وأمثالهم كتبوا

(١) هذا الأستاذ جامع بين العلم الصحيح والعمل به والدعوة اليه قولا وكتابة وخطابة ومناظرة وبذلا مما يملك من مال قليل فقد علمنا انه اشترى من كتاب الوحي المحمدي نسخا كثيرة من دمشق ووزعها على من يظن بهم الفهم والانتفاع ، حتى من ملاحدة الأغنياء ، فنسأل الله أن يخلفه عليه ويجزيه خير الجزاء

(٢) سيصدر الجزء الحادي عشر في المحرم من سنة ١٣٥٣ ان شاء الله تعالى

في السيرة النبوية شيئا حسنا، وبسطوا لأممهم حقائق منها، لولاهم لطمسها الجهل والتعصب غير أن هؤلاء قد عرضت لهم شبهات وأوهام، فحسبوا الوحي الالهي النبوي عموما والمحمدي منه خصوصا ، ضربا من الاستعداد النفسي . والفيض الذاتي . أي انه نابع من قلب الرسول ﷺ غير نازل من عند الله .

وقد بسط السيد الامام شبهتهم هـذه . وأبرزها بأوسم معانيها . وصورها بأجلى صورها . ثم كر عليها بالنقض والابطال . وبين فسادها واستحالتها من عشرة وجوه لاتحتمل الرد ولا المراء .

ثم عقد فصولا في إعجاز القرآن بأسلوبه وبلاغته. وقوة تأثيره وهدايته . بما لم يؤثر مثله أي كتاب آخر . ثم أفرد مقاصد القرآن الدينية والمدنية لرفع مستوى الانسانية . فشرح أصول السعادة الخالدة . ومطالب الحياة الراقية. ودل على مقاصد الاسلام العالية. التي لا يطمح العقل البشري ولا الارتقاء المدني إلى أسمى منها أبداً

ولقد شرح السيد الامام معجزات الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام شرحا بليغا يوقف من تدبره على سر اصطفائهم واجتبائهم، وكونهم صفوة البشر وأكملهم وأفضلهم وأولاهم بحمل أمانة التشريع ، والقيام بعهدة التبليغ «الله أعلم حيث يجعل رسالته »

ثم ان من أمعن النظر فيما كتبه عن المعجزات نفسها ، وما أقامه من ميزان العدل والنصفة بينها ، أدرك ان ليس فيما ظهر على يد المسيح عيسى بن مريم منها مايعلو به عن مقام النبوة والرسالة أبداً (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) ثم أدرك ان القرآن هو الآية الالهية الكبرى ، والمعجزة الدينية العظمى ، بل هو معجزة المعجزات، وآية الآيات ، ولولاه لانمحى رسم تلك الخوارق من الاذهان .

ألا ليت دعاة النصرانية المبشرين الذين يسعون لتنصير مسلمي الارض وهم مئات الملايين ، ويبغون زوال القرآن (وقد تولى الله حفظه) من الوجود ، ليتهم يعلمون ان أمة القرآن التي دانت به وأذعنت لحكمه ، ولم تلتفت إلى شيء غيره ، قد شهدت ببراءة العذراء البتول ، وابنها المسيح الرسول ، من مفتريات أعدائهم

اليهود ، وآمنت عن طريق القرآن وحده بكل ماورد من معجزات الرسل وآياتهم ، وان القرآن لو زال لاقدر الله تعالى من الارض فان أمة القرآن لا تؤمن لأحد بعد (الوحي المحمدي) بنبوة ولا رسالة . ولا تعتقد بنزول وحي من السماء على أحد من الانبياء ، فايمانهم بالقرآن إيمان بسائر كتب الله ، وتصديقهم بخاتم النبيين تصديق بسائر رسل الله ، وكفرهم بالقرآن كفر بجميع الكتب والرسل ، فأي الفريقين من المؤمنين والكافرين أحق بالامن إن كنتم تعلمون ؟ (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون)

وانك لتجد هذه الحقائق كلها وأضعافها واضحة في كتاب (الوحي المحمدي)

واني لمعترف باني عاجز عن وصفه ، وبأني لم أحط علما بكنهه ، ولكني أختم كلمتي بما قاله أحد خطباء الشرق الاستاذ يوسف اصطفان الشهير في المؤلف نفسه على إثر محاضرة كان ألقاها السيد الامام بدمشق الشام في عهد الحكومة العربية قال لافض فوه : إن كان لهذا الرجل (يعني السيد الامام) نظير في رجال الدين في الغرب ، فنحن لانستحق الحياة أو قال الاستقلال في الشرق

ثم ختم الكتاب بدعوة الشعوب المتمدنة إلى ما ينجيهم من غوائل المدنية الفاسدة . ويمتعهم في ظلال الاسلام والسلام

والكتاب قد ترجم إلى لغات كثيرة شرقية وغربية وتقرر تدريسه في بعض الممالك الاسلامية . أفليس العرب وفيهم أنزل القرآن ، ومنهم أرسل الرسول ﷺ أولى بذلك ؟ بلى ، وان قلمي ليعجز عن الاحاطة بوصف كتاب (الوحي المحمدي)

وحسبي أن أوجه نظر كل من يهمه أمر دينه ولاسيما شبابنا المثقف وطلاب المدارس العالية أن يجعلوه عمدتهم في دراستهم ودروس قراءتهم ، فهو يغني عن كل كتاب في موضوعه ، ولا يغني عنه غيره .

محمد بهجت البيطار

— ٢ —

(للعلامة الاستاذ الشيخ محمد ظبيان الكيلاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي الى الخير الهادي الى الرشد ، وآله وصحبه وتابعيه وحزبه . أما بعد فقد من الله تعالى علي بالاطلاع على كتاب الوحي المحمدي الذي أخرجه للناس العلامة الكبير والاستاذ الشهير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر فأدهشني مارأيت من بدائع ذلك البناء الشامخ ، والطود الراسخ ، وما حواه من الآيات البينات ، ومعجزات العلم الباهرات ، واني لا أريد أن أتوسع في تقريظ هذا الكتاب ، وان أبالغ في مدحه كما يفعله كثير من العلماء والكتاب ، ولكني أريد أن أقول كلمتي عما حواه من الحقائق التي أتى بها المؤلف حفظه الله على ضوء العلم فأقول :

انه لما أخبرني أخي وصديقي العلامة الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار أحد علماء دمشق بصدور هذا الكتاب ، وأخذ يصف لي ماشتمل عليه من الحقائق العلمية والاسلوب الجذاب ، داخلني الريب فيما قال ، وعددت ذلك غلواً في الدعاية أو ضربا من الخيال ، ولكني ماكدت أتناوله وأتصفح عباراته ، وأتذوق طلاوة أسلوبه الحكيم ، حتى انقلب ذلك الريب يقينا ، وأصبح عندي ذلك الخيال حقيقة ملموسة ، واذا بهذا السفر يتدفق حججا استمدها المؤلف [أدام الله ارشاده] من نور القرآن ، واقتبسها من مشكاة العرفان ، فكأنه وحي من الوحي ، فقلت (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)

جاء هذا الكتاب في وقت اشتدت الحاجة إلى مثله ، وتطاولت الاعناق الى وجود مؤلف جامع على شكله ، إذ نشأ اليوم الجهل وكثر الفساد ، وهجمت على المؤمنين جيوش الزيغ والالحاد ، فكادت تجتاح الفضيلة ، وتقضي على البشرية بسموم الرذيلة ، وتجتث الاعتقاد بوجود الخالق ، وتقذفه من حالق

فجاء الاستاذ المؤلف يدعو الامم أجمع إلى هداية القرآن بالحكمة والموعظة الحسنة، يخاطب كل أمة على قدر عقولها ، وينوع الاساليب الحكيمة بتقريب الحق إلى افهامها، ليمحو ظلمة شكوكها وأوهامها ، وليكون ذلك أوقع في النفوس وأبلغ في تأثير الحجة

أننا اليوم في عصر كثر فيه طلاب العلوم الكونية ،فلا يذعنون إلا لما كان مؤسسا على الحقائق العلمية ، فهاهم اليوم قد وجدوا ضالتهم المنشودة ، وبغيتهم المقصودة ، فهو كترجمان حكيم يخاطب كل واحد منهم بلغته،ويناجي كل فريق على قدر عقله ودرجة استعداده ومعرفته،فما أجدر طلاب العلوم الكونية،وعشاق الحقائق في كل أمة ان يعكفوا على اقتنائه ، ودراسته وتدبر آياته ، ليستضيئوا بنور مشكاته ، فينالو السعادتين ، ويفوزوا بالنعمتين

أما علماء الاسلام فانهم اذا ولوا وجوههم شطره، وقرءوه لاخوانهم، ازدادوا ايمانا مع إيمانهم ، وكان لهم منه سلاح جديد يدفعون به هجمات أعداء الاسلام من المبشرين والملحدين ، ويدحضون به دعاويهم الباطلة ، وكان لهم منه أيضا مادة غزيرة يستعينون بها على الدعوة الى الله

وانا أرجو من الاستاذ [أدام الله نفعه] أن يسعى في ترجمة هذا الكتاب القيم الى اللغات الاجنبية ، من شرقية وغربية ، وفي مقدمتها اللغة الانجليزية،لانها أكثر انتشارا في الارض ، وليطلع عليه الامم التي لم تقف على حقيقة الاسلام حتى اليوم كالامتين اليابانية والاميركية ،وليكون عونا لجمعية الدعوة والارشاد الاسلامية في طوكيو عاصمة اليابان ، لتفهيم القوم حقيقة الاسلام ، وانه لم يكن دينا تعبديا فحسب، بل هو دين اجتماعي ، جاء لسعادة البشر ، جمع بين خيري الدنيا والآخرة والله يهدي من يشاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم

دمشق محمد علي ظبيان الكيلاني

— ٣ —

(للعلامة الاستاذ الشيخ محمد مسلم الغنيمي الميداني)

نور سطع في سماء جزيرة العرب منذ ثلاثة عشر قرناً فأضاء أرجاء الكون لجدير بأن يكون موضع الاعجاب وتوجه الانظار ، وإن جزيرة العرب في ذلك الزمن كانت مجدبة من كل علم وفن لا يرى في سمائها بارقة نور

أخذ هذا النور يتلألأ في سماء الجزيرة وما تزيده الايام إلا ضياء وامتداداً، والمعلوم أن مصدر هذا النور العظيم هو ذاك القرآن الحكيم ، والنبي الكريم ، العربي الصميم، محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم

ولقد شهد عظماء الافرنجة وفلاسفتهم كدروي وايرفنج وسديو واسحاق طيلر وغوستاف وتولستوي وتومس كارليل وهنري كاستري وغيرهم أن المدنية الغربية مقتبسة من الحضارة الاسلامية ، ولو أخذنا نبسط أقوالهم لطال بنا المقام وخرجنا عن الموضوع

وممن كتب في السيرة النبوية من مفكري الغرب درمنغام ومونتيه وغيرهما فوصفوا النبي ﷺ بأنه كان محباً للخلاء والعزلة يفكر في طريق النجاة من هذه المخازي والضلالات التي عم ظلامها البشر ، ولكنهم حسبوا الكتاب الذي أنزل عليه ﷺ من الوحي النفسي والالهام الذاتي: أي انه عليه الصلاة والسلام صفت سريرته على رءوس الهضاب وبين الشعاب في غار حراء، فأوحت اليه نفسه كتابا أرشد الامم وجميع الشعوب بتعاليمه كما ذكر مونتيه في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم بعد ذكره لأنبياء بني اسرائيل فقال : فتحدث فيه (أي الفكرة الدينية) كما كانت تحدث فيهم ذلك الالهام النفسي

فهذا أقصى ماوصلت اليه أفكار فلاسفة الغرب في الوحي الالهي ، لذلك قام علامة الاسلام السيد الامام محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر ، فكشف اللثام عن حقيقة الوحي وماهيته وكيفيته ،وأبطل مزاعمهم وردشبهاتهم بأدلة عقلية

وبراهين حسية مفسراً قوله تعالى(أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم)
كتاب لم ينسج على منواله،ولم يسبق المؤلف لمثله ، فهو كتاب لايستغنى عنه المسلم ولا غير المسلم ، فالمسلم يعلم كيف يقيم الحجة على صحة دينه ، ونبوة نبيه وكتاب ربه ، وغير المسلمين يرون الفرق واضحاً بين الوحي السماوي والالهام النفسي ، فجزى الله السيد المؤلف خيراً ،وأدامه للمسلمين ذخراً آمين

دمشق محمد مسلم الغنيمي الميداني

— ٤ —

(للطبيب النطاسي ، والعالم المصري ، الدكتور سعد عيد عرابي)

لقد تقهقر البشر في هذا العصر في الاخلاق والآداب ، ومحقت الفضيلة ، وحلت مكانها الرذيلة ، التي انحطت به الى أقصى درجات البهيمية ، وما ذلك الا لان تقدم الحضارة والعلوم الكونية كان ماديا ،وكان البشر آليا ،متجردا عن الروح في كل حركاته وسكناته ،ومتى سلب الشيء روحه كان باهتا لالذة فيه ولا طعم ، وهذا مادعاهم أن يسرفوا في ألوان الرذائل وأشكالها علهم يجدون بها متعة جديدة تنسيهم آلام هذه الحياة المادية ، وهذه الحضارة الزائفة ، وما كان ذلك الا ليزيدهم شقاء وبلاء !

لئن فكر بعض عقلاء أوربا وغيرهم في اللجوء الى الدين ، وبأنه العلاج الوحيد لأدواء هذه الحضارة ، وتمنوا لو يبعث في الشرق أو في الغرب نبي جديد يصلح بهدايته فسادها ، فقد نادى منادي (الوحي المحمدي) بأن حي على الفلاح ها إن محمدا ﷺ خاتم النبيين ،وها إن الاسلام دين البشرية والسلام كفيل إن اتبعتموه أن يهديكم صراطا مستقيما ، وأبان فضائل الدين الاسلامي ومزاياه على ما جاء في الاديان الاخرى ،وما حواه من التشريع الديني والمدني ،وأماط اللثام عن الحجب التي بين الافرنج وحقيقة الاسلام وعددها : فمن عداوة الكنيسة ودعايتها المشوهة الباطلة، الى كذب رجال السياسة وطمعهم في استعباد الشعوب ـ شعوب الاسلام ـ الى سوء حال هؤلاء في القرون الاخيرة وجهلهم حقيقة دينهم وأمور دنياهم

مع أن الغاية الاساسية لهـذا الكتاب دحض مزاعم درمنغام وغيره من الافرنج الذين يدعون أن الوحي المحمدي وحي نفسي لا إلهي ، ومع أنه أفاض في الموضوع، وأيد بالبراهين العقلية والادلة القطعية وبمعجزة القرآن المجيد فساد مزعمهم هذا ، وأن الوحي المحمدي أثبت وأكمل وأعم من كل وحي جاء قبله ـ فقد جاء هذا الكتاب من مقدمته الى خاتمته جامعا شاملا لم يترك شاردة أو واردة تعلي كلمة الله تعالى وتنصر الحق المبين الا وذكرها ، كما وان هذا السفر النفيس يروي غليل من كان للحقيقة من المستطلعين ، فقد عرّف النبوة وأبان الفوارق بين المعجزات والكرامات ، وشرح مقاصد القرآن المجيد شرحا دقيقا : من دينية واجتماعية وسياسية ومالية [وأستأذن أن أذكـّره بالقواعد الصحية وهي كثيرة]

والخلاصة أن هذا الكتاب قد جمع وشمل ما في الاسلام من حكم ، وقد وفى الموضوع حقه ، بأن قدمه للجمعيات الاسلامية في العالم داعيا رجالاتها الى ترجمته الى لغاتهم لتكون فائدته أعم . وقد دعا في خاتمته شعوب المدنية الى الاسلام ، دين الانسانية والسلام ، لانقاذ البشر من هذا الشقاء العام

ومن جميل ماقاله لهم في دعوته هذه « قد بينا لكم أيها العلماء الاحرار بطلان مااخترعته عقول المنكرين لنبوة محمد ﷺ من العلل والآراء لجعل ماجاء به من العلم الالهي الأعلى ، والتشريع المدني الأسمى ، والحكمة الادبية المثلى ، نابعا من استعداده الشخصي ، وما اقتبسه من بيئته ومن أسفاره ، مع تصغيرهم لهذه المعارف جهلا أو تجاهلا ، وعلمتم أن بعض ما قالوه افتراء على التاريخ وان مايصح منه عقيم لاينتج ما ادعوه ، وعلمتم انه في جملته مخالف للعلم والفلسفة وطباع البشر ، وسنن الاجتماع ووقائع التاريخ . ونحن نتحداكم الآن بالاتيان بعلل أخرى لما عرضناه على أنظاركم من وحي الله تعالى وكتابه لمحمد ﷺ مع القطعي من تاريخه : علل يقبلها ميزان العقل المسمى بعلم المنطق ، فان لم تستطيعوا — ولن تستطيعوا — أن تأتونا بعلل تقبلها العقول ، وتؤيدها النقول ، فالواجب عليكم أن تؤمنوا بنبوة محمد

ﷺ ورسالته، وبكتابه المنزل عليه من عند الله تعالى لاصلاح البشر ،وأن تتولوا الدعوة إلى هذا الايمان ومعالجة أدواء الاجتماع الحاضرة به »

ومما قاله حفظه الله «أما أنتم أيها العلماء المستقلو العقول والافكار فالمرجو منكم أن تسمعوا وتبصروا ، وأن تعلموا فتعملوا ، فان كانت دعوة القرآن لم تبلغكم حقيقتها الكافلة لاصلاح البشر على الوجه الصحيح الذي يحرك إلى النظر لانكم لم تبحثوا عنها بالاخلاص مع التجرد من التقاليد المسلمة عندكم والاهواء،ولان الاسلام ليس له زعامة ولا جماعات تبث دعوته ، ولا دولة تقيم أحكامه وتنفذ حضارته ، بل صار المسلمون في جملتهم حجة على الاسلام وحجابا دون نوره ،فأرجو أن يكون هذا البحث كافياً في إبلاغ الدعوة اليكم بشرطها المناسب لحال هذا العصر ، فان ظهر لكم الحق فذلك ما نبغي ونرجو لخير الانسانية كلها ،وإن عرضت لكم شبهة فيها فالمرجو من حبكم للعلم،وحرصكم على استبانة الحق أن تشرحوها لنعرض عليكم جوابنا عنها، والحقيقة بنت البحث كما تعلمون»

حقا قليلون وقليلون جداً (كذا)العلماء الذين يحذون حذو صاحب الفضيلة العالم العلامة حجة الاسلام الاستاذ السيد رشيد رضا في إظهار الاسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية ، وقد أظهر في دعوته شعوب المدنية الى الاسلام ، كما أثبت في مقاصد القرآن المجيد ،أن الاسلام دين البشرية والسلام ، دين العقل والفكر ، دين العلم والحكمة ، دين الحجة والبرهان

ان ظهور السفر النفيس (الوحي المحمدي) خدمة جلى أسداها للدين وللبشرية وللحقيقة وللتاريخ ، جديرة بأن تسطر له بأحرف من نور على صفحات الفخار وليتفضل المؤلف الامام بقبول شكري

دمشق الدكتور سعد عيد عرابي

خريج جامعتي باريز وبرلين

— ٥ —

(للعلامة الاستاذ الشيخ سعدي يس الدمشقي)

تكرم علامة دمشق الشام الشيخ محمد بهجة البيطار فأهداني كتاب (الوحي المحمدي) كما هو شأنه مع أصحابه ومعارفه في كل كتاب نفيس يصدر، وذلك خلق طبعه الله عليه

وما ان اطلعت على هذا الكتاب العظيم العديم المثال حتى علمت علم اليقين ان كتاب الوحي المحمدي هو خير كتاب أخرج للناس في هذا العصر، بل لم يؤلف قبله في بابه نظيره، ولقد ارتفع عن كل مؤلف كما ارتفع مؤلفه عالم الاسلام الامام الهمام السيد الشيخ محمد رشيد رضا عن كل عالم ومؤلف في هذا العصر. ولقد سما به وايم الله لمكان لا تطيف به السباع ولا تنحط عليه العقبان

تأملت شبه درمنغام التي بسطها المؤلف الامام قبل الرد عليها فاذا هي جبال تتصاغر أمامها دوامغ الحجج، وبحار زاخرة تكاد تغرق الحق في اللجج، وتمتليء منها قلوب المؤمنين رعبا، وما إن كر عليها ذلك الغضنفر الضرغام، بسيف الحق الصمصام، حتى ذلت بعد جبروتها، وصغرت بعد كبريائها، كما ذل وصغر الثعلب، بين يدي القسورة الأغلب، وإذا بها ريش وهباء، أمام زعزع نكباء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق)

وكتاب الوحي المحمدي ليس رد مفتريات وإبطال أخطاء فحسب، بل هو كتاب جمع فأوعى، فيه إثبات ان القرآن وحي الله الذي أوحى به لرسوله محمد ﷺ النبي العربي الامي الهاشمي، وانه آية الله الكبرى التي أيد بها دينه ونبيه، وانه معجزة باقية ما بقي النيران، وتعاقب الملوان، وانه أتى بجميع مايحتاجه البشر لمعادهم ومعاشهم

وفيه إثبات نبوة محمد ﷺ بوجه خاص ونبوة جميع الانبياء بوجه عام، أثبت ذلك بأدلة أنصع وأمتع وأرفع من أدلة كتب دلائل النبوة، اثباتا اعتمد على الادلة العلمية العقلية التي يذعن لها المخالف المنصف والخصم المعاند. وفيه أصول العقائد الاسلامية بل فيه ملخص الشريعة الاسلامية: أحكامها وحكمها

وانك لتجد ان السيد الامام، أمتع الله بطول حياته المسلمين ونصر به الاسلام، تجد أنه قد قسم الاصلاح الالهي للبشر في القرآن الى عشرة مقاصد، لا أحسب أن مخالفا منصفا يقرؤها متدبراً لها ويبقى عنده أدنى ريب أو أقل شبهة في أن القرآن أعظم كتاب منزل، على أشرف نبي مرسل . دعم المؤلف الامام هذه المقاصد بشواهد حية، وآيات ناطقة، وحجج ليست براهين ساطعة ولكنها شموس طالعة، ولئن سمي كتاب فتح الباري قاموس السنة فكتاب الوحي المحمدي ترجمان القرآن

وليس هذا بكثير على سليل بيت النبوة ومن يمت لرسول الله ﷺ بنسب البنوة . ولقد خطر لي وأنا أقرأ كتابه كلمة ذلك الاعرابي الذي سأل أبا جعفر محمد بن علي بن سيدنا الحسين اذ سأله فقال: هل رأيت الله حين عبدته يا أبا جعفر؟ فقال : لم أكن لأعبد من لم أره . قال فكيف رأيته ؟ قال لم تره الابصار بمشاهدة العيان، ورأته القلوب بحقائق الايمان لا يدرك بالحواس ولا يشبه بالناس. معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجوز في القضيات، ذلك الله الذي لا اله الا هو . فقال الاعرابي (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ألا وان هذا وذاك من ينبوع واحد، وإن أقول الا ما قاله ذلك الاعرابي

بيروت — سعدي يس الدمشقي

— ٦ —

(للاديب الفاضل الشيخ محمد نعيم البيطار)

ماهذه الاشعة التي انبعثت من غار حراء فأشرقت بنورها الجزيرة العربية ثم مالبثت أن ملأت الدنيا بهجة وضياء؟

من ذلك الرجل الذي ظهر للوجود فأنقذ العالم مما كانوا فيه من البؤس والشقاء وقادهم جميعا إلى طرق السعادة والهناء ؟

ماهذه الدعوة التي لم يمض على ظهورها ربع قرن حتى احتلت قلوب العالم فكانوا لا يخالفون مبادئها قيد شبر

ترددت هـذه الاسئلة في خواطر المطلعين على أحوال الامم والمنقبين عن تواريخ الشعوب لما شاهدوا من آثار تلك المدنية الباهرة التي مازالت آثارها موضع الاعجاب رغم مضي مئات السنين على أصحابها

فشرع كل منهم يضعها بقالب موافق لما يريد ، ويملي على قلمه مايوحيه اليه فكره من آرائه التي اكتسبها من البحث والتنقيب، فكان بينهم المخطيء والمصيب، غير أن المخطيء يحتاج الى تنبيه لان خطأه اذا شاع بين العوام، كان مدعاة لدفن الحقائق والتمسك بالاوهام

لذلك الامر الخطير قام صاحب كتاب الوحي المحمدي السيد الامام، علامة الاسلام ، الاستاذ محمد رشيد رضا منشيء المنار الاغر . فأبان أغلاطهم التي تطرأ على كل من لم يكن ضليعاً بالامر الذي يقدم عليه . فكان من أكبر أغلاطهم أن حسبوا الوحي الالـهي إلهاما فطرياً من نفس الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، بمساعدة البيئة والذكاء والانفراد ، إلى غير ذلك من الاسباب التي أيدوها بآرائهم الفاسدة فأغرت كثيراً من المتعلمين الذين لم يطلعوا على حقائق السيرة النبوية فذكر السيد الامام مصدر تلك الشبهات ودحضها بالحجة والبرهان ، وأقام الشواهد الكثيرة على أن الوحي الكافل لاصلاح جميع البشر لا يمكن إلا أن يكون وحياً إلآهياً

وقد أفاض في ذكر إعجاز القرآن في بلاغته وبيانه وتأثير هدايته ومقاصده العليا من تنظيم شئون الحياة الاجتماعية ، تنظيما يتفق وحاجة بني الانسان ، على اختلاف الازمان والبلدان

ثم احتج بجميع ما ذكر على أن الدين الذي يكفل ذلك كله هو أحق أن يتبع فدعا جميع شعوب الارض الى التمسك بهدايته والعمل بتعاليمه الربانية ، ليعرفوا كيف يستفيدون من حضارتهم التي أصبحت مهددة بخطر الزوال ، فكان كتابه كتابا قيما ، جدير بكل طالب علم أن يطلع عليه ويجعله من مقتنياته النفيسة التي يرجع اليها وينقل عنها

محمد نعيم البيطار

— ٧ —

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد رشيد ميقاني مفتي طرابلس الشام

أخي العزيز السيد عاصم آل رضا حفظك الله

سلاما واحتراما [وبعد] قرأت [كتاب الوحي المحمدي] الذي أهديتنيه فلا تسل يا أخي عما حصل لي من المسرة ، في الحظوى بما هو لعيون المؤمنين قرة، ووقفت موقف الحائر ، فيما أقول عن هذا السفر الباهر ، المزري بالدرر والجواهر ، والسهل الممتنع ، الجامع المانع ، في بيان حقيقة دين الاسلام ، لكافة الانام ، فلم يسعني إلا أن أجهر بكلمة : الله أكبر ، فتح ونصر ، وشعرت كأن مناديا ينادي من علوّ : يا أمة محمد ، أمة الاجابة والدعوة ، ويا طلاب الحقيقة والخلاص والاخلاص في هذا العالم ، هاكم كتابا اقرءوه ، فتعلموا منه بالوجدان والضمير الحي ، حقيقة الدين الاسلامي بأنه دين الحضارة والعقل ، والترقي والعدل ، والتسامح والفضل ، والعز والمجد ، والسيادة لكل فرد ، والكفالة لكل خير في معاشكم ، والسعادة في معادكم ، وانكم إن علمتم به وعملتم فزتم بسعادة الدارين ، وان لم تعملوا ، وعلمتم ظاهراً من الحياة الدنيا فزتم بها وحدها ، وان لم تعلموا ولم تعملوا خسرتم الدنيا والآخرة كحال بعضكم ، وذلك هو الخسران المبين ، وتعلموا حقيقة الوحي المحمدي أنه من الله رب العالمين ، نزل به روح القدس جبريل الامين ، على قلب النبي الامي محمد ختام المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فمن هذا السرور ، ومن هذا الشعور ، تراني يا أخي داعيا الى الله أن يكافيء مؤلف هذا الكتاب الجليل ، العلامة النبيل ، الفهامة لدين الاسلام ، ابن عمك الرشيد الامام ، بخير ما كوفيء محسن باحسانه من الخير والانعام آمين ، راجيا ابلاغ أزكى سلامي وفائق احترامي لحضرة المشار اليه ، أدام الله فضله عليه ، والسلام عليكم، ورحمة الله تهدى اليكم

مفتي طرابلس
محمد رشيد ميقاني

١٠ رمضان سنة ١٣٥٢

طائفة من التقاريظ التي رأيناها في المجلات والجرائد

(تقريظ الاستاذ العلامة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي)

(محرر مجلة الضياء الهندية في لكنهؤ ، ونشر فيها)

هدية ثمينة وتحفة نفيسة وثمرة علمية يانعة،أنتجها قلم امام هذا العصر وحكيمه الأكبر ،مولانا السيد محمد رشيد رضا . لازال بحر بره زاخراً يقذف بالدرر ، ووابل علومه يحيي القلوب الميتة ، وظله الوارف حماية للاسلام والمسلمين

هذه الدرة اليتيمة فكرة خطرت لحضرة السيد حين اشتغاله بتفسير كتاب الله القرآن ، واستخراج نفائس كنوزه وأثمن منها الياقوت والمرجان ، وهي بلا شك من التحديث الرباني،والالهام الرحماني . قدمها حضرته للعالم الانساني ، في شهر ربيع الاول الذي كان فيه مولد المنقذ الاكبر للنوع الانساني محمد صلوات الله عليه . فكانت خدمة جليلة وتكريما لذلك الجناب المقدس. ولعمري أن بمثل هذا العمل المبرور يكون التكريم والتعزيز ، وهو الآية المحكمة على المحبة العلمية الايمانية، لا التمسح على الاحجار أو تعليق الخرق المزوقة،وإيقاد الانوار الكهربائية الملونة ، والفقراء ذات اليمين وذات الشمال يتضورون جوعا ويموتون بأمراضهم ولا معالج لهم ولا آس ، وراية الاسلام منكوسة ،وأحواله معكوسة ،وشرع النبي الاكرم منبوذ ظهريا ،وسنته الشريفة متخذة سخريا، ولا غرو (وما يستوي الاعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوي الاحياء ولا الاموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من في القبور)

افتتح الامام الكتاب بمقدمة بين فيها بحكمة عالية واضحة نيرة على ذلك ارتقاء البشر في الامور المادية في خدمة هذا الغلاف الجسمي وبلوغهم في ذلك الغاية التي انعكست وصارت شراً على الاجساد التي اخترعت لتنعمها وتسعدها ،وبين انحطاطهم الروحي ، وإفلاسهم الادبي وما سبب لهم من الشقاء والعذاب الجسمي الذي منه

يحذرون ويفرون ، وبرهن على أن السعادة البدنية يستحيل الوصول اليها بدون الكمال الروحي، والرقي النفسي ببراهين لاتبقى للشك مجالا، وراش سهام التأنيب للدول الآخذة بأزمة الامم في هذا الزمان ، وحمل عليها تبعة الخزي والشقاوة الذين تجلبهما على العالم بتكالبها على المادة، وتنافسها في التطاول وحب العلو والفساد في الارض باهلاك الحرث والنسل في حروبها المتنوعة من سياسية واقتصادية وأدبية وغيرها .

ثم ذكر اعتراف حكماء الغرب بهذا الفساد وتمنيهم أن يبعث نبي يحدث انقلابا روحياً ينقذ الانسانية من نصبها وشرورها ، واطباقهم على أن أديانهم لاتنجع في علاج هذا الداء ، بل ربما كانت إحدى عوامله. فأراد هذا الامام الحجة أن يريهم أن الذي يطلبون بين أيديهم ، وأن الدواء الناجع على طرف الثمام ، ويرفع عنهم حجب الجهل والتعصب التي حرمتهم من اقتباس أنوار الدين الاصلي الخالد، دين الفطرة ، ويضع أيديهم على محاسنه وفضائله ليتفقهوا فيه باتخاذهم «الوحي المحمدي» دليلا وهاديا ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون .

ولاجرم أن السيد أيده الله جمع ماكتبه الحكماء والاطباء النطاسيون لامراض النفوس في هذا العصر وفيما قبله وزاد عليه بأوجز عبارة وأوضحها ، وفتح بابا جديداً للدخول إلى خزانة كنوز القرآن استعصى فتحه على من حاوله قبله من المصلحين بالنسبة إلى طب أدواء عصرنا هذا ، وأتى في هذا السفر الصغير الحجم بالادلة القاطعة عقلا ونقلا من الكتب المنزلة والسنن النبوية التي يتضاءل أمامها كل معاند بما يشفي الغليل ، ويبرىء العليل في أمهات المسائل التي تشغل أذهان علماء العصر وعامته . فمنها نبوة محمد ﷺ واثباتها بالحجج التي تجبر مثبتي الوحي ونفاته على الاذعان والبحث الوافي الشافي في الوحي والمعجزات عند النصارى وعند المسلمين والفلاسفة مما لاتجده في غيره . ومن خواصه أنه أورد فيه جميع

الشبهات القديمة والجديدة التي وجهت للوحي العام والخاص وأجاب عنها بأحسن جواب . ثم خرج إلى المقصود بالذات وهو القرآن مبينا أسلوبه ، وحكمة تكرار الآيات فيه ، وما أحدثه هذا الكتاب العظيم من تأثير وانقلاب في العالم، ثم حصر مقاصده الاصول نذكرها آسفين اجمالا لضيق المقام

(وهنا لخص الاستاذ مقاصد القرآن العشرة وخاتمة الكتاب فجزاه الله عن نفسه ودينه وأخيه المؤلف أفضل الجزاء)

(تقريظ مجلة الشبان المسلمين لكتاب الوحي المحمدى)

(لرئيس تحريرها الاستاذ النحرير الدكتور يحيي الدرديري)

الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا ليس بغريب على القاري، حتى نقدمه اليه بمقدمة تشرح تاريخه وماضيه في الجهاد القلمي للاسلام . وبحسب القارىء أنه يعلم أنه منشيء مجلة المنار ، وأنه وارث علم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ومذيعه على الناس إذاعة لولاها ما كتب له هذا الذكر الخالد العريض

وقد أخرج للمكتبة الاسلامية العربية في هذا العام كتابا قيما في إثبات الوحي المحمدى بالقرآن، ودعوة شعوب المدنية الى الاسلام، دين الاخوة الانسانية والسلام

وقد تعرض فيه للشبهات التي تحوم حول نبوة سيدنا محمد ﷺ وردها وبين رأى الكنيسة المسيحية في النبوة وتعرض لبيان المعجزة والكرامة والخوارق وتأثيرها في الافراد والامم ، وبين أن الوحي المحمدى ليس وحيا نفسيا كما يعتقد بعض علماء الفرنجة وبين قيمة القرآن في إثبات معجزات الانبياء وتفرد الاسلام بنوع من الاعجاز ليس في غيره من الاديان الى غير ذلك من المباحث والقضايا الدينية التي قد لايعثر على حل لها إلا في منتوج قلم الاستاذ الشيخ رشيد

ويقع الكتاب في مائتي صفحة وهو مطبوع طبعا جيداً في مطبعة المنار فنحث القراء على اقتنائه

(تقريظ)

﴿ بقلم الاديب الكبير الكاتب النحرير الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى ﴾
نشر في جريدة البلاغ الغراء

شغلتني أشغال عن مطالعة هـذا الكتاب أول مظهره . حتى اذا تفرغت وتهيأت لي الاسباب تجردت في قراءته وتدبره . ولقد تناولته والظن معقود بأنه من جنس ماخرج من الكتب في بابه ، على انني ماكدت أسترسل فيه حتى جعل يتعاظمني شأنه ، ويتكاثرني خطبه ، وكلما أمعنت فيه زادني إعجابا به ، واجلالا لموضعه ، حتى خرجت منه ولا يكاد كتاب في بابه يبلغ مداه ، أو ينتهي منتهاه،

ولقد يتداخلك العجب من أن أطلق أنا مثل هذه الشهادة في كتاب يخرجه السيد رشيد رضا ، وبيننا ما أعلم ويعلم ، وما الله تعالى به أعلم ، فان للدين والعلم حقا يجب أن تكبح له الشكائم ، وتسل دونه السخائم . وللحساب الغليظ مقام آخر إن شاء الله (١)

كتاب الوحي المحمدي يرجع موضوعه أو موضوعاته في الجملة إلى إثبات رسالة محمد ﷺ . وانها خاتمة رسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام . وان شريعته هي الشريعة الجامعة لكل مافيه صلاح العالم وحضارته ويسره وأمنه وسعادته في كل مكان ، وإلى غاية الزمان، وان شأنه عليه السلام مع شأن من تقدمه من الرسل الكرام لعلى حد قول المتنبي :

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى فذلك إذ أتيت مؤخراً

ولقد أتكأ المؤلف في تدليله أكثر ما اتكأ على القرآن الكريم ،وفي إحسان

---

(١) ذنبي عند الكاتب أني هضمت حق والده الاستاذ الاكبر الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الازهر رحمه الله في تاريخ الاستاذ الامام ، بلغه هذا من كاشح فصدقه وأحفظه، وهو منكر من القول وزور ، فالكتاب لم يغمط حق والده في شيء مما اشتهر به من سعة العلم، وقوة الفهم ، وحسن الالقاء وانما بين ما يجب بيانه من وقوفه موقف المعارض لما سعى اليه الاستاذ الامام من الاصلاح، والشيخ عبد العزيز يعرف هذا كما نعرفه، فان استطاع اقناعنا بخطأ في شيء منه رجعنا عنه شاكرين

وابداع أثبت السيد أنه لولا القرآن ما انتهضت حجة قاطعة على نبوة من تقدم من الانبياء .

ولقد جعل المؤلف كلما تحول إلى باب أو انحرف إلى مطلب في أسباب الموضوع يتقرى فرى عدو الاسلام من الداعين الى حربه ، ومن الملحدين عامة ، وشبه الشاكين من أهله، ومن المتطرفين منهم بالتشكيك في بعض قضاياه، فيفريها بالحجة فريا ، ويضغمها بالدليل الحاسم ضغما ! فما يدع لأصحابها متنفساً ، ولا يجيز لمتنزي الالحاد مضطربا .

ولقد قال الكتاب في محمد ﷺ وفي الوحي . وفي القرآن . وفي أثره في العالم . وفي معجزات الانبياء . وفي حاجة العلم إلى الدين . وفي كثير غير ذلك مما ينسق للغرض ، ويتجلى به وجه الحجة ، فكفى وشفى ، وبلغ من الاحسان والاجمال غاية المدى .

وليس من شأن هذا المقال أن يدل على مواضع الاجادة في أبواب الكتاب، بله كل فصل من كل باب . فذلك مما يخرج عن طوق سابغ المقالات، على ان في الكتاب مقامات صلصل فيها البيان الديني أي مصلصل ولقد يكاد يتحول حسك وأنت تطالعها من البصر إلى السمع ،حتى يخيل إليك أنك تسمع صرير القلم . ويحضرك في هذا المعنى قول المتنبي أيضاً :

* كالخط يملأ مسمعي من أبصرا *

ولا شك في أن من هذه المقامات الرائعة قول الكتاب في أسلوب القرآن الخاص واعجازه به، وحكمة التكرار فيه . ولقد وقع في هذا الغرض على حكم لم أقع عليها في كتب من تقدمه . على ان المؤلف على عادته . لقد أسرع فكاثر بهذا في الفهرس إذ قال عند الاشارة الى هذا الفصل (وهو مالم يسبق لأحد بيانه)

ومن المقامات البارعة في الكتاب القول في معجزات الانبياء ،والفرق بينهما وبين كرامات الاولياء ، والحد بينهما وبين شعوذة المشعوذين ، وآثار رياضة المرتاضين ، فلقد جمع في هذا الباب بين ما أثر في الشرع وما يجري به سنن الكون، في لباقة وحسن تعليل، وجودة تفسير وبراعة تأويل .

ومن هذه المقامات التي تخلب وتروع ما أقام هذا الكتاب من ناصع الحجة على إيفاء الشرع المحمدي على الغاية في تقرير أعلى القواعد وأضبطها للاصلاح الاجتماعي والمالي والسياسي، ويدخل في هذا الباب العلاقات الدولية، ونظم الحروب وغير ذلك مما يكفل صلاح البشر كافة، ويتضمن رقي المجتمع الانساني وبلوغه في أسباب الحضارة تلك المنزلة التي تخيلها أئمة الحكماء ودعاة الاصلاح من قديم الزمان.

ولقد عرض الكتاب غير هذا لمزايا الاسلام وحكم أحكامه سواء في العبادات أو في الاسباب الدائرة بين الناس، وبين جهة ارتفاعها على أن تكون من شرع البشر، وانها أجمع وأكفى، وأكمل وأوفى من كل ماسن الخلق من النظم. بل من كل ماتنزل من الشرائع على جميع الرسل السابقين، عليهم صلوات الله أجمعين

وكل ذلك أجراه المؤلف على أسلوب منطقي سليم خال من الاسراف ومن الشعر والتخييل.

ومما يزيد من قدر هذا الكتاب أن كثيراً مما جلا واستظهر من القضايا مبتكر لم يسبق. على أنه لم يكن أقل براعة فيما نقل أو اقتبس. فلقد كان حق لبق في إلحاق كل شيء ببابه، وإقرار كل أمر في نصابه، الى حضور الشاهد من كتاب الله تعالى وماصح من حديث رسوله ﷺ، وما أثر عن الثقات من أئمة الاسلام ومن شهادات علماء الافرنج أيضاً. ومهما يكن من شيء فالكتاب في الجملة مما لايطاول في بابه. بل لا أحسبني مسرفا اذا زعمت انه يمكن أن يعد بحق من إحدى حجج الاسلام اه

***

هذا ماوصف به البشري كتاب الوحي، ويسرنا منه ان كتبه وهو ساخط على مؤلفه، يبتغي مرضاة الله دون مراعاته، ولولا ذلك لرأى الناس فوق ما رأوا من آياته. ويليه كلمتان فيما سماه تحفظا احداهما في مسألة الاجتهاد والثانية في علماء الرسوم أو الرسميات وقد أرجأتهما الى مجلة المنار

(تقريظ)

(الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد ، ونشر في جريدة الجهاد)

أكثر من قرأت لهم من كتاب المباحث الدينية الاحياء اثنان : هما السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار والاستاذ محمد فريد وجدي صاحب التواليف والتصانيف الكثيرة المعروفة باسمه

فأما السيد رشيد فهو أوفر نصيباً من الفقه والشريعة والدراسات الموروثة ومزيته على الكتاب الدينيين في العصر الحاضر أنه خلا من الجمود الذي يصرفهم عن لباب الفقه إلى قشوره ، وسلم من تلك العفونات النفسية التي تعيب أخلاقهم وتشوه مقاصدهم ، فهو أدنى إلى الصواب وأنأى عن العوج وسوء النية

وأما الاستاذ وجدي فهو أوفر نصيباً من الحرية والعلم العصري والاذواق المدنية ، والتماسه للتأويلات في الدين مستمد من شعوره باللياقة أو بما يخالفها كما يشعر الرجل الذي يعيش في بيئة الحضارة من المصريين المثقفين

قرأت المنار ومباحث السيد رشيد لانني كنت أقرأ كل ما كتب الاستاذ الامام محمد عبده وكل ما أوصى بقراءته مما تتناوله طاقتي في سني الدراسة

وقرأت الاستاذ وجدي لأنني اتجهت إلى هذه الوجهة فأحببت المزيد فيها وكان أول ماوصل إلي من كتبه « الاسلام في عصر العلم » فكانت أدلته عندي كافية للاقناع في سن النشأة الاولى

ولا أزال كلما احتجت الى بحث مستنير في الفقه والشريعة رجعت الى كتب السيد رشيد ، وكلما احتجت الى تفسير مثقف لعقدة من العقد الدينية رجعت إلى رأي الاستاذ وجدي فيها ، وقد أجد في كليهما ما ينفعني معاً في كلا الامرين

وكتاب « الوحي المحمدي » الذى أظهره صاحب المنار في الاشهر الاخيرة هو من أفضل ماكتب في مباحثه الدينية : توخى فيه كما قال « أن يكون أمضى مدية لقطع ألسنة الطاعنين في الاسلام من دعاة الاديان الاخرى » وأراد به أن يكون كتابا « يصلح لدعوة شعوب المدنية الحاضرة الى الاسلام ببيان البراهين

العقلية والتاريخية على كون القرآن وحياً من الله تعالى لا وحياً نفسياً نابعا من استمداد محمد ﷺ كما يزعم بعض المتأولين لاعجازه منهم ، وبيان ما فيه من الاصول والقواعد الدينية والاجتماعية والسياسية والمالية والدفاعية السلمية التي يتوقف على اتباعها صلاح البشر وعلاج المفاسد المادية وفوضى الاباحة وخطر الحرب العامة التي استهدفت لها جميع الدول والشعوب في هذا العهد

وعندنا ان الاستاذ يستجمع الكثير من أسباب الكفاءة الضرورية بتأليف كتاب في هذا الموضوع للغرض الذي أبانه، فهو يعلم من أسرار الاصول الاسلامية مالم يتيسر في العصر الحاضر إلا للقليلين بين علماء المسلمين ، وهو مسموع الرأي في العالم الشرقي ، كثير القراء والمريدين في بلاد الاسلام ، وهو أسلم فطرة من جميع من سمعنا بهم من المتصدين لهذه المباحث بين الشيوخ والفقهاء

وقد درست بعض فصول الكتاب وتصفحت بعضها فبدا لي انه ينهج في الاستدلال العقلي منهجا كفيلا باقناع العدد الاكبر من قراء هذه المباحث ولاسيما المسلمين ، ولا أشك في سعة انتشاره وفلاحه في تفنيد المزاعم والريب التي قد تساور الاذهان بين أولئك القراء ، فان لم يبلغ الكتاب كل غرضه المفصل في فاتحته فهو بالغ من ذلك الغرض مايستحق تأليف كتب شتى لا تأليف كتاب واحد ، وحسب المؤلف أن يظفر بهذا ليظفر بشيء كثير »

(يقول محمد رشيد مؤلف كتاب الوحي)

هذا مابين عباس أفندي محمود العقاد رأيه في الكتاب من المناحي التي يشترك فيها مع جمهور الكتاب ، وقد زاد عليه نقدا بل نقصا سوله له ما يسميه هو وأمثاله « النقد التحليلي » أتاه من باب بعيد عن أبواب علم الوحي سماه (المنطق

النفسي) الذي احتكره لأمثاله المقلدين أو المتبعين لكتاب الافرنج فيما يعرفون وفيما لا يعرفون ، وذكر من مسائل هذا المنطق « ضيق ملكة الاحتمال والفرض » وذكر من فروعه التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وانه كان يجب على بحكم هذا المنطق أن أضع الحد الفاصل بين علم الانبياء وعلم غيرهم بالغيب ، بما يوصد باب الاحتمال والفرض بدلا من تركه مفتوحا بمصراعيه ، وقد نشرت كلامه هذا في المنار ، وبينت خطأه فيه من ناحيته بيمينه وشماله وان سببه أنه لم يقرأ ما كتبته في هذا الباب

(كلمة للاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي)

الكاتب الخطيب المصنف الشهير

نشرت في جريدة البلاغ في ٢٣ من جمادى الاولى سنة ١٣٥٢ الموافق ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٣٣

الوحى المحمدي كتاب من تأليف العالم العلامة السيد محمد رشيد رضا منشىء المنار الاغر وغاية المؤلف ثبوت النبوة بالقرآن ، ودعوة شعوب المدنية إلى الاسلام دين الاخوة الانسانية والسلام .

وقد صدرت الطبعة الاولى منه في يوم المولد النبوى الشريف سنة ١٣٥٢ الموافق يوليو (تموز) سنة ١٩٣٣ م وهو في مئتي صفحة من القطع الكبير .

وفي الحق أنه كتاب جليل يلفت الانظار بما أورده الاستاذ مؤلفه من الادلة العقلية والحجج النقلية بوضوح وجلاء على طريقة حديثة لم تسبق للمؤلفين في المسائل الدينية الا للاستاذ العلامة محمد فريد وجدى مما دلنا على تطور مبارك في أسلوب السيد رشيد الذى كان يجارى المؤلفين القدماء كنقله قول أحد علماء النصارى للمؤلف :

« أنت تعجب بمحمد وتعتقد أنه نبي مرسل وأنا أعجب به واعتقد انه رجل عظيم فتقديرى له أعظم من تقديرك »

وقد حاول الاستاذ الفاضل اثبات الوحى بالمعجزات بأدلة منطقية فجاء موفقا في كثير من بحوثه وتكلم في درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ونفى شبهة منكري عالم الغيب على الوحى وأظهر أن نبوة محمد ورسالته قائمتان على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وموضوعها لان البشر في عهد النبي قد بدءوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذى لايخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لايكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه ، فجعل حجة نبوة خاتم الانبياء عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه واعجازه اللفظي والمعنوى ، ليربي البشر على الترقى في هذا الاستقلال الى ماهم مستعدون له من الكمال

ثم خلص الاستاذ الى الكلام على القرآن فتكلم عن اصلاح اركان الدين التي افسدها الغير وهي الايمان بالله وعقيدة البعث والجزاء والعمل الصالح . ثم جعل لبحوث القرآن عشرة مقاصد كلها منطبقة على المنطق والعقل وحسن التعليل وسلامة التدليل مما يجعل الكتاب مقبولا لدى الشبان المنورين والمياليين لحرية الفكر

ويقول الاستاذ إن الكتاب يشمل دعوة شعوب المدنية الي الاسلام ولم يقل لنا أية مدنية يريد ففهمنا انه يقصد الى أوروبا وأمريكا . وليسمح لى أن اقول إنه جاء متأخرا جداً وكان يجب عليه أن يؤلف هذا الكتاب من عشرات السنين وأن ينقله الى لغات أوروبا ، وأن يطبعه بالملايين ويوزعه مجانا . لانه لاينتظر ان أهل لندن ونيويورك وبرلين يشترون الكتاب من مطبعة المنار . ونحن نعلم أن هذا العمل يتطلب مالا كثيراً ووقتا أكثر فينبغى للسيد رشيد أن يدعو الى هذا لاأن يكتفي بالتأليف العربي وحده ، يدعو الى نقل الكتاب الى اللغات وترجمته وإلا فان مجرد الكتابة على الغلاف أنه دعوة شعوب المدنية الي الاسلام لاتكفى

(تقريظ الاستاذ الفاضل الشيخ محمود أبو رية)

﴿ نشره بالمقطم ﴾

كنت أحسب يوم ان قرأت في الصحف نبأ كتاب « الوحي المحمدى » انه رسالة صغيرة وضعها الاستاذ الكبير السيد محمد رشيد رضا ليمحص فيها أمر الوحي وحقيقته بعد ما كثرت فيه اقوال بعض علماء الوحي وأنكروا امكانه بما يعرف المسلمون كما يفعل في مسائل كثيرة مما يثور حولها الجدل فيضع فيها رسائل خاصة تطلع من قلمه منيرة كفلق الصبح فتكون الحكمة وفصل الخطاب

كنت أحسب الامر كذلك حتى اتيح لي الاطلاع على هذا الكتاب فاذا بي أجد الامر اكبر مما حسبت وأعظم مما توهمت واذا انا بازاء كتاب متعدد النواحي متسع الارجاء لايقف عند الكلام على الوحي وإنما يمتد فيحيط بكل ماأوحي به الي النبي صلى الله عليه وسلم

ونحن لانحاول هنا ان نظهر للقارىء الكريم كل مابين دفتي هذا الكتاب من بحوث لان ذلك يحتاج الى مقالات طويلة وانما نشير إلي بعضها وحسبنا ذلك

تكلم الاستاذ الكبير عن الوحي وفند بأدلة قوية مسددة مايزعمه الذين يقولون ان الوحي المحمدي انما كان وحيا نفسيا ولم يكن وحيا الهيا

وعقد فصلا رائعا عن آية الله الكبرى (القرآن الكريم) وعن اسلوبه واعجازه جاء ولا ريب آية في البلاغة والتحقيق العلمي وقد كشف فيه عن معنى دقيق في حكمة التكرار في الكتاب العزيز فأبان أنه لم يأت عبثا وانما هو أسلوب عجيب من أساليب القرآن العجيبة المعجزة في تربية الشعوب بحيث لو خلا كتاب الله منه لما بلغ في نفوس العرب مابلغ من غرس تعاليمه القويمة وحكمه العالية وأغراضه النبيلة في نفوسهم واجتثاث مافي هذه النفوس من عقائد باطلة وعادات فاسدة

وقفى على ذلك ببحث قيم عن الثورة والانقلاب الذى أحدثه القرآن الكريم في العالم وكيف فعل في نفوس العرب مشركين ومؤمنين

وأنشأ بعد ذلك يتحدث عن مقاصد القرآن الكريم فجعلها عشرة مقاصد وجعل تحت كل مقصد مسائل كثيرة وقدشاء له حبه للتمحيص أن يمسك بطرفي التحقيق في كلامه عن هذه المقاصد فلم يقف عند اثباتها بالادلة النقلية بل ظاهرها بالبراهين العقلية

وختم هذه المقاصد بخلاصة وافية في مسألة الوحي وجعل خاتمة الكتاب في دعوة شعوب المدينة الى الاسلام لانقاذ البشر واصلاح فسادهم

هذا بعض ماجاء في كتاب (الوحي المحمدى) ولا غرو فان مؤلفه هو الاستاذ الكبير السيد محمد رشيد رضا الذى قال فيه بحق زعيم الاسلام الكبير ومجاهده العظيم شيخ البيان الامير شكيب ارسلان في معلمته الاسلامية الكبرى (حاضر العالم الاسلامى)

« قد انتهت اليه الرياسة في الجمع بين المعقول والمنقول والفتيا الصحيحة والتطبيق بين الشرع والاوضاع المحدثة مع الرسوخ العظيم في اللغة . . . الى أن قال : وهو الرجل الذى اذا دعا كل مسلم باطالة حياته لكان بذلك جديراً »

واذا كان لنا من كلمة عامة في هذا الكتاب نختم بها هذه الكلمة الصغيرة فانا نقول انه كتاب لايستغني عنه مسلم ويجب على كل من يريد من أهل الاديان الاخرى معرفة أمور الاسلام على حقيقتها ان يقرأه ويتدبره

محمود أبوريه

تقريظ الاستاذ عبد السميع البطل المدرس بمدرسة رقي المعارف الثانوية

استهدف الاسلام منذ فجر التاريخ ، لكثير من الشبهات التي كان يصوبها نحوه خصومه من الملاحدة ، وأعداؤه من السياسيين ، وكان العلماء في كل عصر يتصدون للرد على هذه الشبهات ويجدعون أنوفها ، فيظل واضح الطريق ، نيّر الدليل ، ثم يسير الزمن بالناس،وتتلقح أفكارهم بعلوم ومعارف جديدة،فتتجدد لهم شبهات ، وتعصف بهم أعاصير ، فاذا بالعلماء المستقلين يكرون على المهاجمين ، يجدّلونهم بشباة أقلامهم ، وقواطع حججهم ، فما هو إلا أن نرى الباطل منكسرا ، والحق منتصرا

وقد تجددت في العصر الحاضر شبهات على الاسلام كثيرة ، وهو جم من أعدائه في إحكام وقوة ، ولم يدعوا منفذاً يأتي على بنيانه من القواعد إلا سلكوه، ولا سلاحاً يجهز عليه إلا صوبوه ، ولولا حصانة الاسلام الطبيعية،ومنعته الذاتية ، لخرّ مضرّجا بدمائه ، ولأصبح أثراً بعد عين

ذلك أن علماء الاسلام وهم ورثة النبوة ، والقوامون على حراسة الدين ، قد شغلتهم المناصب الدنيوية فأعطوها كل أنفسهم ، ومكنوا لها من قلوبهم ، وانصرفوا عن النظر في القرآن وعلومه ، مخلدين إلى أرض التقليد ، عاكفين عليه ، فلم يسايروا الزمن ، ولم يتمشوا مع الرقي الفكري ، وأصبحوا يعيشون في عالم وحدهم ، لا يدرون ماذا يقال عن الاسلام ، ولا بم يهاجم وكيف يهاجم ، ولئن سألتهم ليقولن « إن الاسلام بخير ، وله رب يحميه » وهو جواب العجزة ومن لا حيلة لهم

ولكن الله لا يذر الاسلام بغير سيف يحميه ، ولم تخل الارض من قائم لله بحجة ، فهذا معقل الدين وسنده عالم الاسلام السيد محمد رشيد رضا قد أخرج لنا في هذا العام كتابه ﴿ الوحي المحمدى ﴾ يثبت فيه النبوة بالقرآن ، ويدعو شعوب

المدنية إلى الاسلام ـ دين الاخوة الانسانية والسلام ـ فكان خير كتاب أخرج للناس في بابه

افتتحه المؤلف الكبير بمقدمة فياضة في بيان موضوع الكتاب، وحاجة البشر إلى الاسلام، وبيان الحجب التي تحول بين الاسلام والافرنج. ثم أفاض في الموضوع بما أفاء الله عليه من علم غزير، وعقل منير

والسيد رشيد دائرة معارف إسلامية واسعة، وهو حين يكتب في الاسلام، لا يدع قولا لقائل، ولا يترك استدراكا لمستدرك، وأشهد لقد كنت أقرأ مقالات (الوحي) وهي لا تزال تنشر تباعا في (المنار) فيأخذ مني الاعجاب بها كل مأخذ، ويسبق لساني بالدعاء لصاحبها بطول العمر والسلامة كفاء خدمته للاسلام

بل أشهد ويشهد معي جميع الذين اطلعوا على كتاب (الوحي المحمدي) أنه لم يكتب مثله كاتب في الاسلام، وأنه خير كتاب في الدعوة إلى الاسلام وبيان مزاياه، لا يستغنى عنه مسلم، ولا يسد غيره مسده في هذا العصر، ولا أستثني رسالة التوحيد للاستاذ الامام، فانها على طرافتها، وقوة حجتها، وبلاغة عبارتها، قد يقال فيها، إنها رأي لصاحبها وصل إليه بعد دراسة للاسلام عميقة، بل قيل « إن رسالة التوحيد فلسفة لا دين » ذلك أن الآيات التي استشهد بها المؤلف رحمه الله كانت قليلة جدا، اكتفاء بالاحالة على الحجج العقلية، ووقائع التاريخ الصادق، أما (الوحي المحمدي) فانه يثبت كل شيء بالقرآن، ويضع يد القارىء على موضعه من السور، في سبيل أبى، ونور محمدي،

وجملة ما يقال في الكتاب، إنه أحسن ما ألف في العقيدة الاسلامية في هذا العصر، وأنفع كتاب في الدعوة إلى الاسلام وصد غارات المبشرين، وأقرب إلى عقول المتعلمين المدنيين، وإني لارجو أن يترجم الى اللغات الحية، وحينئذ أرتقب أن تقوم ثورة فكرية في العالم الغربي تتكشف عن فوز الاسلام ورجحان كفته. جزى الله المؤلف خير الجزاء

عبد السميع البطل

(تقريظ)

بقلم فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحميد السائح النابلسي (*

منذ مدة وأنا أفكر في كتاب يصلح أن يكون هاديا وبشيراً للامم غير الاسلامية باسلوب مألوف لديهم وعلى نمط يكون في متناول جمهرتهم حتي ينادى في الاوساط الاوروبية والاميركية بالدعوة الى دين الاسلام بالحجة والبرهان وامتلاء النفس قناعة وطمأنينة، ومع هذا يتيسر لنشئنا المثقف ونابتتنا الزاهية، ان تتصفحه وتطالعه، ويزيل مايترددها من شبهات، ويزيح مايعتورها من اعتراضات فلم اعثر على ذلك الكتاب الى ان اهتديت الى كتاب (الوحي المحمدى) للعلامة المحقق السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار، ذى الاراء الاسلامية الناضجة، والابحاث الدينية الموفقة، فوجدت فيه الضالة وتحققت فيه الرغبة.

اني قانع كل القناعة ان القرآن كفيل بحاجة مطالعه قمين بان يملأ نفس قارئه ايمانا وحكمة وعلماً وادبا وسياسة وخبرة ولكن هذا يتوقف على أن يكون القارىء خبيراً باللغة العربية ملماً بعلومها متضلعا من بلاغتها وفصاحتها ولا ريب ان هذا غير متيسر لكثير من ابناء العربية وعلماء المسلمين فكيف بغير العرب وغير المسلمين ؟ خصوصاً وان المسلمين اعرضوا عن الاستفادة من هذا الكتاب المقدس الاستفادة اللائقة به واصبحوا لا يعتنون الا بمظاهر ختمه فقط ومراسمه الشكلية.

من اجل هذا كانت حاجة المسلمين الى كتاب يبشر بدينهم على الوجه الذى بينا ماسة وشديدة

وليس من شك في ان هذا العمل يتطلب تفكيراً عميقاً وخبرة واسعة ووقتاً

*) من جريدة الجامعة الاسلاميه – ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢ ١٥ أكتوبر

غير قصير، حتي يخرج الى الملأ مستكمل النواقص وافياً بالحاجة، وان الاستاذ السيد محمد رشيد هو اجدر من يقوم بهذا العمل واحق من يتحمل هذا العبء، وان مبادرته الى اخراج هذا المؤلف مسارعة الى اداء فرض محتم عليه، وقيام بواجب لامناص منه، لكفاءته النادرة، وشهرته في العالم الاسلامي شهرة فائقة، والاعتماد على آرائه، والاستفادة من نتائج قريحته والوثوق من خبرته وسعة اطلاعه.

بدأ المؤلف كتابه في البحث بموضوع الوحى والاستفاضه فيه ومناقشة القائلين باثباته من اهل الاديان السماوية، وبحث آراء تفاته من الماديين وافاض في نفيها واقامة الحجة على ابطالها. ثم قفى على ماذكر بمقاصد القرآن، في ترقية نوع الانسان، شارحاً اركان الدين وانواع الاصلاح التي يحتاج اليها الانسان في حياته، وتخلل ذلك بحث مسئلة المعجزات وخوارق العادات التي هي مدار اشتباه الكثير من المثقفين والمتعلمين وقد صور الدين بصورته الحقيقية فاطلع القارىء على كثير من قواعد الدين الاصلاحية الاجتماعية والمالية والسياسية مستندا في ذلك كله على آي القرآن ونصوص الاسلام. ثم ختم المؤلف كتابه في بحث تحرير الرقاب ومنعه وازاح ما يخفى علي كثير من المتعلمين من الشبهات في هذا الموضع وغيره وبالجملة فان الكتاب بالنسبة لابحاثه الاجتماعية والمالية والسياسية لا ريب انه واف بالمقصود من هذه النواحي علي شكل يسر كل مسلم، ويحفز كل غيور على دينه أن يقبل على مطالعته وتصفحه.

وليس من شبهة في أن المقصود الاول من هذا الكتاب جمله في متناول العلماء غير الاسلاميين وخصوصاً غير العرب كما ذكر المؤلف نفسه (النتيجة المقصودة بالذات دعوة شعوب المدنية: أوروبة واميريكة واليابان بلسان علمائها الى الاسلام لاصلاح فساد البشر المادى وتمتيعه بالسلام والاخاء الانساني في العالم)

ولا يتيسر هذا الا اذا ترجم لغات الاجنبية من قبل متضلعين بتلكم اللغات عارفين باسرارها فينبغي والحالة هذه على الهيئات الاسلامية ان تقوم بهذا الواجب ونرجو ان يسارع مكتب المؤتمر الاسلامي العام بالقدس وغيره من الهيئات الاسلامية الى هذا فانه عمل منتج ويرجى ان يكون له اثر خطير في العالم وان هذا

العصر عصر طغت فيه المادية واعتز المبشرون فيه بتشكيلاتهم واموالهم، فعلى الاقل يجب على علماء المسلمين وهيئاتهم ان يقوموا بنشر مبادئهم الدينية الحقة واذاعتها في الملأ لتكون سلاحا يوجه الى كل من أراد هذا الدين بسوء وقصد تشويه تعاليمه ومبادئه

وان هذا الكتاب رغما عما يؤخذ عليه يفيد مطالعه فائدة جليلة جداً، ويعود على قارئيه بنتائج لا يتيسر الوقوف عليها من غيره ، ويعطي صورة عظيمة القدر لتعاليم الاسلام خالية من تلك الاغشية التي وضعها عليها بعض العلماء ، ويوصل الى معرفة حقائق اسلامية بشكل ينثلج له الصدر ،وعلى وجه تطمئن له النفس واني ادعو بني قومي واخواني الى المسارعة لمطالعته واقتنائه والاستفادة من ابحاثه ومحتوياته

وان مايؤخذ على الاستاذ المؤلف قد شعر هو به فيما قال : على انى لم اكتب هذا البحث أول وهلة لهذا الغرض (وضع مصنف في اثبات الوحى المحمدى) وانما بدأت منه بفصل استطرادي لتفسير آية : « أكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم » الخ . ثم قال . ولو انى قصدت هذا منذ بدأت بالكتابة لوضعت له ترتيباً آخر يغنيني عن بعض مافيه من الاستطراد والتكرار الخ . فاكثر مايؤخذ عليه يرجع الى استطراد في البحث يكاد ان يكون مملا وخصوصاً في فصل اقامة الحجة على مثبتي الوحي ونفاته(١)

وقد ابدى معذرته في قوله . ولكني كتبته في اوقات متفرقة وحالات بؤس وعسرة لا اراجع عند موضوع منها ماقبله الخ . وبيان المأخذ وذكر المعذرة لا يعني التقليل من اهمية هذا الكتاب وشخصية مؤلفه بل على العكس يجعلنا نرجو ان يوالى تصنيفاته في تلكم المواضيع باذلا الجهد في مجانبة مالاحظه على نفسه جزاه الله عن الامة الاسلامية خير الجزاء وضاعف له الاجر على مجهوداته التي لاتنكر والله ولى التوفيق

نابلس . عبد الحميد السائح

---

(١) من الغريب أني عنيت بالاستطراد بحث الخوارق كما قال هذا الاستاذ الذكي حتى اني استشرت بعض كبار العلماء أولي الرأي في اختصاره في الطبعة الثانية فلم يوافقني أحد بل قال الاستاذ العلامة الشيخ المراغي انه من أهم المباحث فلا ينبغي حذف كلمة منه

(تقريظ أمير البيان،شكيب ارسلان)

ان المسلمين على بينة من أمرهم لا يحتاجون إلى دعاية ولا إلى التماس الادلة حتى يعتقدوا بوجود واجب الوجود الذي لا يمكن العقل البشري أن يتصور هذا الكون بدونه ، وكذلك لا يفتقرون إلى الادلة على صحة نبوة محمد ﷺ بعد أن تلقوا خلفاً عن سلف النور الذي أنزل عليه والذي مازال ينيرهم من العهد المصطفوي إلى الآن . فكتاب الوحي المحمدي للاستاذ العلامة حجة الاسلام في هذا العصر السيد محمد رشيد رضا لم يكتب في الحقيقة للمسلمين لانه كتاب يقيم الادلة على صحة أمر يحيا المسلمون ويموتون عليه ، ويرون جميع براهينه من قبيل البديهيات التي لا يحتاج عندهم إلى برهان كما لا يحتاج النهار إلى دليل . وإنما وضع الاستاذ هذا الكتاب للاوربيين الذين يريدون أن يعلموا ماعند الاسلام من الادلة على صحة الوحي المحمدي ،والذين منهم من إذا أنار لهم الدليل لم يكابروا فيه تعصباً وعدوانا وصدوا عن رؤيته . وقد كتبه أيضا لكل من نشأ نشأة أوربية أى خالية من التربية الاسلامية التي يكون الناشيء قد ارتضع فيها مباديء الاسلام مع لبن أمه فيقال انها رسخت فيه من الصغر ، ولما كان جميع من يقرءون العلوم العصرية اليوم ويتعلمون بحسب برامج الحكومات الاسلامية الحاضرة هم في الحقيقة أشبه بناشئة الاوربيين ولو كانوا مسلمين نسباً كان هذا الكتاب موجها أيضا اليهم،لانهم في حكم الاوربيين من جهة فقد التربية الاسلامية أو على مايقرب من ذلك

فلهذا كنا ندعو لقراءة هذا المؤلف ليس الاوربيين فحسب بل ناشئة المسلمين أيضا ولا سيما الناشئة التي أبت الحكومات الاسلامية إلا أن تطبعها بالطابع الاوربي لاننا في هذا العصر مغلوبون وأوربة هي الغالبة ، والمغلوب مولع بتقليد الغالب حتى في الخطأ كما قال ابن خلدون، فالاستاذ الحجة يسرد ثمرتا بين الاسباب التي تحمل المسلم على أن لا يرتاب بصحة الوحي النازل على محمد عليه السلام يقول :

ان محمداً كان أميا لم يقرأ سفرا ولم يكتب سطرا،وهذا القرآن العظيم بفصاحته وبلاغته وإشارته إلى جميع مناحي الاجتماع بأرشق إشارة وأوجز عبارة ، لولم يكن

من عند الله لا يعقل أن يقوم به رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يحصل علما من قبل ، بل قضى طفولته في البادية عند بني سعد بن بكر يرعى الغنم مع إخوته في الرضاع . ثم انه نشأ يتيما وكان مع يتمه المثل الأعلى في حسن التربية واستقامة الاخلاق حتى لقب بالامين ، ولم يكن أحد يماري في استقامته وكانوا لنزاهته يختارونه ليقوم بما يختلفون فيه فيما بينهم ، فيستحيل أن يكون رجلا موصوفا بالصدق والامانة إلى هذا الحد من أول نشأته إلى أن يبلغ سن الاربعين ثم يتحول دفعة واحدة فيصير كاذبا مفتريا ، ويضع من عنده أشياء يدعو الناس اليها ويقول انه سمع صوتا ولو لم يسمع صوتا ، وشاهد ملكا ولو لم يشاهد ملكا . ان هذا من الامور المستحيلة عرفا ثم انه لم يكن طالبا شيئا من وراء ما قام به من الدعوة لنقول انه كذب على الناس لينال حظا من حظوظ هذه الدنيا ، فكل أحد يعلم انه لم يكن ينشد ملكا ولا مالا ولا ثروة ولا جاها . فلأي شيء يقوم بدعاية غير صحيحة ويضع أشياء من عند نفسه ويتحمل عليها الهزؤ والسخرية ثم البغضاء والشنآن ثم الأضطهاد والانتقام ويتعرض لخطر القتل وهو لا يريد رياسة ولا نفاسة ولا نعمة دنيوية من جميع هذه النعم ، بل كل ما يريده أن يترك قومه عبادة هذه الاصنام التي ما أنزل الله بها من سلطان والرجوع إلى عبادة الواحد الأحد مبدع هذا الكون لا إله إلا هو

قد كان محمد عليه السلام مؤثراً العزلة لا يخالط أبناء عصره في مجامعهم ، ولا يشاركهم في عباداتهم الوثنية : ونشأ من صغره لا يعبد إلا الله تعالى ، وكان من مزاياه انه لا يقول الشعر ولا يخطب في الاندية ولا يتصدى لشيء من مظاهر الرياسة ولا الشهرة : فكيف يمكن أن ينقلب دفعة واحدة فيخالط الناس ويدعوهم إلى التوحيد وإلى مكارم الاخلاق ، ويقوم فيهم بشيراً ونذيراً ، ويتجشم من العذاب ما يتجشم ، ويتعرض لآلام أمر من العلقم لو لم يكن هناك باعث فوق العادة حافز له على الخروج من عزلته التي بلغ الاربعين وهو عاكف عليها

ويقول السيد رشيد انه من المقرر عند علماء النفس وعلماء الاجتماع ان من

بلغ سن الخامسة والثلاثين ولم ينبغ في علم أو عمل عالمي عظيم لا يمكنه بعد ذلك أن يقوم بشيء منها أُنُفا (بضمتين) أي جديداً لم يسبق اليه فضلا عن الجمع بينهما . والحال ان محمداً ظهر بهذا الامر العظيم وبهذا البيان الالهي الذي لم يعهد العرب مثله وذلك بعد الاربعين فلم يكن قبل هذا التاريخ استعد له بشيء ولا وجد ما يدل عليه من قول ولا فعل ولا علم ولا عمل

قلت وقد يقول بعض الناس ان محمداً كان يظن في نفسه انه يوحى اليه فهو لم يتعمد الكذب تعمداً ، وإنما بلغ به التأمل انه كان يسمع تلك الاصوات ، ويرى تلك الخيالات فيظن ما سمعه وحيا ، وما رآه ملكا . والجواب على ذلك ان هذا الوحي كان قولا ثقيلا خارقا للعادة وكان يؤخذ به أخذاً شديداً حتى كان يخاف على نفسه وطالما خاف أن يكون به جنون . وهذا من جملة الادلة على صدقه وكونه لم يتعمد النبوة تعمدا ولا استشرف لها بشيء من الاشياء وانه قد فاجأه الوحي مفاجأة لم يتقدمه عنده سوى الرؤيا الصادقة وانه جاء وحيا فيه من العلوم العالية كما يقول السيد رشيد والاعمال العظيمة ما كان قلبا للاحوال والاوضاع الدينية والمدنية والاجتماعية بل انقلابا لا يماثله انقلاب معروف في التاريخ

ثم ان هذا الكلام الذي نفث في روع محمد ليس من نسق كلامه الذي يعرفه الناس له فقد تكلم محمد عليه السلام قبل البعثة وتكلم بعد البعثة ولا شك انه كان من أفصح البشر وأبلغهم وقد نطق بجوامع من الكلم تحار لها العقول ولكنه لا يزال بين كلامه الخاص وبين القرآن الموحي اليه بون بعيد فلا كلامه الخاص ولا كلام أحد من الانبياء يسامت درجة القرآن في كثير ولا قليل . وكل من تأمل في القرآن العظيم وكان بصيرا بالبلاغة وقابله بكلام البشر يدرك هذا الفرق الكبير . لا جرم أن القرآن يعلو في بلاغته وفصاحته وأسلوبه وشدة تأثيره علوا كبيرا عن جميع كلام العالمين وكيف يكون ذلك إن لم يكن القرآن وحيا إلهيا ؟ فقول بعض الناس ان محمدا عليه السلام كانت تعروه نوبة عصبية فيظن نفسه يوحى اليه ليس مما يعلل هذا العلو الذي يعلوه القرآن الذي أوحي اليه على الكلام الذي كان يقوله

ثم اننا لا نفهم لماذا يأبون أن يعتقدوا بكون تلك الحالة التي كانت تعرو محمداً عند نزول الوحي عليه هي من شدة وطأة الوحي و كونه قولا ثقيلا ؟ ولماذا يأبون إلا أن يسموا هذه الحالة التي كانت تعروه نوبة عصبية ناشئة عن مرض من أمراض الجسم ولو لم يقم على وجود هذا المرض دليل ؟ فأي استحالة في كون باريء الوجود يوحي إلى أحد عباده الذين اصطفى قولا يحدث نزوله عليه نوبة عصبية يضطرب لها و يتفصد جسده عرقا كما كان يعتري محمداً عليه السلام . وأيضا فالنوبة العصبية الناشئة عن علة بدنية تقتضي أن يكون صاحبها مصابا بداء الصرع أو بمرض عصبي آخر تحدث منه هذه النوبات ، والحال ان النبي عليه السلام كان سليم الجسم ولم يكن مريضا، ولم يقل أحد من أهل عصره : لا من أعدائه ولا من أصحابه انه كان يصيبه شيء من أعراض الصرع أو من أعراض مرض آخر مزمن ، والذين ذهبوا إلى ذلك لم يستندوا علي أدنى دليل ، وانما هي افتراضات مبنية على غير أساس ، وتخرصات بغير الواقع ، وبمجرد التخيل كما هو شأن كثير من الاوربيين ، أو هي فرار من التسليم ان تلك الحالة التي كانت تعرو محمداً عند نزول الوحي عليه هي حالة خاصة بنزول الوحي لم تكن لتحدث لولا ذلك . ولكن محاولة هذا الفرار لا تغني هؤلاء الفارين من الحقيقة شيئا إذ قد ثبت ان النبي ﷺ كان مزاجه عقلا وبدنا بغاية الاعتدال حتى ان المستشرق الافرنسي ماسينيون نفسه برغم صبغته الكاثوليكية الشديدة يعترف بأن مزاج محمد كان موزونا لا شائبة فيه . إذاً فافتراض النوبة العصبية بغير تأثير الوحي لم يبق له مجال إلا التعنت

وقد أشار السيد رشيد إلى هذا الموضوع فقال : إن أعداء الرسول من الافرنج و تلاميذهم تأولوا هذه الحالة التي كانت تحدث له بأنه كان يعرض له نوبات عصبية، و تشنجات هيستيرية ، وما أبعد الفرق بين حالته تلك وحالة أولي الامراض العصبية في المزاج ، فقد كان مزاجه ﷺ معتدلا ، ولعله إلى الدموي العضلي أقرب. فذو

النوبة العصبية يعرض له في اثرها من الضعف والاعياء البدني والعقلي ما يرثي له العدو الشامت ، وأما صاحب تلك الحالة الروحانية العليا فكان يتلو عقب فصمها وتسريها عنه آيات أوسورة كاملة من القرآن الذي بينا في هذا البحث بعض وجوه إعجازه اللفظي والمعنوي الخ

قد اهتممنا بهذه النقطة دون سواها من هذا المعترك لانه لا يكاد يوجد أحد اليوم في أوربة من العلماء المحققين إلا وهو معترف بأن محمدا لم يتعمد ادعاء النبوة تعمدا لينال بها رياسة أومجدا أومالا أو حظا من حظوظ الدنيا ، وانه انما أراد إصلاح عقائد بني عصره من نقلهم عن عبادة الوثن الى عبادة الحق ، فهذا أمر قد اتفقوا عليه تقريبا ولكنه لا يزال يصعب عليهم التسليم انه كان نبيا يوحى اليه ، ولما كانوا لا يقدرون أن ينكروا الحالة التي كانت تصيبه قبل ان ينطق بالقرآن وأنها حالة لم يكن يتعمدها ولم يكن يمكنه لو اراد أن يتعمدها ويتظاهر بها لجأ بعضهم لتعليل هذه الحالة إلى قضية النوبة العصبية وذهب آخرون انه من قبيل الوله بالله تعالى الذي يخرج الانسان عن الطور المعتاد . وعلى كل حال قد اجتاز الاوربيون المرحلة الاولى من مراحل الاعتقاد بصحة دعوة محمد فقد لبثوا طوال القرون الوسطى يزعمون بتأثير كلام رهبانهم ان محمدا كان كاذبا فرجعوا الآن عن هذا القول إلى القول بأنه كان صادقا معتقدا مايقوله حقا وان هذا القرآن كان ينزل عليه وكان يعتقد هو انه من عند الله وكان يرى الملك ماثلا أمامه ولكن هذا كان نتيجة المرض بقول بعضهم أو التخيل بقول الآخرين ، فادعاء الكذب على محمد قد سقط اليوم في أكثر بلاد النصرانية ، وقد اجتيزت المرحلة الاولى فبقيت المرحلة الثانية وهي تصديق كون محمد عليه السلام انما كانت تحدث له هذه الحالة من نفسه بدون أن يوحى اليه ، فان النوبة العصبية التي يزعمونها ليس من شأنها أن تأتي بهذا الاعجاز كله وأن تجعل هذا الفرق البعيد في كلام انسان واحد

غير المعتادة لسبب وحي كان يأتيه من قبل الله تعالى لا بمجرد التخيل ولا من قبل مرض . وليس بعجيب أن يتأول هذا التأول أهل عصر مادي كهذا العصر يصعب عليهم الاعتقاد بالغيب وتعليل الامور بغير ما يقع تحت الحس . ولكنهم لو تأملوا لوجدوا أنفسهم عاجزين عجزا تاما بازاء الاسرار الكونية لا يحلون منها مشكلا إلا وصلوا الى سد واقف في وجههم لا يقدرون ان يجتازوه الا بعد التسليم ان هناك قوة خارقة للعادة وان القول بوجوده اقرب الى العقل والى العلم من هذه التمحلات الواهية التي يحاولون بها تعليل الحوادث كلها بالاسباب المادية ويلجئهم الامر في اكثر الاحيان الى تلمس الافتراضات المبنية على غير اساس

ان كتاب الوحي المحمدي الذي جاء به الاستاذ السيد رشيد رضا في هذه الايام قد أتى عصره على قدر ، لانه زمن صار يجب فيه التعليل حتى في الامور التي هي معدودة الى اليوم من البديهيات . ومادمنا نقفو الاوربيين صاعدا ونازلا ولا مناص لنا من هذا الاقتداء ، كان لا بد لعلماء المسلمين من إعداد الاسلحة العقلية اللازمة لمكافحة الشبهات التي هي من أصل أوربي ، فكتاب الاستاذ واف بهذا الغرض لا يخطر في البال معنى من المعاني التي يقتنع بها القارىء بعلو مزايا الاسلام إلا وقد أشار اليه

نعم قد فات هذا الكتاب موضوع جليل ربما كان أدل على إعجاز القرآن وعلى صحة الوحي به وكونه من عند الله حقا من سائر الموضوعات . وهذا هو ما في القرآن من الآيات المطابقة للقواعد العلمية التي انتهى اليها تحقيق الاوربيين في هذا العصر من جهة التحولات الكونية . فمن المعلوم أن محمداً عليه السلام فضلا عن أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، قد نشأ في مكة حيث لم تكن علوم ولا معارف ولا جامعات ولا مدارس وكذلك لم يكن في المدينة . وان قلنا انه كانت علوم ومعارف ومدارس تقرأ فيها العلوم الكونية وذلك في غير جزيرة العرب

كالشام أو كالاسكندرية أو كأثينة أو كرومية مثلا فان محمداً كان بعيداً عن ذلك المحيط العلمي كله لا صلة له به . ثم ان العلوم الكونية التي كانت في ذلك العصر لم تكن فيها هذه النظريات الحديثة كالرأي السديمي مثلا الذي يقتضي أن تكون الاجرام السماوية كلها في الاصل دخانا ثم تتجمد كتلة واحدة ثم ينفصل بعضها عن بعض أجراما متفرقة . وانك لتجد هذا في القرآن صريحا (أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي) فلو لم يكن القرآن وحيا ما كان يمكن محمداً أن ينطق بحقيقة علمية لم تتقرر فعلا إلا في هذا العصر . وكذلك كون مبدأ الحياة في الماء قيل إنه قال به بعض فلاسفة اليونان ولكنه لم يكن قاعدة علمية كما هي اليوم . وكذلك كون الزوجية منبثة في في الممالك الثلاث الكونية الحيوان والنبات والجماد لم يكن ذلك معروفا في عصر محمد عليه السلام وانما كانوا يعرفونه في المملكة الحيوانية وشيء من المملكة النباتية المشابهة للحيوانية ، والحال أن القرآن جعل هذا المبدأ عاما (ومن كل شيء خلقنا زوجين) وغير ذلك من الآيات التي جاء فيها مثل (من كل زوج بهيج) و (من كل زوج كريم) . وكذلك حركة الاجرام الفلكية ، فقد كان الفلكيون في القديم يعتقدون بوجود سيارات وثوابت ولم يتغير هذا الاعتقاد إلا بحسب علم الهيئة الجديد . والحال ان في القرآن ما يدل على أنه ليس من جرم غير متحرك (وكلٌّ في فلك يسبحون) وغير ذلك مما أحصاه المرحوم الغازي أحمد مختار باشا نحوا من تسعين آية فيما أتذكر ، وفسره تفسيراً علمياً أثبت ما فيه من المطابقة للنظريات العلمية الحديثة . وكان مختار باشا من أفذاذ الدهر في علم الهيئة والرياضيات والطبيعيات فلا يقدر أحد أن ينكر ضلاعته في هذه العلوم . ولقد أشرت على الاستاذ الحجة السيد رشيد بأن يلحق بكتابه هذا ليكون مستوفياً جميع شروط

الافادة خلاصة كتاب مختار باشا الغازى المسمى « سرائر القرآن » لان الذى يؤثر في عقول الاوربيين وعقول النشء الجديد في الشرق من مطابقة القرآن للنظريات العلمية الحديثةهو أعظم مما تؤثره البراهين العقلية والادبية والاجتماعية

شكيب أرسلان

[المنار] كتب أمير البيان هذا التقريظ بعدقراءته لكتاب الوحي المحمدي ببضعة أشهر وكان قد نسي على مايظهر أن الموضوع الذى قال هنا انه قدفاتنا — لم يفتنا، فاننا قد أشرنا اليه في مواضع كان آخرها مايراه القارىء في آخر صفحة من خاتمة الكتاب، وفيها ذكرهذه المسائل التي مثل بها لما في القرآن من المسائل العلمية التي في القرآن وزيادة عليها، وقد وعدنا في هذه الخاتمة كما وعدنا في تصدير هذه الطبعة بأننا سنعقد لها فصولا في ملحقات الكتاب التي ستكون في الجزء الثاني منه مع أمثال لها من سنن الكون الاجتماعية والاخبار الغيبية والوصايا الصحية

وفات الامير حفظه الله تعالى ما كنا اقترحناه عليه عند ما كتب الينا انه سيكتب تقريظا للكتاب بأن يجعله استدراكا على كلام له في كتاب (حاضر العالم الاسلامي) النفيس مضمونه انه لم يوجد في هـذا العصر كتاب يصلح لدعوة الافرنج إلى الاسلام

وأما ماذكره في أول التقريظ من استغناء المسلمين الصادقين عن هذا الكتاب أو كونه غير موجه اليهم فغرضه خاص بصحة عقيدتهم في أصل الاسلام، ولكن السواد الاعظم منهم عرضة للتشكيك بالشبهات العلمية العصرية أو دعاة التنصير لأنهم أسرى التقليد، وأشرنا الى حاجتهم الى براهينه على إعجاز القرآن والنبوة في مقدمة التصدير

وقد وصل هذا التقريظ بعد طبع ما اخترناه من التقاريظ فجعلناه مسك الختام



مقدمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالملائكةُ وأُولُوا العِلمِ قائماً بالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الاسْلامُ ، وَما اخْتَلَفَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ماجاءَهُمُ العِلمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بآياتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ* فإنْ حاجُّوكَ فقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ للذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ والأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فإنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بالعِبَادِ (سورة آل عمران ٣ : ١٨ ـ ٢٠)

***

ارتقاء البشر المادي، وهبوطهم الأدبي ، وحاجتهم إلى الدين

إن من المعلوم اليقيني الثابت بالحواس أن علوم الكون المادية تثب في هذا العصر وثوبا يشبه الطفور، وتؤتي من الثمار اليانعة بتسخير قوى الطبيعة للانسان ما صارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة ، وكأن أقطارها بيوت لهذه المدينة، وكأن شعوبها عشائر وفصائل لأمة واحدة في هذه البيوت (الأقطار) يمكنهم أن يعيشوا فيها إخوانا متعاونين ، سعداء متحابين ، لو اهتدوا بالدين

وإن من المعلوم اليقيني أيضا أن البشر يرجعون القهقرى في الآداب والفضائل على نسبة عكسية مطردة لارتقائهم في العلوم المادية واستمتاعهم بثمراتها ، فهم يزدادون إسرافا في الرذائل ، وجرأة على اقتراف الجرائم، وافتتانا في الشهوات

البهيمية ، ونقض ميثاق الزوجية ، وقطيعة وشائج الأرحام ، وعقوق الوالدين ، ونبذ هداية الأديان ، حتى كادوا يفضلون الاباحة المطلقة على كل ما يقيد الشهوات من دين وأدب وعرف وعقل ، بل رجع بعضهم إلى عيشة العري في أرقى ممالك أوربة علما وحضارة ، كما يعيش بعض بقايا الهمج السذج في غابات أفريقية وبعض جزائر البحار النائية عن العمران

وإن من المعلوم اليقيني أيضا أن الدول الكبرى لشعوب هذه الحضارة أشد جناية عليهم وعلى الانسانية من جنايتهم على أنفسهم - باغرائها أضغان التنافس بينهم ، وباستعمالها جميع ثمرات العلوم ومنافع الفنون في الاستعداد للحرب العامة التي تدمر في أشهر أو أيام معدودة ، صروح العمران التي شيدتها العصور الكثيرة ، وتفني الملايين فيها من غير المحاربين كالنساء والأطفال والشيوخ ، وبصرفها معظم ثروات شعوبها في هذه السبيل وفي سبيل ظلمها للشعوب الضعيفة التي ابتليت بسلطانها ، وسلبها لثروتهم وحريتهم في دينهم ودنياهم. فالعالم البشري كله في شقاء من سياسة هذه الدول الباغية الخبيثة الطوية . وكل ما عقد من المؤتمرات لدرء أخطارها لم يزد نارها إلا استعارا. ولو حسنت نياتها وأنفقت هذه الملايين التي تسلبها من مكاسب شعوبها وغيرهم في سبيل الاصلاح الانساني العام ، لبلغ البشر بها أعلى درجات الثراء والرخاء .

كل ما ذكر معلوم باليقين ، فهو حق واقع ، ماله من دافع

وإن من المعلوم من استقراء تاريخ هذه الحضارة المادية أن هذه الشرور كانت لازمة لها ، ونمت بنمائها ، فكان هذا برهانا على أن العلوم والفنون البشرية المحض غير كافية لجعل البشر سعداء في حياتهم الدنيا ، فضلا عن سعادتهم في الحياة الآخرة ، وانما تتم السعادتان لهم بهداية الدين ، فالانسان مدني بالطبع ، ومتدين بالطبع ، أو بالفطرة كما يقول الاسلام

من أجل ذلك فكر بعض عقلاء أوربة وغيرهم في اللجوء إلى هداية الدين ،

وأنه هو العلاج لأدواء هذه الحضارة المادية والترياق لسمومها ، وتمنوا لو يبعث في الغرب أوفي الشرق نبي جديد بدين جديد يصلح الله بهدايته فسادها، ويقوّم بها منآدها، لأن الأديان المعروفة لهم لا تصلح لهذا العصر وقد فسد حال جميع أهلها[1] وكان من يسمون دينهم دين المحبة ، مصداقا لقول الله تعالى (٥ : ١٤ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَة)

بيد أن هؤلاء المفكرين لا يعرفون حقيقة دين القرآن ، وهو الدين الالهي العام، والمانع لهم من معرفته ثلاثة حجب تحول دون النظر الصحيح فيه، وعدم فهمهم للقرآن كما يجب أن يفهم . فأما الحجب دونه فهذا بيانها بالايجاز :

الحجب بين الافرنج وحقيقة الاسلام

(الحجاب الأول) الكنيسة أو الكنائس التي عادته منذ بلغتها دعوته ، وطفقت تصوره بصور مشوهة باطلة، بدعاية عامة فيها من افتراء الكذب وأقوال الزور والبهتان، مالم يعهد مثله في أهل ملة من البشر في زمن من الأزمان، وألفت في ذلك من الكتب والرسائل، والأغاني والأناشيد والقصائد ، ما يعرف بطلانه كل مؤرخ مطلع على الحقائق ، ثم إنها جعلت تشويهه ووجوب معاداته ركنا من أركان التربية والتعليم في جميع مدارسها، والمدارس التي يتولى خريجوها تعليم الناس فيها، فما من أحد يتعلم فيها من أتباعها إلا وهو يعتقد أن جميع المسلمين أعداء للمسيح والمسيحيين كافة ، فيجب عليه عداوتهم ما استطاع . والحق الواقع أن الاسلام هو صديق المسيحية المتمم لهدايتها، وان محمداً ﷺ هو الفارقليط روح الحق الذي بشر به المسيح عليه السلام [2]

(١) اول من نقل لنا هذا الرأي جريدة السياسة منذ سنين ثم تكرر نقله

(٢) راجع آخر الفصل ١٥ من انجيل يوحنا وأوائل (١٦ : ١٢-١٤)

(الحجاب الثاني) رجال السياسة الأوربية، فانهم ورثوا عداوة الاسلام من الكنيسة ، وتلقوا مفترياتها في الطعن عليه بالقبول ، وضاعف هذه العداوة له والضراوة بحربه ، طمعهم في استعباد شعوبه واستعمار ممالكهم

وإذا كان رجال الدين قد ملأوا الدنيا كذبا وافتراء على الاسلام - ومن أسس الدين الصدق وقول الحق والحب والرحمة والعدل والايثار - فأي شيء يكثر فعله على رجال السياسة وأساس بنائها الكذب، وأقوى أركانها الجور والظلم والعدوان، والقسوة والأثرة والخداع، وهو ما نراه بأعيننا ونسمع أخباره بآذاننا كل يوم في المستعمرات الأوربية ؟ بل نحن نعلم أن سبب افتراء رجال الدين على الاسلام هو السياسة لا الدين نفسه، وأن قاعدتهم المشهورة «الغاية تبرر الواسطة» سياسية لا إنجيلية، فما كان لدين أن يبيح الجرائم والرذائل باتخاذها وسيلة لمنفعة أهله وإن دينية.

(الحجاب الثالث) سوء حال المسلمين في هذه القرون الأخيرة، فقد فسدت حكوماتهم وشعوبهم، واستحوذ عليهم الجهل بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم ، حتى صاروا حجة لأعدائهم فيها على أنه لا خير فيهم ولا في دينهم ، وأمكن هؤلاء الأعداء أن يفتنوا بهذه الحجة الداحضة أكثر من يتخرج في مدارسهم السياسية الالحادية، والدينية التنصيرية ، من أبناء ملتهم أو جلدتهم ومن غيرهم، حتى نابتة المسلمين أنفسهم أيضاً . وهم يختارون من هذه النابتة الأفراد التي تتولى أعمال الحكومة والتعليم في مدارسها في كل قطر خاضع لنفوذ دولهم الفعلي، بأي اسم من أسمائه ، من فتح وامتلاك وحماية واحتلال وانتداب ، أو لنفوذهم السياسي والتعليمي كما فعلوا في بلاد الترك وإيران ، لتساعدهم على هدم كل شيء إسلامي فيها من اعتقاد وأدب وتشريع

وقد كان السيد جمال الدين الأفغاني حكيم الاسلام وموقظ الشرق يرى أن هذا الحجاب أكثف الحجب الحائلة بين شعوب أوربة الحرة والاسلام ،

ونقل لي الثقة عنه أنه قال: إذا أردنا أن ندعو أحرار أوربة إلى ديننا فيجب علينا أن نقنعهم أولا أننا لسنا مسلمين، فانهم ينظرون إلينا من خلال القرآن هكذا — ورفع كفيه وفرج بين أصابعهما — فيرون وراءه أقواما فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل ... فيقولون لو كان هذا الكتاب حقا مصلحا لما كان أتباعه كما نرى

لا ننكر أن بعض أحرار الافرنج قد عرفوا من تاريخ الاسلام مالم يعرفه أكثر المسلمين، فأنصفوه فيما كتبوا عنه من تواريخ خاصة، ومن مباحث عامة في العلم والحضارة والدين، وأن منهم من اهتدى به عن بصيرة وبينة، ولكن ما كتبه هؤلاء كلهم لم يكن مبينا لحقيقته كلها، ولم يطلع عليه إلا القليل من شعوبهم، وكان جل تأثيره في أنفس من اطلعوا عليه أن بعض الناس أخطئوا في بيان تاريخ المسلمين فانتقد عليهم آخرون، فهو لم يهتك الحجب الثلاثة المضروبة بينهم وبين حقيقة الاسلام

وأما عدم فهمهم للقرآن كما يجب — وأعني به الفهم الذي تعرف به حقيقة إعجازه وتشريعه وإصلاحه، وكونه هو دين الله الأخير الكامل الذي لا يحتاج البشر معه إلى كتاب آخر ولا إلى نبي آخر - فله أربعة أسباب خاصة، وراء تلك الحجب العامة، وهي : —

الاسباب العائقة عن فهم الاجانب للقرآن

جهل بلاغة القرآن

(أولها) جهل بلاغة اللغة العربية التي بلغ القرآن فيها ذروة الاعجاز في أسلوبه ونظمه وتأثيره في أنفس المؤمنين والكافرين به جميعا، فأحدث بذلك ما أحدث من الثورة الفكرية والاجتماعية في العرب، والانقلاب العام في البشر، كما شرحناه في هذا الكتاب . وقد كان من إكبار الناس لهذه البلاغة أن جعلها أكثر علماء المسلمين موضوع تحدي البشر بالقرآن دون غيرها من وجوه إعجازه، وجعلوا

عجز العرب الخلص عن معارضته بها ، ثم عجز المولَّدين الذين جمعوا بين ملكة العربية العملية وملكة فلسفتها من فنون النحو والبيان ، هو الحجة الكبرى على نبوة محمد ﷺ وقد فقد العرب الملكتين منذ قرون كثيرة إلا أفراداً متفرقين منهم — فما القول في غيرهم ؟ فعلماء المسلمين في هذه القرون يحتجون بعجز أولئك ولا يدعون أنهم يدركون سر هذا الاعجاز أو يذوقون طعمه ، بل قال بعض علماء النظر المتقدمين منهم إن الاعجاز واقع غير معقول السبب ، فما هو إلا أن الله تعالى صرف الناس عن معارضته بقدرته . والصواب أن منهم من حاول المعارضة فعجزوا ، إذ ظنوا أن إعجازه بفواصل الآيات التي تشبه السجع فقلدوها فافتضحوا ، ومن متأخري هؤلاء من ادعى النبوة كمسيح الهند القادياني الدجال ، ومن ادعى الألوهية (كالبهاء) وقد أخفى أتباع هذا كتابه الملقب بالأقدس لئلا يفتضحوا به بين الناس، وأضعف منه وأسخف بيان أستاذه الباب،

قصور ترجمات القرآن وضعفها

(ثانيها) أن ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الافرنج في فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر ، وهي إنما تؤدي بعض مايفهمه المترجم له منهم إن كان يريد بيان مايفهمه، وإنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمدوا تحريف كلمه عن مواضعه ، على أنه قلما يكون فهمهم تاما صحيحا، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمنا ، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما: قصور فهمه وقصور لغته . وقد اعترف لي ولغيري بهذا مستر (محمد) مارماديوك بكتل الذي ترجمه بالانكليزية وجاء مصر منذ ثلاث سنوات فعرض على بعض علماء العربية ، المتقنين للغة الانكليزية ما رأى أنه عجز عن أداء معناه منه ، وصحح بمساعدتهم ماذا كرهم فيه[١]

(١) ولا يزال تصحيح ترجمته ناقصا وبلغني انه سيصححها مرة أخرى

واعترف بذلك قبله الدكتور ماردريس المستشرق الفرنسي الذي كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية لدولته ترجمة ٦٢ سورة من السور الطول والمثين والمفصل التي لا تكرار فيها ففعل ، فقد قال في مقدمة ترجمته التي صدرت سنة ١٩٢٦ ما معناه بالعربية :

« أما أسلوب القرآن فانه أسلوب الخالق جل وعلا ، فان الاسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الاسلوب لا يكون إلا إلهيا . والحق الواقع أن أكثر الكتّاب ارتيابا وشكا قد خضعوا لسلطان تأثيره (في الأصل: لتأثير سحره – يعني تأثيره الذي يشبه السحر في كونه لا يعرف له سبب عادي) وأن سلطانه على الثلاثمائة الملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحد الذي جعل أجانب « المبشرين » يعترفون بالاجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن[1]

« ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو[2] كان نثرا جد طريف ، يفيض جزالة في اتساق نسق ، متجانسا مسجعا ، لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية . لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الانسان أداء تأثير هذا النثر البديع « الذي لم يسمع بمثله » بلغة أخرى ، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة (التي لا سعة فيها للتعبير عن الشعور) المرئة[3] (التي لا تتنازل عن حقوقها) والقاسية . وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية ، وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية » اه

---

(١) ما يسمع من تنصر بعض المسلمين ماهو إلا إكراه لبعض العوام الجاهلين أو استمالة لبعض الفقراء منهم بالمال ، أو تربية لبعض الأطفال

(٢) يعني العرب الذين كانت تغلب عليهم البداوة حتى في حواضرهم كمكة ويثرب

(٣) مؤنث المرث كتعب : الصبور على الخصام ، الذي لا يتنازل عن حقه

ثم تكلم عن عنايته هو مدة تسع سنوات متواليات بمحاولة نقل شيء من القرآن إلى اللغة الفرنسية على شرط المحافظة على بلاغة الأصل، وتساءل هل أمكنه التغلب على هذه الصعوبة أم لا؟ يعني أنه يشك في ذلك

أسلوب القرآن المخالف لجميع أساليب الكلام

(ثالثها) أن أسلوب القرآن الغريب المخالف لجميع أساليب الكلام العربي وغيره، وطريقته في مزج العقائد والمواعظ والحكم والأحكام والآداب بعضها ببعض في الآيات المتفرقة في السور — وهو ما بينا سببه وحكمته في هذا الكتاب — قد كان حائلا دون جمع كبار علماء المسلمين من المفسرين وغيرهم لكل نوع من أنواع علومه ومقاصده في باب خاص به، كما فعلوا في آيات الأحكام العملية من العبادات والمعاملات، دون القواعد والأصول الاجتماعية والسياسية والمالية التي يرى القارىء نموذجها في هذا الكتاب، اذلم يكونوا يشعرون بالحاجة إليها كما نشعر فى هذا العصر

وقد عُني بعض الافرنج(١) بوضع كتاب باللغة الفرنسية جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها، ووضع كلًّا منها في باب أو أبواب خاصة بقدر فهمه، ولكنه أخطأ في كثير من هذه المعاني وقصّر في بعض مما علمه، وما جهله منها عظيم، ذلك بأن أخذ القواعد والأصول العامة(٢) من هذه الآيات يتوقف على العلم بسيرة النبي ﷺ وسنته في بيان القرآن وتنفيذه لشرعه، وآثار خلفائه وعلماء أصحابه من بعده، كما يعلم من يراجع في ذلك الكتاب الآيات الدالة على ما بيناه في كتابنا هذا من مقاصد القرآن بالاختصار، وما فصلناه منها في تفسير المنار

---

(١) هو المستشرق العلامة المسيو جول لابوم

«٢» اي لايكفي في فهمها العلم بمتن اللغة العربية وقواعدها و بلاغتها وفقهها

الاسلام ليس له دولة ولا جماعات

(رابعها) أن الاسلام ليس له دولة تقيم القرآن وسنة الرسول ﷺ بالحكم وتتولى نشره بالعلم ، ولا جماعات دينية تتولى بحمايتها الدعوة إليه بالحجة ، وليس لأهله مجمع دبني علمي يرجع إليه في بيان معاني القرآن وهدايته في سياسة البشر ومصالحهم العامة ، التي تتجدد لهم بتجدد الحوادث ومخترعات العلوم والفنون ، وفيما يتعارض بين العلوم ونصوص الدين ، فيرجع إليها علماء الافرنج في استبانة ما خفي عليهم من نصوصهما

وأعجب من هذا وأغرب أن المسلمين أنفسهم قد تركوا من بعد خير القرون الأولى أخذ دينهم من القرآن المنزل ومن بيان الرسول ﷺ له كما أمره الله تعالى فيه بقوله (١٦ : ٤٤ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وما زالوا يهجرون الاهتداء بهما حتى استغنوا عنها استغناء تاما بأخذ عقائدهم عن كتب المتكلمين ، وأخذ أحكام عباداتهم ومعاملاتهم عن كتب علماء المذاهب غير المجتهدين ، وهذه الكتب لا تقوم بها حجة الله تعالى على البشر ، ولاسيما أهل هذا العصر الذي ارتقت فيه جميع العلوم العقلية والتشريعية ، حتى صار المسلمون منا ، يأخذون عنهم العلم كما كان أجدادهم يأخذون عنا ، بل فيها من آراء المتكلمين والفقهاء ، وروايات الكذابين والضعفاء ، ماقد يعد حجة على الاسلام وأهله ، كما أن سوء حال المسلمين في فشو الجهل في شعوبهم والفساد والانحلال في حكوماتهم ، قد اتخذ حجة على دينهم ، فصاروا فتنة للذين كفروا به [1]

(١) أي صاروا منفرين للكافرين عن الاسلام وصادين لهم عنه لئلا يكونوا مثلهم ، واقرأ قوله تعالى (٦٠ ، ٥ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا)

وإذا كان هذا حال المسلمين في فهم القرآن وهدايته، فكيف يكون حال الشعوب التي نشأت على أديان أخرى ألفتها، ولها رؤساء يربونهم عليها ويصدونهم عن غيرها؟ ودول حربية قد عادت الاسلام منذ بضع قرون، بما لو وجهوه إلى الجبال لاندكت وزالت من الوجود، ولكنه دين الله الحي القيوم، فهو باق ما دام البشر في الأرض لا يزول أو يزولوا أجمعون

هذه أظهر الأسباب لخفاء حقيقة الاسلام الكاملة على علماء الحضارة العصرية من الأجانب ومن المسلمين أيضا وتمنيهم لو يبعث نبي جديد بهداية إلهية عامة كافية لاصلاحهم

ولما كان الاسلام هو دين الانسانية العام الدائم الجامع لكل ما يحتاج إليه جميع الشعوب من الهداية الدينية والدنيوية، وجب على العقلاء الأحرار والعلماء المستقلين الذين يتألمون من المفاسد المادية التي تفاقم شرها في هذا العهد، أن يعنوا بهتك تلك الحجب التي تحجبهم عن النظر فيه، وإزالة الموانع التي تعوقهم عن فهم حقيقته، وان يدعوا جميع الشعوب الى اخوته، وتكميل الحضارة الانسانية بهدايته

نتيجة هذه المقدمات

﴿بيان هذا الكتاب لحقيقة الاسلام، بما تقوم به الحجة على جميع الأنام﴾

أما بعد فانني أقدم لهم هذا الكتاب الذي صنفته في إثبات (الوحي المحمدي) وكون القرآن كلام الله عز وجل، وكونه مشتملا على جميع ما يحتاج إليه البشر من الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي والمالي والحربي. وقد أطلت في بيان هذه المقاصد الأساسية بعض الاطالة لأنها مثار جميع الفتن والمفاسد التي يشكو منها عقلاء هذا العصر، وأما توفية هذا الموضوع حقه فلا يكون إلا في سفر كبير أو أسفار يجمع فيها مقاصد القرآن كلها مع بيان حاجة البشر إليها في أمور معاشهم ومعادهم، وهو ما أبينه في تفسير المنار باجمال قواعد كل سورة وأصولها في آخر تفسيرها، بعد بيانها بالتفصيل في شرح آياتها

على أنني لم أكتب هذا البحث أول وهلة لهذا الغرض ، وإنما بدأت منه بفصل استطرادي لتفسير آية (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ) الخ من أول سورة يونس (١٠ : ٢) بينت به الدلائل القطعية على أن القرآن وحي من الله تعالى كان محمد ﷺ يعجز كغيره عن مثله بعلمه ولغته وتأثيره ، وأنه ليس وحياً نفسياً نابعاً من نفسه كما يزعم بعض الباحثين من الافرنج وغيرهم ، وأنه أعم وأكمل وأثبت من كل وحي كان قبله ، وأن حجته قائمة على المؤمنين بالوحي التشريعي وعلى غيرهم

ثم بدا لي في أثناء كتابته أن أجرده في كتاب خاص أدعو به شعوب الحضارة المادية من الافرنج واليابان إلى الاسلام ، بتوجيهه أولا إلى علمائهم الأحرار ، حتى إذا ما اهتدوا به تولوا دعوة شعوبهم ودولهم إليه بلغاتهم ، ولهذا زدت فيه على ما كتبته في التفسير ، ووضعت له الخاتمة التي صرحت فيها بالدعوة وجعلتها هي المقصودة بالذات منه

ولو أنني قصدت هذا منذ بدأت بالكتابة لوضعت له ترتيباً آخر يغنيني عن بعض ما فيه من الاستطراد والتكرار بتحقيق كل مسألة في موضعها ، على أن بعض التكرار متعمد فيها . ولكنني كتبته في أوقات متفرقة ، وحالات بؤس وعسرة ، لا أراجع عند موضوع منه ما قبله ، ولا أعتمد إلا على ما أتذكره من القرآن نفسه ، على صعوبة استحضار المعاني المتفرقة في سوره ، وإلا بعض الأحاديث في مواضعها من كتبها لتخريجها والثقة بصحتها ، وإني أحيل القارىء له في كل إجمال على مراجعة تفسير المنار في تفصيله ، وفي كل إشكال على مراجعة محرره م ؟

محمد رشيـــــد رضا

منشىء مجلة المنار

وحررت هذه المقدمة في ليلة ذكرى المولد المحمدي من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٢ (وهي على الارجح عند المحدثين التاسعة من هذا الشهر ـ ونشر الكتاب في اليوم ١٢ منه وهو يوم المولد المشهور)



فاتحة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا (١٦٦)، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧)، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى

ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؛ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (١٧٥)

ذِكر (الوحي المحمدي) في آيات متفرقة من السور المكية التي كانت تتلى على منكري وحي النبوة من العرب الذين كانوا أقوى البشر استعدادا لهداية هذا الوحي إذا عقلوه وآمنوا به ، لانه لم يكن عندهم من التقاليد الدينية المسيطرة على القلوب والارادات ، ولا من أمشاج الفلسفة البشرية الشاغلة للعقول والافكار ، ولا من الاستبداد السياسي والاستعباد الروحاني السالبين لاستقلال الافراد والجماعات ، ما يصرفهم عن فقهه وتدبره والاهتداء به ، أو يأفكهم عن الدعوة اليه وحمايته ، والجهاد بالاموال والانفس في سبيل إقامته

دعوة الوحي المحمدي في هـذه الآيات

ثم ذكر في هذه الآيات من هذه السورة المدنية (النساء) بما لم يذكر بمثلها في تفصيله، وعموم الخطاب وخصوصه، فخاطب في أولها محمداً رسول الله وخاتم النبيين ﷺ ثم وجه الخطاب في بعضها إلى الناس كافة، وفي بعض آخر الى أهل الكتاب خاصة، فبدأ خطاب الناس كافة بأنه قد جاءهم (الرسول) الكامل الذي بشر به الانبياء والرسل، والنبي الأعظم الذي كانت تنتظره الاقوام والامم، ولذلك ذكر معرّفا بأداة التعريف (١) وأنه جاءهم بالحق من ربهم، وهو الحق المحض الذي جهله المشركون، واختلف فيه الكتابيون، فضلوا في هداية أنبيائهم ورسلهم، وكفر بعضهم بعضا، ولعن بعضهم بعضا، وكتب الفريقين واحدة، وقد بين لهم ذلك في الآيات التي قبل هذه الآيات مباشرة، وأهمها الخلاف في رسولهم النبي الروحاني المصلح، المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ثم أعاد ذكره ونهاهم عن الغلو فيه في هذه الآيات. وهي مشتملة على المسائل العشر الآتية:

(الأولى) ان الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى نوح أول رسول أرسله إلى الامم وقص عليه خبره في السور المكية وإلى النبيين من بعده، فوحيه اليه كوحيه اليهم، أي مثله في جنسه وموضوعه والغرض منه، فهو ليس بدعا من الرسل ولا

---

(١) كان اليهود ينتظرون ثلاثة من الانبياء المصلحين: المسيح وايلياء والنبي المطلق الذي بشر به موسى ومن بعده. ومن ادلة ذلك ما جاء في الفصل الأول من انجيل يوحنا وملخصه أنه لما ظهر يوحنا المعمدان (هو يحيى بن زكريا عليهما السلام) وصار يعمد الناس في نهر الاردن ارسلوا اليه وفدا ليعرفوا اي الثلاثة هو فسألوه: أأنت المسيح؟ قال لا، قالوا: أأنت ايليا؟ قال لا، قالوا: أأنت النبي؟ قال لا. «٢٥ فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد الناس إذا كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي؟ الخ فذكروا النبي معرفا، ولو قالوا له أأنت نبي بالتنكير؟ لما قال لا.

أولهم، ولكنه خاتم الرسل المكمل لهدايتهم، وخص بالذكر منهم أشهر أنبياء بني اسرائيل المعروفين عند أهل الكتاب المجاورين له في الحجاز وما حوله ، وقد كانت دعوته ﷺ بلغت اليهود والنصارى جميعا فيها. والمراد بالاسباط الانبياء من سلالة أبناء يعقوب ، عمم ثم خصص

(الثانية) ان له تعالى رسلا آخرين منهم من قص عليه خبرهم في السور المكية إجمالا كقوله في سورة الانعام بعد قصة ابراهيم مع أبيه وقومه (٦ : ٨٥ وَوَهَبْنَا لهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كلاً هَدَيْنا. وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبلُ - الى قوله في الآية ٩١ إنْ هُوَ إلا ذِكرَى لِلعالَمِين) وتفصيلا في سور الأعراف وهود ويوسف وطه والطواسين «الشعراء والنمل والقصص» وما دونهن . ومنهم من لم يقص عليه خبرهم من أنبياء سائر الامم لعدم العبرة لقومه وجيرانهم بقصصهم ، ولا لظهور إقامة الحجة بها عليهم، وربما كان ذكر بعض بها فتنة لبعضهم: يدعون انها أسماء مخترعة ، وقد جاء في بعض السور انه تعالى أرسل في كل أمة رسولا . وترى هذا في موضع آخر من هذا الكتاب بشواهده ، وهو حجة على أهل الكتاب الذين يحصرون فضل الله على البشر بالنبوة فيهم .

(الثالثة) ان وظيفة جميع الرسل تعليم الناس ما به يصلح حالهم ، ويستعدون لما لهم ، بطريق التبشير لمن آمن وأصلح عملا بحسن الثواب ، وإنذار من كفر وأفسد عملا بالعقاب ، وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة بجهلهم ما يجب عليهم من أصول الايمان، وما تصلح به الأنفس وتتزكى من صالح الأعمال، فتستعد لسعادة الدنيا بقدرها، وسعادة الآخرة من بعدها. وقد فصلنا في هذا الكتاب وجه الحاجة إلى هدايتهم، وعجز البشر عن الاستقلال بمعرفتها بعقولهم

(الرابعة) شهادة الله تعالى وشهادة ملائكته بصحة هذا الوحي له ﷺ ، وأورد

هذه الشهادة مفتتحة بقوله (لكن الله يشهد) وهو استدراك على إنكار معلوم من قرينة حال الكفار به ﷺ من المشركين وأهل الكتاب. ومما حكاه من قبل عن المشركين من الانكار والمطالبة بالآية او الآيات، كما تراه في سورة الأنعام ويونس وغيرهما، وما حكاه قريبا في هذه السورة (النساء) عن اليهود بقوله (٤:١٥٣ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) الخ فهو تعالى يقول له إن أولئك المشركين ينكرون وحي الله اليك والى غيرك، وان هؤلاء الجاحدين يكتمون الشهادة بنبوتك وبشارة أنبيائهم بها (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ اليك) الخ

فأما شهادته تعالى فقد بينها بيانا مستأنفا لوقوعها جوابا لسؤال مقدر، وهو قوله (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) أي أنزل هذا القرآن الذي أوحاه اليك متلبسا بعلمه الخاص الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، من تشريع وحكم وآداب وعبر وأخبار غيب سابقة وحاضرة وآتية، بأسلوب معجز للبشر. وهو ما يفصله هذا الكتاب بالشواهد من السور العديدة — وأما شهادة الملائكة له فما أخبر به تعالى من نزول الروح الأمين جبريل عليه السلام عليه بهذا القرآن، وما أيده به يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في غزوة بدر، وكذا غزوتا الأحزاب وحنين، وفي أحوال أخرى

هذه الشهادة من الله، بهذا القرآن الذي لا يمكن أن يكون إلا من الله، حق لا ريب فيه، وهي أظهر من شهادة يوحنا للمسيح (عليهما السلام) إذ روى يوحنا أنه قال (٥ : ٣١ إن كنت أشهد لنفسي فليست شهادتي حقا ٣٢ الذي يشهد لي هو آخر وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حق ٣٣ أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق) وكذلك هي أظهر وأقوى من شهادة المسيح لنفسه فيما رواه يوحنا أيضا إذ دعا اليهود الى اتباع النور الذي جاء به (٨ : ١٣ فقال له

الفريسيون : انت تشهد لنفسك شهادتك ليست حقاً(١٤ فأجاب يسوع وقال لهم : وإن كنت اشهد لنفسي فشهادتي حق) وقد صدق عليه السلام في ان شهادته لنفسه حق ، ولكن لا تقوم بها الحجة على الخصم ، وأما شهادة الله تعالى لنبيه في القرآن فهي حجة على كل أحد يعجز عن الاتيان بمثله، فهي إذن حجة على كل أحد.

(الخامسة) الاخبار في الآيات ١٦٧ ـ ١٦٩ بحال الكفار الذين يتعدى ضررهم الى غيرهم من الناس ، بصدهم الناس عن سبيل الله وهي الاسلام، وبظلمهم لانفسهم وللناس، وكون جزائهم بحسب سنة الله في أنفس البشر ونظام الاجتماع ، أن يظلوا سائرين على طريق الباطل والشر الموصلة إلى عذاب جهنم ، إذ لا يغفر الله تعالى لهم إلا بتزكية أنفسهم بالايمان والعمل الصالح الذي يهدي اليه الوحي ، وقد صاروا بضلالهم في أشد البعد عنه خلافا لما يقوله الكفار من نيل المغفرة بجاه الشفعاء الشخصي مع بقاء الأنفس على فسادها ، وظلمات ظلمها وجهلها، وهو ماسرى الى أهل الكتاب من المشركين ، إلا أن بعض النصارى خصوه بالمسيح ، وبعضهم جعلوه عاما لجميع القديسين

(السادسة) مخاطبة جميع الناس (في الآية ١٧٠) بأن هذا الرسول محمدا ﷺ قد جاءهم بالحق من ربهم حقا محضا غير مشوب بالآراء والاهواء البشرية ، ولا بالتقاليد الكهنوتية (١) التي زادها رؤساء الاديان على ما جاءهم به الرسل الاولون فلم يعد أحد يعرف ما هو من الله تعالى وما هو منهم ، فان يؤمنوا بما جاءهم به هذا الرسول يكن خيراً لهم ، وإن يكفروا فالله غني عنهم

(١) الكهنوتية نسبة الى الكهنوت ، وهي كلمة دخيلة من اصطلاح النصارى واليهود والوثنيين معناها وظيفة الكاهن وهو الذى يتولى بعض التقاليد الدينية المختلفة عند كل منهم

(السابعة) نداؤه أهل الكتاب في الآية ١٧١ بالنهي عن الغلو في الدين، وعن قول غير الحق على الله تعالى ، وبيانه لهم حقيقة المسيح الذي غلا اليهود منهم في الكفر به وتكذيبه ، والطعن في صيانة أمه الطاهرة ـ وغلا النصارى فيه فجعلوه ربا وإلها ، وأنه قد جاءهم بالحق فيه ، وهو انه بشر روحاني خلق بكلمة الله التكوينية وهي(إنما قَوْلهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أن يَقُولَ له كُنْ فيكونُ) وبنفخ روح القدس في أمه الطاهرة ، وبتأييد هذا الروح له في سائر أحوال نبوته، وان روحه عليه السلام قدسية من الله تعالى لاحظ للشيطان فيها ، والنصارى يقررون ان الارواح قسمان: طاهرة قدسية، ونجسة شيطانية ، والتميز بينهما مزية تحدث بها زعيمهم بولص في رسالته الاولى الى أهل كورنثيوس

(الثامنة) أمره تعالى أهل الكتاب بعد ما ذكر من حقيقة أمر المسيح أن يؤمنوا بما جاء به خاتم النبيين من الايمان الصحيح بالله وتوحيده والايمان برسله ، ونهيهم عن التثليث الوثني الهندي ، وعن اتخاذ الولد لله عز وجل، وعلله بأنه المالك لكل ما في السموات والارض ، أي كل العالم ،ولو كان له ولد لكان ولده مثله لاملكه ، ولكان محتاجا كاحتياج الانسان الى ولده ، سبحانه هو الغني عن كل ماسواه ، كما هو مبين في الآيات الكثيرة الواردة في هذا المعنى [١]

(التاسعة) إنباؤهم في الآية ١٧٢ بأن المسيح نفسه لن يستنكف أي لن يأبى أنفة واستكبارا عن أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون ـ وهم أفضل الملائكة وأعلاهم منزلة عنده تعالى ـ أن يكونوا عبيداً له ،فانه ما ثم في الوجود إلا رب واحد كل من عداه عبيد له ، فالمؤمنون الذين يؤمنون بربوبيته ويعملون الصالحات تعبداً له يوفيهم أجورهم، ويزيدهم عليها ثوابا ونعيما، فضلا منه وإحسانا، والذين يستنكفون ويستكبرون عنها يعذبهم عذاباً أليمًا ، ولا يجدون لهم من دونه أي غيره وليًا يتولى أمورهم

(١) راجع سورة يونس «١٠:٦٨» وآخر سورة مريم وغيرها

ويغفر لهم ،ولا نصيراً ينصرهم بشفاعة ولافدية ولا غيرها ، فلا يغرنهم ما يدعيه الرؤساء الذين استعبدوهم من أن خلاصهم وسعادتهم ، يكونان من غير أنفسهم

(العاشرة) نداؤه للناس كافة في الآيتين ١٧٤ و ١٧٥ مبشراً لهم بأنه قد جاءهم البرهان العلمي العقلي من ربهم ، وأنزل عليهم النور الساطع ، وهو القرآن المبين لجميع الحقائق ، فلا ينبغي لأحد منهم أن يصغى بعدها الى تقليد الرؤساء والكهنة الذين استعبدوهم لرياستهم وأهوائهم، وأثبت لهم ان الايمان به ، والاعتصام بحبله المتين، والدخول في نوره المبين ، هو الذي يخرجهم من شقاء الدنيا ويدخلهم في رحمة خاصة ، وفضل عظيم ، يمتازون بهما على غيرهم من البشر ، ويهديهم بارشاده وفيض نوره صراطا مستقيما من العلم والعمل ، والحق والعدل والفضل به يكونون به سعداء الدنيا والآخرة

***

هذا مضمون الوحي الالهي المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين المبين في هذه الآيات، ظهر نوره فاهتدت به العرب، وحملته إلى شعوب العجم، بالتبليغ له بالعلم والعمل ، فاهتدى به السواد الاعظم ممن بلغتهم دعوته من المليين الكتابيين، والمجوس والوثنيين، والهمج المعطلين ، لأنه دين البشر أجمعين. وقاومته الدول الدينية من نصرانية ومجوسية ووثنية، فنصره الله عليهم كلهم كما وعدهم، حتى أظهره على الدين كله ، ولا يزال ينصره وينشره بعد ترك دوله لدعوته ، وإعراضهم عن هدايته ، وما نزل بهم من عقوبته لهم كما أوعدهم ، ولو ثبتوا على إقامته لعم نوره العالم ، ولاستراح البشر من هذه العداوات الجنسية والوطنية والسياسية ، ولو لقي غيره من الاديان، مثل ما لقي من البغي والعدوان، لأصبح في خبر كان .

ثم ان حاجة الامم قد اشتدت في عصرنا هذا الى هدايته، حتى أشدها إمعانا في عداوته، ولجاجا في نكايته، وجهلا بحقيقته، فأخرجت هذا الكتاب من هداية القرآن ، لتجديد دعوته بما يناسب ضرورة هذا الزمان، ولو انني حين شرعت

في كتابة مباحثه في المرة الاولى، أردت أن يكون كتابا مستقلا في تجديد الدعوة إلى الاسلام ، لافتتحته بهذه الآيات ، وإن سبق لي تفسيرها المفصل في آخر سورة النساء، ثم لنشرت بعض ما طويت من وجوه إعجازه ، ولفصلت ما أجملت من مقاصد إصلاحه ، ولبسطت ما قبضت من دلائله . ولاجتنبت فيه الاحالة في بسط ما طوي وتفصيل ما أجمل، على أجزاء تفسير المنار المطول ، التي اختصرت جل المقاصد وشواهدها منها ، لانها مما يشغل القارئين للكتاب وربما كان أكثرهم لا يقتنون تلك الاجزاء، ولذلك انتقد هذه الاحالة وبعض الاختصار فيه بعض من قرأه قولا وكتابة بحق ، وكنت أسبقهم إلى ذلك

رواج الكتاب ، وترجمته ببضع لغات

لقد راج هذا الكتاب أضعاف ما رجونا ، ونال من ثناء رجال العلوم الدينية ، ورجال المعارف المدنية العصرية فوق ما قدرنا ، حتى قال كاتب مدني شهير انه لم ير كتابا عربيا نشر في هذا العصر وكان له من حسن القبول عند جميع أصناف القراء حتى الذين لا يعنون بأمر الدين مثل ما كان لهذا الكتاب الوحي، وقد صدق قوله فانه لم يمر على بدء نشره ثلاثة أشهر إلا وقد كادت تنفذ نسخه، حتى قللنا من بيعه لتجار الكتب بالجملة ، لئلا تنفذ قبل التمكن من إعادة طبعه منقحاً ، مبسوطا مفصلا ،

وقد استأذنني بعض المستنيرين ومحبي الاصلاح الاسلامي من الشعوب الاسلامية بترجمته باللغات الغربية والشرقية المختلفة ، فأذنت لامام جامع وكنج ومحرر مجلة الاسلام (ريفيو اسلاميك) في لندن وداعية الاسلام فيها بترجمته باللغة الانكليزية ونشره في اوربة واميركة مترجما ، وأذنت أيضا بترجمته باللغات الاوردية والتركية والفارسية والصينية،وسأذكر ما يكون من أمر هذه الترجمات في المقال الذي أجعله تصديراً لهذه الطبعة

ولقد كنت على ما أسمع وما أقرأ من تقريظه وإطرائه ، أحرص على العلم بما يراه أولو العلم والرأي من انتقاده، وسألت كثيراً عن هذا ولم أسألهم عن ذلك، وبعد هذا كله شرعت في اعداده لهذه الطبعة الثانية له

(مزية هذه الطبعة على الأولى)

كان أول ما زدته لهذه الطبعة ما تراه بعد هذه الفاتحة ، فصل خاص في تعريف الوحي والنبوة والرسالة ، وعصمة الانبياء عند المسلمين ووجه الحاجة إلى الرسالة وهداية الوحي، جعلته في أوله، وهو مكانه اللائق به، وأردت أن أكتب فصولا أخرى في بسط المسائل المطوية أو المجملة المختصرة في أثنائه ، كأنباء الغيب في القرآن ، وبعض ما فيه من سنن الاجتماع والعمران ، ومن المسائل العلمية التي كانت مجهولة للبشر أو للعرب في ذلك الزمان، ومن مسائل صحة الأبدان، وأن أجعل كل فصل منها في موضعه اللائق به من الكتاب ، وأعززها بفصل آخر في شهادات علماء الافرنج الاحرار للاسلام ، وللنبي عليه الصلاة والسلام

ثم بدا لي أن الزيادات الكثيرة في أثنائه تفسد على الذين يترجمونه عملهم، وقد علمت قبل البدء بهذه الطبعة أن الترجمة الاوردية قد تمت أو كادت، فعزمت على أن أجعل هذه الزيادات علاوات ملحقة بالكتاب . وأما الفصل الاول فقد كنت أرسلته الى بعض المشتغلين بالترجمة ، ولكنني نقحته بعد ذلك وزدت فيه ، وإعادة ترجمته وحده أمر سهل، وزيادة هذه الفاتحة قبله أسهل .

وبدا لي أيضا في اكثر ما أزيده من إيضاح وتفصيل لبعض المسائل، أو تفسير لبعض الغريب والمبهم أن أجعلها كالاحالات التي في أثنائه أو التي تتجدد كلها حواشي له لا في صلبه ، ليسهل إلحاقها بترجمتها قبل طبعها ، وأن أرسل نسخة من هذه الفاتحة والفصل الاول الذي يليها الى كل من أذنت له بترجمته قبل اتمام طبع الاصل العربي كله ، لكي يتسنى لمن أتموا الترجمة أن يطبعوها بعيد طبع أصلها

وما عسى أن يعرض لي في أثناء هذه الطبعة مما لم أذكره في هذه الفاتحة فسأبينه في مقدمة التصدير إن شاء الله تعالى

الفصل الأول

في تحقيق معنى الوحي والنبوة والرسالة وحاجة البشر إليها وأصولها وعدم إغناء العقل والعلم الكسبى عنها (*)

تعريف الوحي لغة وشرعا

قال في الأساس : أوحى إليه وأومى إليه بمعنى ، ووحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره. وأوحي الله إلى أنبيائه (١٦ : ٦٨ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

وقال الراغب أصل الوحي الاشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل «أمر وحيّ» وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وباشارة ببعض الجوارح وبالكتابة . وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا (١٩ : ١١ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) الخ أي أشار اليهم ولم يتكلم .

والوحيّ بتشديد الياء السريع ، ومن وحي الايماء بالجوارح قول الشاعر :

نظرت إليها نظرة فتحيرت ... دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أني أحبها ... فأثر ذاك الوحي في وجناتها

فالقول الجامع في معنى الوحي أنه الاعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره . ومنه الالهام الغريزي كالوحي إلى النحل ، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الانسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى ، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان قال تعالى (٦ : ١٢١ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) وقال (٦ : ١١٢ وَكَذَلِكَ

(*) هذا الفصل من زيادات الطبعة الثانية في أولها

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)

ووحي الله تعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة . فهذا معنى المصدر ، ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به الوحي أي اسم المفعول ، وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم ، ومنهم من أعطاه كتابا أي تشريعا يكتب ومنهم من لم يعطه .

والله تعالى يوحي إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله (١٢:٨ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) ويوحي الى ملك الوحي ما يوحيه الملك إلى الرسول كقوله (٥٣: ١٠ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) أي أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ

وقال شيخنا الأستاذ الامام في رسالة التوحيد بعد تعريف الوحي لغة « وقد عرفوه شرعا انه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى . وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور »

هذا التعريف يشمل أنواع الوحي الثلاثة الواردة في قول الله عز وجل (٤٢ : ٥١ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)

فالوحي هنا إلقاء المعنى في القلب ، وقد يعبر عنه بالنفث في الروع — وهو بالضم القلب والخلد والخاطر — والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام

الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة ، وأما الثالث فهوما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله إلى رسول الله فيراه متمثلا بصورة رجل أو غير متمثل ويسمعه منه أو يعيه بقلبه

وتعبيره يشمل (قبل التفرقة بينه وبين الالهام)ما يسميه بعضهم بالوحي النفسي وهو الالهام الفائض من استعداد النفس العالية ، وقد أثبته بعض علماء الافرنج لنبينا ﷺ كغيره ،فقالوا إن محمداً يستحيل أن يكون كاذبا فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع العادل والأدب السامي ، وصوره من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم أو باتصال عالم الشهادة به، بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولدت له إلهاما فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية ، على مخيلته السامية ، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلا له ، وعلى سمعه فوعى ما حدث به .

فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء في كون الوحي الشرعي من خارج نفس النبي نازلا عليها من السماء كما نعتقد، لا من داخلها فائضا منها كما يظنون؛ وفي وجود ملك روحاني مستقل نزل من عند الله عليه ﷺ كما قال عز وجل (٢٦ : ١٩٢ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٩٣ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٩٤ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ١٩٥ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)وفي تخيل الملك بزعمهم، وسنشرح هذا الزعم ونبسط شبهاته ونبطلها ، ونثبت أن هذا القرآن وحي من الله تعالى نزل من فوق السموات العلى ، لا يمكن أن يكون فائضاً في هذه الأرض من نفس محمد ﷺ وهو موضوع كتابنا هذا

واعلم أيها القارىء أن تقسيم كلام الله تعالى الى نفسي قديم قائم بذاته سبحانه ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب ولا لغة ، وكلام لفظي هو المنزل على الانبياء عليهم السلام ، ومنه الكتب الاربعة ، وخلافهم في كونه مخلوقا أو

غير مخلوق كله فلسفة وآراء نظرية مبتدعة، لم يرد به كتاب ولا سنة ، وهو تعرض للبحث التحليلي لذات الله تعالى وصفاته ، ومثار للوسواس الشيطاني فيه فاجتنبه، واستعذ بالله منه ، وحسبك أن تؤمن بأن الكلام صفة كمال، تتعلق بكل ما يتعلق به العلم ، إلا ان تعلق العلم عبارة عن انكشاف المعلومات للعالم ، وتعلق الكلام عبارة عن كشف العالم ما شاء من علمه لمن شاء ، وأن الله تعالى متصف بكمال العلم والتعليم ، وكمال الكلام والتكليم ، وان هذا وغيره مما وصف به نفسه في كتابه، لا ينافي كمال تنزيهه تعالى عما لا يليق به من نقائص عباده ، ولا يقتضي مماثلته لهم فيما وهبهم من كمال ، فان الاشتراك في الاسماء لا يقتضي الاشتراك في المسميات ، وأسماء الاجناس المقولة بالتشكيك في الممكنات تختلف من وجوه كثيرة منها النقص والكمال ، فكيف بها اذا كانت مشتركة بين الخالق والمخلوقات ؟ فذاته تعالى أكمل من ذواتهم ، ووجوده أعلى من وجودهم ، وصفاته أسمى من صفاتهم ، وهو أعلم ورسوله أعلم منهم بصفاته وأفعاله ، فعليك أن تؤمن بما صح عنهما من اثبات ونفي، من غير زيادة ولا نقص ، بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، وليس عليك ولا لك ان تحكم رأيك وعقلك في كنه ذاته ولا صفاته ، ولا في كيفية مناداته وتكليمه لرسله ، ولا في كنه ما هو قائم به ، وما يصدر عنه، على هذا كان أصحاب الرسول وعلماء التابعين ، وأئمة الحديث والفقه ، قبل ظهور بدعة المتكلمين

(النبي : معناه لغة وشرعا والفرق بين الرسول وغيره)

النبيء في اللغة العربية وصف من النبأ وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم، ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول لانه منبيء عن الله ومنبأ منه ، والنبي بالتشديد أكثر استعمالا ، ابدلت الهمزة ياء ، أو هو من النبوة وهي الرفعة والشرف . ويطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذي يخبر بشيء من أمور الغيب المستقبلة ، وقيل إن معنى أصل مادته في العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهوري مطلقا أو في الأمور التشريعية ، وهو عندنا من أوحى الله اليه وحيا، فان أمره بتبليغه كان رسولا ،

فكل رسول نبي ، وما كل نبي رسول ، فقوله تعالى (٣٣ : ٤٠ ما كانَ محمد أبا أحَدٍ من رجالِكم ولَـكنْ رسولَ اللهِ وخاتمَ النَّبيِّينَ) يدل على انقطاع النبوة والرسالة معا بعد محمد ﷺ، فكل من ادعى أو يدعي الوحي الشرعي من الله تعالى بعده فهو كذاب مضل ، وقد ادعى النبوة كثيرون فظهر كذبهم

ولم يأت أحد ادعى النبوة بعد محمد ﷺ بشيء من الاصلاح الديني الذي يحتاج إليه البشر، بل رأينا كتبهم وأقوالهم طافحة بمدح أنفسهم والغلو في إطرائها ودعاويها الباطلة، التي يراد بها إخضاع العوام لهم واستعبادهم إياهم، كالذي نعهده في الدجالين من مدعى الولاية ومعرفة الغيب والتصرف الروحاني في نفع الناس وضرهم. ويدحض هذا وأمثاله ما بينه الله فى كتابه الحق من وظائف الرسل كافة، وخاتم النبيين خاصة، كما تراه فى موضعه من هذا الكتاب، وكذا ما علم بالتواتر من شمائله وأخلاقه ﷺ من التواضع وكراهة الدعوى والاطراء والنهي عنه

ويرى قارىء هذا الكتاب فيه أن ما جاء به ﷺ من كتاب الله وما بينه به من سنته كاف شامل لكل ما يحتاج إليه البشر من هداية الدين لا يحتاجون إلى غيره

حاجة البشر إلى الرسالة ، وأصول أديان الرسل الأساسية

وجه حاجة البشر إلى هداية الانبياء عليهم السلام فى الجملة أن موضوع رسالتهم المقصود بالذات أو بالقصد الأول ثلاثة أمور لا تستقل معارفهم المكتسبة بحواسهم وعقولهم بها ، ولا يذعنون فيها إلا لأمر ربهم وخالقهم

(أحدها الايمان بالغيب) ورأسه توحيد الله وصفاته وآياته الدالة على كماله وتنزهه عن النقص ، وما يجب من عبادته وشكره وذكره الذي هو أعلى ما تتزكى به النفس وتتطهر من أدران مساويها ، وتصل إلى الكمال المستعدة له بفطرتها ، ويليه الايمان بملائكته وما يناط بهم من الوحي ، والنظام في الخلق والأمر ، ويجب الوقوف في ذلك عند ما ورد به النص

ومما أخبر به الأنبياء من أمر عالم الغيب (الجن والشياطين) وأن ما يجده الناس

في أنفسهم من خواطر السوء وتقوية دواعي الشر والباطل فهو من وسواس الشياطين. وحكمة إعلامهم بذلك إرشادهم إلى محاسبة أنفسهم على خواطرها، والتمييز بين حقها وباطلها، وخيرها وشرها، فهو أكبر معين لهم على تربيتها وتزكيتها، وقد وضحناه بالدلائل في تفسيرنا، وضربنا له المثل بعوالم الجنة المادية التي تسمى بالميكروبات، وكون تأثيرها في الأجسام، كتأثير الشياطين في الأرواح. وقد مر على البشر الألوف الكثيرة من السنين وهم يجهلونها على ما لها من التأثير العظيم في صحتهم وأمراضهم، وطعامهم وشرابهم، حتى كشفوها في هذا العصر، ولو حاسب الناس أنفسهم على خواطرهم السوءى اتقاء لوسوسة الشياطين كما يتقون ميكروبات الامراض لحفظ أبدانهم، لكان تأثير هذه التقوى في حفظ الانفس من الشر والفساد، أعظم من تأثير تلك الوقاية في حفظ الاجساد من الامراض.

وقد كشف بعض الماديين في القرن الثامن عشر أن للبشر أرواحا مستقلة كما أخبرهم الانبياء، ووجدوا وسيلة لادراك بعض الجنة غير المادية، وهو ما يعتقدون أنه من أرواح الموتى. والراجح عندنا أن أكثرها من أرواح شياطينهم، ولا يتسع هذا الفصل لبيان الحق في هذه المسألة التي لا تزال موضع الخلاف بين الناس، وإنما المراد هنا تعريف موضوع الرسالة بالاجمال

(ثانيها) ما يجب اعتقاده من البعث بعد الموت والحساب والجزاء على الايمان والاعمال، وهو اكبر البواعث — بعد الايمان بالله ومعرفته — على اتباع ما شرعه من اتباع الحق، واقامة العدل، وأعمال البر والخير، والصدود عن أضدادها

(ثالثها) وضع حدود وأصول للاعمال التشريعية المشار اليها لا مجال للآراء والاهواء فيها، لتكون جامعة للكلمة، مانعة من التفرقة، متبعة في السر والعلانية

وجملة القول ان تهذيب البشر بالدين مبني على الايمان بالغيب، والوقوف فيه عند خبر الانبياء عليهم السلام، ولا يمكن تهذيبهم بالعلوم المادية الكسبية وحدها، وهو ما نكرر بيانه في هذا الكتاب

عصمة الانبياء

اذا كان ارسال الانبياء الى البشر لاجل هدايتهم الى تزكية أنفسهم بما تصلح به أحوالهم في دنياهم، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيا في نشأة أخرى ،فلا يتم هذا الغرض ولا تتحقق هذه الحكمة الا اذا كان هؤلاء الانبياء أهلا لأن يقتدى بهم في أعمالهم وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يبلغونها عن ربهم ، ومن ثم قال علماؤنا بوجوب عصمة الانبياء من المعاصي والرذائل ، وبالغ بعضهم فيها حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر كالكبائر قبل النبوة وبعدها، وخص بعضهم العصمة من الصغائر بما كان باعثه الخسة والدناءة

وأهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة ، وكتبهم المقدسة ترمي بعض كبار الانبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الاسوة ، بل المجرئة على الشرور والمفاسد،

والنصارى منهم يجعلون معاصي الانبياء دليلا على عقيدتهم وهي ان المسيح هو المعصوم وحده لانه رب وإله، ولانه هو المخلص للناس من العقاب على الخطيئة اللازبة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له ، وانه لا شفيع ولا مخلص لهم غيره لان الخطيء لا يخلص الخطئين وهو منهم ، وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الانبياء وكتبهم وللعقل، ومطابقة للاديان الوثنية الهندية وغيرها

بيد أن كتب العهدين القديم والجديد المقدسة عندهم المحرفة في اعتقادنا لا تشهد لهم برمي جميع أنبيائها بالذنوب فضلا عن المعاصي التي هي أشد من الذنوب، فان يوحنا المعمدان (هو يحيى بن زكريا عليهما السلام) لم يوصم بخطيئة قط، بل شهدت له أناجيلهم بما يدل على انه كان أعظم من المسيح في عصمته، ففي انجيل لوقا (١:٦٥ انه يكون عظيما أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب ،ومن بطن أمه يمتلىء بروح القدس) وفيه «٦٦ كانت يد الرب معه» وقال المسيح فيه « متى ١١:١١ الحق أقول لكم انه

لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » ثم قال فيه « ١٨ جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان ١٩ وجاء ابن الانسان يأكل ويشرب فيقولون : هو ذا انسان أكول وشريب خمر محب العشارين والخطاة » بل شهدت الاناجيل ان المسيح عليه السلام أهان أمه واخوته ولم يسمح لهم بلقائه ، وقد استأذنوا عليه ليكلموه وعلل ذلك بانهم مخالفون لمشيئة أبيه كما تراه في آخر الفصل الثاني عشر من انجيل متى وآخر الثالث من مرقس بالمعنى . وعبارة لوقا (٨ : ٢٠ فأخبروه قائلين : أمك واخوتك واقفون خارجا يريدون أن يروك ٢١ فأجاب وقال لهم أمي واخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها) نعم إن اخوته لم يكونوا يؤمنون به كما هو مصرح به في موضع آخر : ولكن هل كانت أمه كذلك ؟ وهل يجازيها هذا الجزاء . والله تعالى يوصي بالاحسان بالوالدين حتى المشركين ، ويفضل أم السيد المسيح على نساء العالمين . واهانة الأم ذنب في جميع الشرائع و الآداب ، كما ان المبالغة في شرب الخمر ذنب حتى في الشرائع التي لم تحرمها مطلقا ، وجاء في هذه الاناجيل ان الشيطان استولى عليه أربعين يوما يجربه ويدعوه الى عبادته ، كما تراه في أول الفصل الرابع من انجيل متى . وكذا في غيره من الأناجيل . ونحن نبرئه من كل ذلك

وشهدت الاناجيل ايضا بأن يوحنا كان يعمد الناس التوبة ومغفرة الخطايا وانه عمد المسيح نفسه ، وبأن أباه زكريا وأمه اليصابات (وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم لوقا ١ : ٦) وهذه شهادة بالعصمة التامة

وهنالك أنبياء آخرون شهدت لهم نبوات العهد القديم بالبر ولم ينسب الى أحد منهم أدنى خطيئة ، وآدم عندما ارتكب الخطيئة لم يكن نبيا مرسلا الى أحد ولا كان معه قوم يسيئون الاقتداء به ، وكان قد نسي النهي عن الاكل من الشجرة ، وانما كانت مثلا لاستعداد جنس البشر للمعصية كالطاعة ، نسيانا أو عمداً ، ولكون المعصية تعالج

بالتوبة فيغفرها الله تعالى، وقد كان ابناه قابيل وهابيل مثلا لكل من الاستعدادين، وشهد الكتاب عندهم لهابيل بأنه كان باراً لم يرتكب خطيئة، وهو لم يكن نبيا

جاء القرآن وهو المهيمن على جميع الكتب الالهية بما لخصناه من الحق في مسألة آدم، وشهد لمن قص علينا خبرهم من أنبياء الله ورسله انهم كانوا من الصالحين الذين يقتدى بهم في البر والتقوى، كقوله في سورتهم (٢١: ٧٣ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) وقال فيهم بعد ذكر أشهرهم (٦: ٩٠ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)

وأما قوله لخاتمهم، ومكمل هدايتهم ٤٨: ١ انا فتحنا لك فتحا مبينا ٢ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) الخ وقوله (٤٧: ١٩ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فالذنب فيه، جاء بأصل معناه اللغوي المنقول من ذنب الدابة وهو كل عمل له عاقبة منافية للمصلحة أو لما هو أولى وأنفع ، ويدخل فيه الاجتهاد في الرأي المباح شرعا كاذن النبي ﷺ لمن استأذنه من المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك وعاتبه الله عليه بقوله (٩: ٤٣ عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلمَ الكاذبين)* وانما العصمة للانبياء من معصية الله بمخالفة وحيه اليهم، اذ لو عصوه لكان أتباعهم مأمورين من الله بالمعصية لانه أمرهم باتباعهم، وقال في نبينا ﷺ (٣٣: ٢١ لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليومَ الاخرَ وذكر اللهَ كثيراً)

العقل والعلم البشرى لا يغنيان عن هداية الرسل

(فان قيل) ان الايمان بالغيب ووجود الرب غريزي في الفطرة البشرية كما حققتم، أو إلهام من إلهاماتها يلقى في روع أفرادها عند نمو إدراكهم ، وان بعض

*) تراجع المسألة في تفسير هذه الآية من جزء التفسير العاشر ص (٤٦٤)

الحكماء المفكرين قد ارتقوا في معارفهم العقلية الى حيث أقاموا البراهين على وجود واجب الوجود وعلمه وحكمته ، ووجوب تعظيمه وشكره وعبادته ، وقد قرر بعضهم بقاء النفس بعد الموت وخلودها في نعيم مقيم أو عذاب أليم ، ووضعوا للناس أصول الفضائل والتشريع والآداب التي تصلح بها الانسانية وروابط الاجتماع

(قلت) نعم لكل ذلك أصل يثبته التاريخ الماضي ، ويشهده العصر الحاضر ، ولكن بين هداية الانبياء وحكمة الحكماء وعلومهم فروقا في مصدر كل منهما ، وفي الثقة بصحته ، وفي الاذعان لحقيته ، وفي تأثيره في أنفس جميع طبقات المخاطبين

فحكمة الحكماء وعلومهم آراء بشرية ناقصة وظنون ، لا تبلغ من عالم الغيب الا أنه موجود مجهول ، وهي عرضة للتخطئة والخلاف ، ولا يفهمها الا فئة مخصوصة من الناس ، وما كل من يفهمها يقبلها ، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهواته ، اذ لا سلطان لها على وجدان العالم بها ، فلا يكون لها تأثير الايمان واسلام الاذعان والتعبد ، لان النوع البشري يأبى طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله في بشريته ، وان فاقه في علمه وحكمته ، وانما يدين لمن يعتقد أن له سلطانا غيبياً عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته ، دون الاسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه

واضرب لهذا مثلا انه كان للفيلسوف الرئيس ابن سينا خادم متعلم معجب بعلومه وفلسفته ، وكان يعجب منه كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه وهو في رأيه أعلم منه وأرقى ، وكان يكاشفه بذلك ، فيعرض عنه أو يوبخه ، فاتفق أن كانا في مدينة أصفهان في ليلة شديدة البرد كثيرة الثلج ، فأيقظ الرئيس خادمه في وقت السحر وطلب منه ماء ليتوضأ به ، فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل ، ثم أيقظه الرئيس في وقت أذان الصبح وطلب منه الماء فاعتذر بشدة البرد . حتى اذا قال المؤذن : أشهد أن محمداً رسول الله — قال الرئيس لخادمه اسمع ، ماذا

يقول المؤذن ؟ قال انه يقول : أشهد أن محمداً رسول الله . قال الرئيس: الآن قد آن لي أن أبين لك ضلالك القديم ، انك خادمي لا عمل لك غير خدمتي ، وإنك أشد الناس اعجابا بي واجلالا وتعظيما لي ، حتى إنك تفضلني على رسول الله ﷺ وتنكر علي أن أومن به وأتبعه ، وانك على هذا كله تخالف أمري في أهون خدمة أطلبها منك فى داخل الدار معتذرا بشدة البرد — وان هذا المؤذن الفارسي يخرج من بيته قبل الفجر ويصعد هذه المنارة وهي أشد مكان فى البلد برداً ، حتى اذا لاح له الفجر أشاد فى أذانه بذكر محمد العربي بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته إيماناً وإذعاناً ، وتعبداً واحتسابا. فتأمل هذا وتدبره في نفسك يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس وسلطان العلم والفلسفة

فمن أعظم مزايا هداية الوحي الدينية على العامية الكسبية هو أن جميع طبقات المؤمنين بها يذعنون لها بالوازع النفسي التعبدي ، فبذلك تكون عامة ثابتة لامجال للخلاف و التفرق فيها ما دام الفهم لها صحيحا ، والايمان بها راسخا ، ولذلك نرى الشعوب التي ساء فهمها للدين ، وتزلزل ايمانها به أو زال ، لا ينفعها من دونه علوم العلماء ، ولا حكمة الحكماء ، وقد ارتقت العلوم والحكمة في هذا العصر ، وعم انتشارها بما لم يعرف مثله في عصر آخر ، وهم لا يذعنون في أنفسهم لارادة ملك أو أمير ، ولا لرأي عالم نحرير ، ولا فيلسوف شهير ، ولا مشترع خبير ، بل صاروا الى فوضى في الاخلاق والآداب والاجتماع ، واستباحة الاموال والاعراض وكذا الدماء ، لم يعهد لها في البشر نظير ، صارت بها الامم والدول عرضة لفتنة في الارض وفساد كبير

أكثر البشر يؤمنون بوجود الله وعلمه وحكمته ، والمثقفون بالتعليم العصري يؤمنون بوحدانيته ، ولم يبق للشرك به تعالى بقية الا في جهلة المتبعين لتقاليد الاديان المنسوبة الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما هي من اديانهم في شيء ، بل هي هادمة لأساسها الاعظم ، وهو التوحيد المطلق ، فكان فشو الشرك بعبادة الاولياء والقديسين وماترتب عليه واقترن به من الخرافات وفساد الاخلاق ، من

أكبر الشبهات على صحة هذه الاديان والمنفرات عن اتباعها ، وصار أكثر البشر إما مؤمنين بالانبياء دائنين بالخرافات ، وإما كافرين بهم منكرين أن الدين وحي من الله تعالى، وتعين ارجاع الفريقين الى هداية الدين الصحيح وماهو الا دين الاسلام،

إن الدين الذي ينتمي اليه أكثر شعوب الحضارة في هذا العصر هو النصرانية، وانما سبب بقائه فيهم ان دولهم قد جعلته من نظام حياتهم الاجتماعية ، فهو لم يبق له سلطان روحي الا في قلوب العوام الخرافيين ، وقد جاءتنا الانباء قبل طبع هذا الفصل بأن زعماء الشعب الالماني وهو أرقى شعوب الارض علما وفنا وحضارة قد ثار على هذا الدين ثورة جديدة يريدبها هدم أساسه من كتب العهد القديم، وتنقيح تعاليم العهد الجديد ، وجعل مايبقون منه وطنياً ألمانياً خاصاً بالجنس الآري الهندي الفارسي الاصل ، والتبرؤ من كل ماهو سامي منه ، وما أنبياؤهم ورسلهم ومسيحهم ومعبودهم الا من الساميين، بل يريدون تقديس شهداء الحرب وعظماء أسلافهم الألمانيين ، وان هذه الاوثنية كوثنية اليابانيين . تذكي سعير العداوة بينهم وبين سائر الاوربيين

فلاسبيل الى انقاذ البشر في هذا العصر إلا اثبات الوحي المحمدي الموحد لانسانيتهم المزكي لانفسهم ، المكمل لفطرتهم ، الذي فيه السعادة الدنيوية والاخروية لهم في جملتهم ، وقد بينا في هذا الكتاب ان محمدا رسول الله وخاتم النبيين ، هو النبي المرسل الى كافة الناس رحمة للعالمين، وانه هو الذي أكمل الله به الدين ، وأزال العصبيات الجنسية والوطنية ، لتوحيد الاخوة الانسانية ، فاتباعه هو الترياق المجرب لهذه السموم الروحية الاجتماعية القاتلة ، راجين أن يفتح الله تعالى به أبواب الهدى لكل من يعقله ويتدبره من مستقلي الفكر ، وطالبي معرفة الحق ، واصلاح الخلق، المعنيين بقول الله عز وجل (٦ : ١٥ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ١٦ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثاني

في اقامة الحجة على مثبتي الوحي المطلق
(في إثبات نبوة محمد ﷺ)

ان من اطلع على الكتب المقدسة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى المعبر عنها بكتب العهدين العتيق والجديد ، وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية ، من أحرار الفكر ومستقلي العقل - علم علما عقليا وجدانيا انه لا يستطيع أحد أن يؤمن ايمانا علميا بأن تلك كتب وحي من الله، وان الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله، وان محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي ،ولا نحوي أن يجحد نحو سيبويه وابن جني، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرضي والبحتري، وقل مثل ذلك فى الطبيب والفيلسوف والرياضي والفلكي — كل منهم مع أئمة علمه ، وفي كل انسان صحيح الحواس في المدركات الحسية . فالبصير لا يستطيع أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السراج على نور النهار ، ولله در البوصيري حيث قال.

الله أكبر ان دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فاطفىء القنديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الافرنج الذين نشؤا فى النصرانية ، وأحاطوا بها علما وخبراً ، ثم عرفوا الاسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة ،

كتب الاستاذ أدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية :

« كان محمد نبيا صادقا كما كان أنبياء بني اسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى اليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الالوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الانبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم ذلك الالهام النفسي،وهذا التضاعف في الشخصية، اللذين يحدثان في العقل البشري المرائي والتجليات والوحي والاحوال الروحية التي من بابها» اه

فهذا العالم الاوربي المستقل الفكر يقول ان كل ما كان به أنبياء بني اسرائيل أنبياء كان ثابتا لمحمد . ونحن نقول ان جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي أكمل شكلا وموضوعا وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه،وأما مافسر به هذه الخصـائص فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه في الفصل الثالث

ولخص هذا العالم خبر نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب اسلامية مذعنا لصحة روايتها. وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسي اميل درمنغام[١] في كتابه (حياة محمد) مذعنا لصحة الرواية ولموضوعها، شارحا لتأثير نبوته في اصلاح البشر ،متمنيا الاتفاق بين المسلمين والنصارى ، آسفا للشقاق بينهم

واننا ننقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (العجائب) عن أحد علماء الافرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ، وهو الدكتور جورج بوست الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليبني عليها الباحث المستقل العقل حكمه في نبوة أنبياء بني اسرائيل ووحيهم ، ونبوة محمد رسول الله وخاتم النبيين ، والوحي الذي أنزل عليه

(١) يكتب هذا الاسم في مجلة السياسة (درمنجيم) بالجيم المصرية حيث ينشر فيها كتابه (حياة محمد) مترجما بالعربية، وإنما اخترنا كتابته بالغين لكتاب جاءنا من المؤلف بالعربية كتب فيه امضاءه (أميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الاول من مجلد المنار الثلاثين

تعريف الوحي والنبوة والانبياء عند النصارى

جاء في تفسير كلمة « وحي » من قاموس الكتاب المقدس المطبوع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٨٩٤ ما نصه مع حذف أكثر رموز الشواهد :

« تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب وجاء في (حز ١٢ : ١) « هذا الوحي هو الرئيس » أي انه آية للشعب . وعلى العموم يراد بالوحي الالهام : وعلى ذلك يقال « ان كل الكتاب هو موحى به من الله » والوحي بهذا المعنى هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين وذلك على أنواع (١) إفادتهم بحقائق روحية أو حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل اليها الا به (٢) ارشادهم الى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاها أو تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ . فيقال « تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » وهنا لا يفقد المتكلم أو الكاتب شيئاً من شخصيته وانما يؤثر فيه الروح الالهي بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق ارشاده تعالى . ولهذا نرى في كل مؤلف من الكتاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وما شابه ذلك وفي شرح هذا التعليم دقة . وقد اختلف العلماء فيما أوردوه من شرحه ، غير أن جميع المسيحيين يتفقون على أن الله قد أوحى لأولئك الكتاب ليدونوا ارادته ويفيدوا الانسان ما يجب عليه من الايمان والعمل لكي ينال الخلاص الابدي » اه

وجاء في تفسير « نبي . أنبياء . نبوة » منه ما نصه :

« النبوة لفظة تفيد معنى الاخبار عن الله وعن الامور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمي هارون نبيا لانه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظراً لفصاحته. أما انبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية ، ويتنبئون بمجيء المسيح . ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في أيام صموئيل أقام

مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الانبياء فاشتهر من ثم صموئيل باحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب، وتأسست أيضا مدارس أخرى للانبياء في بيت ايل وأريحا والجاجال وأماكن أخرى. وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أبا أوسيدا، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر، ولذلك كان الانبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب. وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب. أما معيشة الانبياء وبني الانبياء فكانت ساذجة للغاية. وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوافين يضافون عند الاتقياء

« ويظهر ان كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الانباء بما سيأتي، انما اختص بهذه الخصوصية أناس منهم كان الله يقيمهم وقتا دون آخر حسب مشيئته، ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة. على أن بعض الانبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلا فانه كان راعيا وجاني جميز (١)

« اما النبوة فكانت على انواع مختلفة كالاحلام والرؤى والتبليغ. وأحيانا كثيرة كان الانبياء يرون الامور المستقبلة بدون تمييز أزمنتها فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الاشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح، وكانتصار اسكندر ذي القرنين باتيان المسيح، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميس بيوم الحشر. ومن هذا القبيل اقتران خراب أورشليم بحوادث يوم الدينونة.« وقد أرسل الله الانبياء الملهمين ليعلنوا مشيئته وليصلحوا الشؤون الدينية وعلى الاخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم: وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبيههم وارشادهم الى سبيل الحق. وكان لهم دخل عظيم في الامور السياسية اه بنصه

«١» اي كان له حرفتان هما رعي المواشي وقطف ثمر الجميز لأصحابه

بعض ما يرد على نبوتهم من تعريفها

أما تفسيره الالهام بحلول روح الله في روح الملهم فهو تحكم للنصارى لا يعرفه ولا يعترف به أنبياء بني اسرائيل ولا علماؤهم . ولا يمكنهم إثباته ولا دفع مايرد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلف فيما كتبه أولئك الملهمون وما خالفوا فيه الواقع ، وقد أشار الى ذلك بقوله : ان في شرح ذلك التعليم دقة، وان العلماء اختلفوا في شرحه » الخ، ومن حل فيه روح الله صار إلها إذ المسيح لم يكن إلها عند النصارى الا بهذا الحلول، فكيف يقع في مثل ماذكر ويتخلف وحيه أو يخالف الواقع؟

وأما كلامه في النبوة والانبياء فيؤخذ منه ما يأتي :

«١» ان أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر، وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب، وبارعين في كل ما يؤثر في الانفس ويحرك الشعور والوجدان ، ويثير رواكد الخيال ، فلا غرو أن يكون عزرا ونحميا من أعظم أنبيائهم ساقيين من سقاة الخمر لملك بابل ﴿ ارتحششتا ﴾ ومغنيين له ، وأن يكونا قد استعانا بتأثير غنائهما في نفسه على سماحه لهما بالعودة بقومهما الى وطنهما واقامة دينهما فيه

فالنبوة على هذا كانت صناعة تعلم موادها في المدارس، ويستعان على الاقناع بها بالتخييلات الشعرية، والالهامات الكلامية ، والمؤثرات الغنائية والموسيقية . والمعلومات المكتسبة . فأين هي من نبوة محمد الامى الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً ، وقد جاء مفردا ، بأعظم مما جاءوا به كلهم اجمعون مجتمعا ؟

«٢» ان كثيراً من هؤلاء الانبياء وأولادهم كانوا متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفا عند الاتقياء المحبين لرجال الدين ، كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين، ومن المعلوم أن هؤلاء المحبين يقبلون من رجال التنسك كل ما يقولون، ويسلمون لهم كل مايدعون، ويذيعون عنهم كل مايقبلون

منهم ، ومن غير هؤلاء الكثيرين من الانبياء من نقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كبائر المعاصي ؛ وان من أخبار الصوفية والنساك والسياح عند المسلمين من تفضل سيرتهم سيرة هؤلاء الانبياء في كتبهم ، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم إلى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه ، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها ؟

(٣) أشهر أنواع نبوتهم الاحلام والرؤى المنامية والتخيلات المبهمة ، وكلها تقع لغيرهم ، وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي كان له صور أعلى منها سنبينها بعد (١) والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والافكار في تعبيرها مذاهب شتى ، قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الانبياء كرؤيا ملك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام ، ورؤياه هو في صغره

(٤) ان نبوة الاخبار عن الامور المستقبلة - وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى - كانت أحيانا كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولا حوادثها ، فكان بعضها يختلط ببعض فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه ، كما يعهد في كل عصر من أخبار العرافين والمنجمين ، بله الروحانيين المكاشفين ، ومنها ما ظهر خلافه كما أشار اليه ولم يشرحه ولكن التاريخ شرحه .

وكان أعظم نبوات هؤلاء الانبياء إخبارهم عن المسيح (مسيا) وملك اسرائيل ولا يزال اليهود ينتظرونها (٢) ثم إخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الملكوت لاجل دينونية العالم وانه لا ينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله . وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء

---

(١) قد بينتها في الفصل الأول الذي زدته في هذه الطبعة الثانية ايضا

(٢) اي ينتظرون صدق هذه النبوة

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله

في موضوعها ، والموازنة بينه وبين موسى وعيسى (ع . م)

أنى تضاهىء تلك الأخبار (النبوات) وهي كما علمت ـ أنباء القرآن الكثيرة بالمغيبات كالذي بيناه في خلاصة تفسير سورة براءة (التوبة) مما وقع من المنافقين، وما هو في سورة الفتح وقد وقع في عهد النبى(ص). وفي غيرهما كقوله تعالى في أول سورة الروم(٣٠) (غُلِبَتِ الرُّومُ في أَدْنَى الأَرضِ وَهُم مِنْ بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبونَ في بِضْعِ سنين) الآية . وقوله (٢٤ : ٥٥ وَعدَ اللهُ الذين آمَنوا مِنكم وعمِلُوا الصّالحاتِ لَيَسْتَخلِفَنَّهُمْ في الأرضِ) الآية ؟ وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيفتحون بعده بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر ، ويستولون على ملك كسرى وقيصر ، حتى انه سمى كسرى عصره باسمه كما رواه البخاري عن عدي بن حاتم الخ ؟ (١)

هذا مايقال بالاجمال في أحد موضوعي النبوة وهو الإخبار عما سيكون في مستقبل الزمان، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره أظهر وأوضح وأبعد عن احتمال التأويل ، وأعصى على إنكار المرتابين ، ويزيد عليه ما جاء به من أنباء الغيب الماضية، وسأورد ما يتأوله به الجاحدون للنبوة في بيان بطلان شبهتهم

وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الأعظم أي عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فالنظر فيه من وجهين (أحدهما) ماذكروه من كونه لايمكن أن يصل اليه عقل من جاء به وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية، فيتعين أن يكون بوحي من الله

« ١ » سأورد طائفة من هذه الانباء بالغيب في ملحقات هذا الكتاب

(وثانيهما) أن يكون مافيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره، فيتعين أن يكون وحياً

فأما الاول الخاص بشخص الرسول فان العاقل المستقل المفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام فانه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أميا لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وان قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الامم وعلوم التشريع والفلسفة، حتى إن مكة عاصمة بلادهم، وقاعدة دينهم، ومثوى كبرائهم ورؤسائهم، ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل، والشرع العام العادل، لا يمكن أن يكون مكتسبا ولا أن يكون مستنبطا بعقله وفكره كما بيناه من قبل، وسندفع ما يرد من الشبهة عليه بعد (في الفصل الثالث)

ويرى بجاه هذا أن موسى (ع.م) أعظم أولئك الانبياء في علمه وعمله، وفي شريعته وهدايته، قد نشأ في أعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الارض وأرقاه تشريعا وعلما وحكمة وفناً وصناعة، وهو بيت فرعون مصر، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهر مستعبدين مستذلين: تُذَبَّح أبناؤهم وتُستحيا نساؤهم، تمهيداً لابادتهم ومحوهم من الارض، ثم انه مكث بضع سنين عند حميه في مدين وكان نبيا — او كاهنا كما يقولون — فمن ثم يرى منكرو الوحي ان ماجاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشيء في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ

ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي ان شريعة التوراة موافقة في أكثر أحكامها لشريعة حمورابي العربي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى معاصرا لابراهيم ﷺ، وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الالمان في حفائر العراق

انه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لا وحي من الله تعالى(١) وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك انه إن لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحيا من الله تعالى، ولم ينقل أن حمورابي ادعى ان شريعته وحي من الله تعالى

ثم يرى الناظر أن سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها، وانهم كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم اخرى ، فلا يصح أن يذكر أحد منهم مع محمد ذكر موازنة ومفاضلة، ويرى أيضا أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا بنبأ غيبي . بل يرى ان عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً ،وأعلاهم ذكراً، وأجلهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعا لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها، وإصلاح روحي أدبي لجمود اليهود المادي على ظواهر ألفاظها ، فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا انه لا يكثر على رجل مثله زكي الفطرة ، ذكي العقل، ناشيء في حجر الشريعة اليهودية، والمدنية الرومانية ،والحكمة اليونانية ، غلب عليه الزهد والروحانية، أن يأتي بتلك الوصايا الادبية (٢) ونحن المسلمين لا نقول هذا ولا ذاك وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقليون ،وألوف منهم ينسبون إلى المذاهب النصرانية

وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل المفكر غير المقلد لدين من الاديان أن عقائد الاسلام من توحيد الله وتنزيهه عن كل نقص ، ووصفه بصفات الكمال ، والاستدلال عليها بالدلائل

---

(١) قد شرحنا هذه المسألة في المجلد السادس من المنار وذكرنا خلاصتها في تفسير الآية ٣٠ من سورة براءة (التوبة) وهى التاسعة فتراجع في المنار سنة ١٣٢١ هـ او الصفحة ٣٤٨ من الجزء العاشر من التفسير

(٢) على ان منهم من يعزو أجلها إلى كونفشيوس المشترع الصيني والى غيره من الحكماء الذين كانوا قبل المسيح عليه السلام

العقلية والعلمية الكونية ، ومن بيان هداية رسله ، ومن عباداته وآدابه المزكية للنفس المرقية للعقل ، ومن تشريعه العادل، وحكمه الشوري المرقي للاجتماع البشري — كل ذلك أرقى مما في التوراة والاناجيل وسائر كتب العهد القديم والجديد ، بل هو الاصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال ، ويشهد بهذا علماء الافرنج وقد شرحناه من وجهة نظرنا ووجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير [١]

ومن نظر في قصة آدم ونوح وابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين، وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الانبياء في سائر أسفار العهد القديم ، ثم قرأ هذه القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الانبياء العظام ، ففي أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجهل والندم على خلق البشر والانتقام منهم ، ووصف الانبياء أيضا بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوءى ، من حيث يجد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه ، ومن وصف أنبيائه ورسله بالكمال ، وأحاسن الاعمال، ماهو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارئها إيمانا وهدى، فأخبار الانبياء في كتب العهدين تشبه بستانا فيه كثير من الشجر والعشب والشوك ، والثمار والازهار والحشرات، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك الازهار والعسل المشتار من جني تلك الثمار ، ويرى فيه رياضا اخرى جمعت جمال الكون كله

وندع هنا ذكر ما كتبه علماء الافرنج الاحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والانجيل) لاحد علماء الانكليز[٢] وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ ، والقرآن خال من مثل ذلك

---

(١) آخرها (ص ٣٥٩ ج ١٠ تفسير) وسنفرد له ملحقا من علاوات هذه الطبعة

(٢) هو تشارلس وطس وطبع في مطبعة (وطس وشركائه في لندن) وترجم بالعربية وطبع بمطبعة الموسوعات في مصر سنة ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م

صد الكنيسة عن الاسلام و بغيه عوجا

ان رجال الكنيسة لم يجدوا مايصدون به أتباعها عن الاسلام بعد أن رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية، وكاد يقضي على النصرانية في الشرق، ثم امتد نوره إلى الغرب ، إلا تأليف الكتب ونظم الاشعار والاغاني في ذم الاسلام ونبيه وكتابه بالافك والبهتان ، وفحش الكلام ، الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين أكذب البشر ، وأشدهم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه

وقد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون ، ويتهيجون بما ينظمون وينشدون، حتى إذا ما اطلع بعضهم على كتب الاسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحوهم أقبح الفضائح ، كما ترى في كتاب (الاسلام خواطر وسوانح) للكونت دي كاستري ، وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للمسيو درمنغام وهذان الكاتبان افرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين، وقد صرحا كغيرهما بأن كنيستهم هي البادئة بالظلم والعدوان، والافك والبهتان، واعترفا بأدب المسلمين في الدفاع (*

*) قال موسيو درمنغام في كتابه (حياة محمد) ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد بك حسين هيكل : لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة ، ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أكبر الخلاف . فمن المجادلين البيزنطيين الذين أوقروا الاسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا انفسهم - فيما خلا جان داماسين - مؤنة دراسته ، ولم يحارب الكتاب والنظامون (يعني الشعراء) مسلمي الاندلس إلا بأسخف المثالب ، فقد زعموا محمداً لص نياق (اى ابل) وزعموه متهالكا على اللهو، وزعموه ساحراً ، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق ، بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً ان لم ينتخب لكرسي البابوية ... وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً « يقرب له عباده الضحايا البشرية » وان =

ولما ظهرت طائفة البروتستان وغلب مذهبها في شعوب الانجلوسكسون والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الاصلاحية لما انعكس على أوربة من نور الاسلام، لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، ولا تجملوا فيه بشيء من النزاهة والادب. والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم وافترائهم وسوء أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الاسلام من أحرار علمائهم أصرح قولا، ولعلهم أكثر من اللاتين عددا، وكذلك الذين اهتدوا به، وسبب ذلك أن الحرية والاستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين ينشرون الاسلام في أوربة والولايات المتحدة الاميركانية ثم في سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو الانكليزي في كتابه الحياة الزوجية (واشتهر عنه هذا ونقلته صحف الاقطار الاسلامية)

= جيبر دنوجن نفسه وهو رجل جد ليذكر أن محمداً مات في نوبة سكر بين (كذا) وان جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير، وذلك ليفسر السبب الذي من اجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان ... وذهبت الاغنيات الى حد أن جعلت محمداً صنما من ذهب، وجعلت المساجد الاسلامية برابي (معابد أصنام) ملأى بالتماثيل والصور. وقد تحدث واضع أغنية انطاكية حديث من رأى صنم «ماهوم» مصنوعا من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء، وأما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الاوثان الاسلامية فتزعم أن مسلمي الاندلس يعبدون ثالوثا مكونا من ترفاجان وماهوم (هو ماهوم ويعنون به محمداً) وابولون. وتحسب «قصة محمد» ان الاسلام يبيح للمرأة تعدد الازواج. وقد ظلت حياة الاحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة، فمنذ رودلف دلوهيم إلى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز وفيفس ومراتشي وهوتنجر وبيليا تلار وبريذ وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال والاسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الكفر) كلها، وأنه من عمل الشيطان، والمسلمين بأنهم وحوش، والقرآن بأنه نسيج من السخافات اه المراد منه على كثرته، وإبهام في ترجمته، وهو قليل من إسرافهم وتراجع ترجمة كتاب (الاسلام: خواطر وسوانح) العربية لأحمد فتحي زغلول

الآيات والعجائب أي الخوارق

واثبات النبوة عندنا وعندهم *)

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها، وفيما يدعونه من تجرد محمد ﷺ من لباسها، وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له. وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الافرنج عليه أكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع، لان أساسه قد بني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الافراد: وترقية مصالح الاجتماع، وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى فهي القرآن، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام، فانما هي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان

كفاك بالعلم في الامي معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

وأما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها، وفي صحتها، وفي دلالتها. وأمثال هذه الامور تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين، اكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين، وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر، وسنبين ما جاء به الاسلام فيها من القول الفصل

العجائب وما للمسيح منها

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس ما نصه:

« عجيبة: حادثة تحدث بقوة إلهية خارقة مجرى العادة الطبيعية لاثبات إرسالية من جرت على يده أو فيه. والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لا ضدها تحدث بتوقيف نواميس الطبيعة لا بعكسها، وهي إظهار نظام أعلى من الطبيعة تخضع له النظام

*) سيأتي تفصيل آخر في تحقيق مسألة الخوارق وأنواعها والفرق بين آيات الانبياء والرسل منها وغيرها كالكرامات والخصائص الروحية

الطبيعي ، ولنا في فعل الارادة مثال يظهر لنا حقيقة أمر العجائب إذ بها نرفع اليد ، وبذلك نوقف ناموس الثقل (١) ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويحد مدارها ويحصرها لانها عوامل لمشيئته . ويناط فعل العجائب بالله وحده أو بمن سمح له بذلك

« وإذا آمنا بالاله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بامكان العجائب ، وكانت العجيبة الاولى خليقة الكون من العدم بارادته تعالى . أما المسيح فاقنومه عجيبة أدبية عظيمة ، وعجائبه لم تكن إلا إظهار هذا الاقنوم وأعماله ، وإذا آمنا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه . أما الشيطان فعجائبه كذابة

« ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيرا ما يستشهد المسيح بعجائبه لاثبات لاهوته وكونه المسيح ، وكان يفعلها لتمجيد الله ولمنفعة نفوس الناس وأبدانهم ، وكان يفعلها ظاهرا أمام جماهير أصحابه وأعدائه ولم ينكرها أعداؤه غير انهم نسبوها لبعلزبول (٢) وسواء امتحناها بالشهادة من الخارج وبمناسبتها إلى إرساليته الالهية ظهرت لكل من كان خاليا من الغرض صحيحة . فاذا لم نسلم بصحتها التزمنا أن نقول بأن مقرريها كذابون ، الامر الذي لا يسوغ ظنه بالمسيح والرسل (٣)

---

(١) اي سنة جاذبية الثقل التي تقتضي سقوط الاجسام إلى مركز الارض

(٢) أي إلى الشيطان ، والاناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آنفا ، بل يبالغون في عجائبه وتصرفه في العالم ومن أسمائه عندهم : إله هذا الدهر . قال فى قاموس الكتاب المقدس (فلنا فى شخصيته نفس البراهين التي لنا في شخصية الروح القدس والملائكة) (راجع ص ٦٥٠ جزء أول) وتعجب من اهل هذا الذين

(٣) هذا استدلال غير منطقي ، فلا تقوم به الحجة على المنكر ، ولا يحتاج اليه المعترف المقلد ، وحاصله : إما أن نسلم صحة هذه العجائب وإما أن نقول إن رواتها كاذبون ، لكن كذب رواتها لا يسوغ أن يظن بالمسيح والرسل ـ فثبت انها صحيحة ! والمنكر يسوغ كذب الناقلين لها ، وله أن يسلم الشرطية المنفصلة ويمنع الاستثناء ويعده مصادرة ، إذ جعل كلا من ثبوت كونه مسيحا من الله وكونهم رسلا متوقفا على صدقها ، وصدقها متوقفا على ثبوت ذلك . وهذا دور محال

« وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطرار اليها[1] ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الادبية الحاصلة من هذه الديانة مع الشواهد الداخلية على صحتها غير انه يمكن لله تعالى أن يجددها في أي وقت شاء » اه

ثم وضع المؤلف جدولا أحصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم وعمورة على قوم لوط الى « خلاص يونان (يونس) بواسطة حوت » فبلغت ٦٧ عجيبة ، وقفى عليه بجدول العجائب المقرونة بحياة المسيح من الحبل به « بفعل الروح القدس» إلى (الصعود إلى السماء) فبلغت ٣٧ . وعزز الجدولين بثالث في (العجائب التي جرت في عصر الرسل) أي الذين بثوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من (انسكاب الروح القدس يوم الخمسين) الى (شفاء أبي بوبليوس[2] وغيره) فكانت عشرين . وقد صرح بأن يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب انه صنع عجائب

بحث في عجائب المسيح عليه السلام

أقول : ان ٢٧ من عجائب المسيح المذكورة : شفاء مرضى ومجانين لا بستهم الشياطين ، وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم ، وما بقي فمسألة الحبل به وتحويله الماء إلى خمر وسحب الشبكة في بحر الجليل ، وإشباع خمسة آلاف مرة وأربعة آلاف مرة أخرى ، وضرب التينة العقيمة بما أيبسها ، وقيامة المسيح وصيد السمك والصعود . وإننا نلخص رواية الاناجيل لأهمها وهو إحياء الموتى ، ونذكر ما يقوله فيها منكرو العجائب

(الميت الاول) شاب من مدينة نايين كان محمولا في جنازة وأمه تبكي ، فاستوقف النعش وقال له : أيها الشاب لك اقول قم . فجلس وابتدأ يتكلم ،

١) هذا مذهب البروتستانت ويلزمهم ان عجائب الشيطان بقيت بدون معارض وأما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر

(٢) هو رئيس جزيرة كان مريضا فرقاه بولص وصلى له فشفي (اعمال ٢٨)

فدفعه إلى أمه ، فأخذ الجميع خوف ، ومجدوا الله قائلين : قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه (لوقا ٧:١١ – ١٦)

(الثاني) صبية ماتت فقال له ابوها وكان رئيسا : ابنتي الآن ماتت ، لكن تعال فضع يدك عليها فتحيا . فجاء بيت الرئيس ووجد المزمرين والجمع يضجون ، فقال لهم « تنحوا فان الصبية لم تمت ، لكنها نائمة» فضحكوا عليه ، فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية (مت ٩:١٨ – ٢٤)

فمنكرو العجائب يقولون إن كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل وان كثيرا من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن ظن الناس انهم ماتوا . ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب احد الاطباء شهادة بثبوت موته ثبوتا علميا فنيا – وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا أيضا بأن الصبية لم تكن ميتة أخذاً بظاهر قوله عليه السلام: لم تمت ولكنها نائمة. يعني انها أغمي عليها فظنوا انها ماتت وهي لم تمت

وأما الثالث فهو ليعازر حبيبه وأخو مرثا ومريم حبيبتيه : مرض في قريتهم (بيت عنيا) فأرسلتا الى المسيح قائلتين : هو ذا الذي تحبه مريض . فمكث يومين وحضر فوجد انه مات منذ اربعة ايام ، فلاقته مرثا وقالت : ياسيد لو كنت هنا لم يمت أخي ، ثم دعت أختها مريم فلما رأته خرت عند رجليه قائلة كما قالت مرثا ، وكانوا قد ذهبوا إلى عند القبر للبكاء، فلما رآها تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون (انزعج بالروح واضطرب) وقال أين وضعتموه ؟ فدلوه عليه ، فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر ، وكان مغارة وقد وضع عليه حجر ، فأمر برفع الحجر فرفعوه (ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : أيها الآب أشكرك لانك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ، ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا

انك أرسلتني) ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم «ليعازر، هلم خارجا» فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطتان بأقمطة، ووجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب اه ملخصا من الفصل ١١ من انجيل يوحنا

أتدري أيها القاريء ما يقول منكرو العجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية؟ انني سمعت طبيبا سوريا بروتستنتياً يقول: إنها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبتيه وحبيبه لاقناع اليهود بنبوته ـ وحاشاه عليه السلام، وإنما ننقل هذا لنبين أن النصارى لا يستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر علي نبوة المسيح فضلا عن ألوهيته بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الالوهية كما فهم الذين شاهدوها، لانه ليس لها اسانيد متصلة إلى كاتبيها، ولا دليل على عصمتهم من الخطأ في روايتها، دع قول المنكرين باحتمال الاحتيال والتلبيس أو المصادفة فيها، او عدهم إياها على تقدير ثبوتها من فلتات الطبيعة[١]

وإذا كان أعظمها وهو إحياء الميت يحتمل ما ذكروا من التأويل فما القول في شفاء المرضى وإخراج الشياطين الذي يكثر وقوع مثله في كل زمان، والاطباء كلهم يقولون ان ما يدعيه العوام من دخول الشياطين في اجساد الناس ما هو إلا امراض عصبية تشفى بالمعالجة او بالوهم والاعتقاد، ودونها مسألة الخمر والسمك ويبس التينة (٢)

(١) وقد نقل مثلها عن بعض صوفية المسلمين والهندوس فان كذبوا النقول القديمة فمنها ما رواه من شاهده من أهل عصرنا كما ترى في الحاشية التالية لهذه وهي

«٢» خلاصة عجيبة التينة انه جاع وهو خارج من بيت عنيا الى أورشليم مع تلاميذه فرأى شجرة تين مورقة، فجاءها لعله يجد فيها شيئا يأكله فلم يجد فيها شيئا «لانه لم يكن وقت التين» فلعنها قائلا لها «لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الابد» ولما رجعوا من أورشليم رأوا التينة قد يبست فقال له بطرس: ياسيدي انظر التينة التى لعنتها قد يبست الخ «مرقس ١١: ١١-١٤» فأجابهم بما خلاصته ان هذا آية =

تابع للحاشية

= الايمان وان كل مؤمن يقول لاي شيء «كن» وهو يؤمن انه يكون فانه يكون ولو كان أمرا للجبل أن يزول من مكانه

وفي هذه العجيبة نظر من ثلاث جهات (الاولى) ان منكر الآيات يقول انه يجوز أن تكون التينة يبست بسبب مادي في أثناء وجود المسيح وتلاميذه في أورشليم

(الثانية) ان الروحيين من فلاسفة الهندوس وغيرهم يقولون ان كل من كان روحانيا قوي الارادة يكون له مثل هذا التأثير فهو من خواص النفس ، وهذا بمعنى قول المسيح لهم في تأثير الايمان ، وهو ينافي أن يكون بتأييد من الله خارق للعادات الكسبية الدالة على أن من جرت على يده على الحق

(الثالثة) ان الناس ينقلون مثل هذا في كل زمان ، ومن ذلك ما نقلته جريدة المقطم في عددها الذي صدر بتاريخ ٤ من رمضان من عامنا هذا الموافق ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٣٣ مترجما عن كتاب لطبيب اسمه الكسندر كانن في بلدية لندن له منصب معروف في مستشفى الامراض النفسية أنه الف كتابا في الشهر الماضي اسمه (العالم غير المنظور) تكلم فيه عن التنويم المغناطيسي والسحر الاسود وغيرهما من (علوم الغيب) ذكر فيه رحلته إلى الهند والتبت وما رأى فيها من المناظر المدهشة (ومنها شجرة تين تذبل بأمر رجل وجثة فقدت الحياة مدة سبع سنوات تعاد اليها الحياة)

ثم نقل عن هذا الكتاب في تفصيل عجيبتي اماتة التينة وإحياء الانسان الميت نبأ قاض انكليزي اسمه مكردي أنذره بأنه سيقتل قبل مرور سبع سنين برصاص بندقية تطلق عليه بأمره وكان الامر كذلك . وأن المؤلف سمع هذا الخبر من « اللاما » أي كاهن التبت الاكبر ثم قال المقطم ما نصه بعد العنوان:

﴿ اماتة الصوفي الهندى للتينة كالمسيح ﴾

ويتكلم الطبيب في كتابه عن صديقه « البروفسور ... » ويقول عنه انه يزور سريره كل ليلة وعمره مائة سنة ولكن منظره منظر رجل ابن أربعين . وقد صحبه مرة الى شجرة تين فخاطبها صاحبها من بعد قائلا : لقد أحسنت وقاومت عواصف الحياة وسليت نفسي وشفيتها. وقد آن وقت رحيلك عن عالم الغرور والعدم هذا =

تتمة الحاشية

= فموتي الآن ولا تعودى الى الحياة مرة أخرى . قال الطبيب : فذبلت التينة حالا وسمح لي بفحصها أنا وغيري لنتأكد موتها

وقص حكاية الرجل الذي أعيدت حياته إليه فقال :

إحياء اللاما كاهن التبت للميت

« كان اللاما الكبير على عرشه فدخل عليه جوق من الرهبان يحملون المشاعل فجلسوا في حلقة واسعة وهم يتمتمون أغنية . فصلى اللاما وفي تلك الدقيقة دخل ثمانية يحملون تابوتا من حجر فأنزلوه ورفعوا غطاءه فرأينا شخصا منظره منظر ميت . فسمح لي بفحصه فلم أشعر بنبضه ولا بخفقان قلبه وكان بارداً كالحجر وعيناه عينا رجل انقضى عليه يوم كامل وهو ميت ووضعت مرآة على فمه وأنمه فلم يظهر عليها أثر تنفسه . ثم لفظ اللاما كلمات فرأينا الميت يفتح عينيه، ثم جلس في تابوته فساعده راهبان على الوقوف والمشي، فدنا من اللاما وانحنى وعاد إلى نعشه وهو لا يزحزح بصره عن (أعظم الحكماء) . ثم لم تمض دقائق قليلة حتى عاد ولا حياة فيه . فلم أدر أكان ميتا حقيقة أم في غيبوبة . فقرأ اللاما أفكاري فقال لي ان الرجل كان ميتا مدة سبع سنوات أخرى . و إن عمره مئات من السنين وقد يحيا إلى الابد إذا صح أن نعد هذا حياة »

(يقول محمد رشيد) وفي هذا الكتاب عجائب أخرى ذكر بعضها في المقطم وأن المجلس البلدي عزله من وظيفته عقابا له عليه . وأنا قد سمعت فى صغري حكاية مشهورة عند أهل بلدنا عن رجل معتقد اسمه الشيخ محمد العصافيري أنه نظر الى شجرة تين وقال مسكينة مسكينه تموت، فلم تلبث أن عراها الذبول حتى يبست وجملة القول أن حكايات العجائب كثيرة في كل زمان وسيأتي تحقيق القول فيها

آية نبوة محمد العقلية العلمية وسائر آياته الكونية

هذا وان مارواه المحدثون بالاسانيد المتصلة تارة وبالمرسلة[1] أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمداً ﷺ هي أكثر من كل ما رواه الانجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهانا على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس.

ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها ، لان البشر قد بدءوا يدخلون بها في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون ، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم العقلي مع هذا الخضوع ، بل هو من موانعه ، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته ، وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وبعلومه ، وباعجازه اللفظي والمعنوي ، وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآتية فيه[2] ليربي البشر على الترقي في هذا الاستقلال، إلى ما هم مستعدون له من الكمال

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية ، والنبوة العامة الباقية، قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله « مامن الانبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » متفق عليه من حديث أبي هريرة (رض)

وقص الله تعالى علينا في كتابه ان المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله ، فاحتج عليهم بالقرآن في جملته، وبما فيه من أخبار الرسل

«١» الرواية المرسلة للحديث هي التي لم يذكر فيها اسم الصحابي الذي رفعه الى النبي (ص)

«٢» قد بينا ذلك في تفسير آية التحدي من سورة البقرة من بضعة وجوه وسنزيده بيانا في هذا الكتاب وإنما موضوعنا هنا بيان الفرق بين نبوة نبينا ونبوة من قبله

والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه ،وبهدايته وبعلومه وباعجازه وعدم استطاعة أحد ولا جماعة ولا العالم كله على الاتيان بمثله (١٧ : ٨٨ قل لئنِ اجتمعتَ الانسُ وَالجنُّ على أنْ يَأتوا بمِثلِ هذا القرآنِ لا يأتُونَ بمثله ولوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ ظَهيراً) (وسيأتي تفصيله)

وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لاقامة الحجة على نبوته ورسالته، بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد، كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً وعُدداً واستعداداً بالسلاح والطعام، وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها ، ثم بغزوة الاحزاب إذ تألب المشركون واليهود على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال .

من تلك الآيات شفاء المرضى ، وإبصار الاعمى ، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في غزوة الاحزاب وفي غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنها تسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل ببدر ، ولم يصب المشركين من غيثها شيء . ومثل ذلك في غزوة تبوك إذ نفد ماء الجيش في الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم ، على قلة الرواحل معهم ، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشرب به شربا ، فقال أبو بكر يا رسول الله ان الله عودك في الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فدعا فلم يرجعها حتى كانت السماء قد سكبت لهم ما ملأوا ما معهم من الرّوايا ولم تتجاوز عسكرهم (١)

---

(١) رواه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في كتابيهما « دلائل النبوة » والضياء في الاحاديث المختارة والروايا جمع راوية وهو البعير الذي يحمل عليه الماء وكذا غيره من الدواب

تأثير العجائب في الافراد والامم

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين، استحقوا بجحودها عذاب الله في الدنيا والآخرة، ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للايمان بها : ان فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى ، وإن أكثر بني اسرائيل لم يعقلوها (١) وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها ورؤية غيرها في برية سيناء. وقال اليهود في المسيح : لولا أنه رئيس الشياطين لما أخرج الشيطان من الانسان. وقالوا ان ابليس أو بعلزبول (٢) يفعل أكبر من فعله، وما كان أكثرهم مؤمنين. وقال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في ابان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ : اننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه.

وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات انما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سبباً، وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب فالآتي به مظهر للخالق سبحانه إن لم يكن هو الخالق نفسه، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك

وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام انه سيأتي بعده مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا (متى ٢٤:٢٤) وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عددا كثيرا منهم وأسماء بعضهم. وأقول: ان منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي آخر يريد إظهار عجائبه في امريكا في هذا العام ونقلوا عن المسيح أنه قال: «الحق أقول لكم ليس كل نبي مقبولا في وطنه» وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق

(١) قال تعالى (١٠:٨٣ فما آمن لموسى الاذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم) الذرية صغار النسل والمتبادر ان تنكيرها هنا للتقليل

(٢) بعلزبول من اسماء الشيطان عندهم

تأثير هدايته في الناس لا الآيات والعجائب فقال « من ثمارهم تعرفونهم » ولم يظهر بعده ـ ولا قبله ـ نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثمار محمد ﷺ ولا أحد يصدق عليه قوله في انجيل يوحنا (١٦ : ١٢ ان لي أموراً كثيرة أيضاً ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك (أي البارقليط) روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق) الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس إلى جميع الحق في الدين من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب غير محمد رسول الله وخاتم النبيين

ومن استقرأ تواريخ الأمم علم أن أهل الملل الوثنية أكثر اعتماداً على العجائب من أهل الأديان السماوية ، ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الأولياء والقديسين، أكثر مما نقلوا عن الأنبياء المرسلين، وان أكثر المصدقين بها من الخرافيين.

ثبوت نبوة محمد بنفسها واثباتها لغيرها

وجملة القول أن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أي بالبرهان العلمي والعقلي الذي لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية ، وأن هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس في كل زمان ، وانه لا يمكن اثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ وهذا القرآن الذي جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من أطوار النوع البشري هو شهادته لها . فان الكتب التي نقلتها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عزيت إليهم ، إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواترا ولا آحادا ، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه، وتناقضه، وتعارضه، ولا إثبات صحة التراجم التي نقلت بها ، كما قلنا آنفا وبيناه بالتفصيل مرارا

إن الكتاب الالهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواترا عمن جاء به بطريقتي الحفظ والكتابة معا هو القرآن ، وإن النبي الوحيد الذي نقل تاريخه بالروايات المتصلة الأسانيد حفظا وكتابة هو محمد ﷺ فالدين الوحيد الذي يمكن أن يعقله العلماء

المستقلون في الفهم والرأي ويبنوا عليه حكمهم هو الاسلام. وأما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الأديان السابقة لثبوت قضاياه الاجمالية بالتواتر المعنوي، فهو انه وجد في جميع أمم الحضارة القديمة دعاة إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى العمل الصالح، وإلى ترك الشرور والرذائل منهم أنبياء مبلغون عن الله تعالى مبشرين ومنذرين، كما أنه وجد فيهم حكماء يبثون ارشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة - ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس، وأمور خاصة بأقوامهم وبزمانهم، وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم

وإذا كان الاسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل فاننا نذكر هنا شبهة علماء الافرنج الماديين ومقلدتهم عليه، بعد مقدمة في شهادتهم الاجمالية له، تمهيداً لدحض الشبهة، ونهوض الحجة، فنقول:

***

درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه (ص)

درس علماء الافرنج تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلوها فليا ونقشوها بالمناقيش، وقرؤا القرآن بلغته وقرؤا ما ترجمه به أقوامهم، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد، وتاريخ الأديان ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الاسلام والنبي والقرآن مما أشرنا إلى بعضه آنفا، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية:

﴿ ان محمدا كان سليم الفطرة، كامل العقل، كريم الاخلاق، صادق ﴾
﴿ الحديث، عفيف النفس، قنوعا بالقليل من الرزق، غير طموع بالمال، ولا ﴾
﴿ جنوح إلى الملك، ولم يعن بما كان يُعنى به قومه من الفخر، والمباراة في تحبير ﴾

﴿ الخطب وقرض الشعر ، وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات ﴾
﴿ الوثنية ، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية ، كالخمر والميسر ﴾
﴿ وأكل أموال الناس بالباطل ، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد ﴾
﴿ النبوة جزموا بأنه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من ﴾
﴿ رؤية ملك الوحي ، واقرائه إياه هذا القرآن ، وإنبائه بأنه رسول من الله ﴾
﴿ لهداية قومه فسائر الناس ﴾

وزادهم ثقة بصدقه أن كان أول الناس إيمانًا به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره ، وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة ، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبدا له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حرا ، ثم أن كان الذين آمنوا به من أعظم العرب حرية واستقلالا في الرأي ولا سيما أبي بكر وعمر [١]

فأما المؤمنون بالله وملائكته وبأن للبشر أرواحا خالدة من هؤلاء الافرنج فقد آمنوا بنبوة محمد ﷺ على علم وبرهان ، وهم يزيدون عاما بعد عام ، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالاسلام ،

وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التي لا ريب في صحتها وثبوتها ، وتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل ، الذي لا يؤمن صاحبه بما وراء المادة أو الطبيعة من عالم الغيب

قدحوا زناد الفكر ، واستوروا به نظريات الفاسفة ، فلاح لهم منه سقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجملها الاستاذ مونتيه في عبارته التي نقلناها عنه آنفًا ، وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشرحه هنا (في الفصل الثالث من هذا الكتاب)

---

(١) سننقل طائفة من شهادات العلماء الاحرار في ملحقات الكتاب

الفصل الثالث

﴿ في شبهة منكرى عالم الغيب على الوحي الالهي ﴾

(وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ بما يسمونه الوحي النفسي)

خلاصة رأي هؤلاء الماديين ان الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى اليه لا من الخارج ، ذلك ان منازع نفسه العالية ، وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية رديئة، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والاحوال الروحية ، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهيا نازلا عليه من السماء بدون وساطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد انه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك ، وانما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة ، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الانبياء ، فكل مايخبر به النبي من كلام ألقي في روعه ، أو عن ملك ألقاه على سمعه، فهو خبر صادق عنده

يقول هؤلاء الماديون : نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع، وانما نقول ان منبع ذلك من نفسه ، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي يقال إنه وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس ، فان هذا (الغيب) شيء لم يثبت عندنا وجوده ، كما انه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال ، وانما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت

ويضربون مثلا لهـذا الوحي قصة جان دارك الفتاة الفرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن ، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قد سرت شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلدون

هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها .

وانني أفتتح الكلام في ابطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على (جان دارك) فقد ألقي إلي سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار (سنة ١٣٢١) وهذا نصه :

﴿ شبهة على الوحي ﴾

حضرة الاستاذ الرشيد

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت إلى رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ـ حيث وقع اختياري عليها - وقرأت في بابي (حاجة البشر الى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيها معقولا ، غير ان الحاجة الى الشيء لا تستلزم وقوعه ، وكذا امكانه وعدم استحالته عقلا لا يقتضي حصوله . ثم ماذكر بعد من ان حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه بجلائل الاعمال وبوقوع الخير للناس على يديه وهو دليل نبوته وتأييد بعثته، فليس شيئا ، فانه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته ، صادقا في دعوته، — أعني معتقدا في نفسه - سببا في نهوض أمته ، ولا يكون كل ذلك مدعاة الى الاعتقاد به والتسليم له

وقد حدث بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي إذ كانت مقهورة للانكليز ان بنتا تدعى (جان دارك) من أجمل النساء سيرة وأسلمهن نية ، اعتقدت وهي في بيت أهلها بعيدة عن التكاليف السياسية، انها مرسلة من عند الله لانقاذ وطنها ودفع العدو عنه ، وصارت تسمع صوت الوحي ، فأخلصت في الدعوة للقتال ، وتوصلت بصدق إرادتها الى رياسة جيش صغير وغلبت به العدو فعلا ، ثم ماتت غب نصرتها ميتة الابطال من الرجال : إذ خذلها قومها ، ووقعت في يد عدوها ، فألقوها في النار حية . فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اسما يعبق نشره وتضوع

بزياه . وهي الآن موضع اجلال القوم واعظامهم،فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرقي بعيدا !

فهل نجزم لذلك ان تلك البنت نبية مرسلة ؟؟ ربما تذهبون الى ان عملها لايذكر مقارنا بما أتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم ، فأقول هل هناك من ميزان نزن به الاعمال النافعة لنعلم ان كانت وصلت الى الدرجة التي يجب معها أن نصدق دعوة صاحبها ، وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلا على ان يكون أكبر الناس فعلا، وأبقاهم أثرا، واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك الى التيقن من رسالته ؟

أظن ان هذا كله مضافا لغيره يدعو الى الترجيح ولا يستلزم اليقين أبدا. على انني أنتظر ان تجدوا في قولي هذا خطأ تقنعوني به أو تزيدوني ايضاحا ينكشف به الحجاب ، وتنالون به الثواب . هذا واني أعلم من فئة مسلمة ماأعلمه من نفسي،ولكنهم يتحفظون في الكتمان،ويسألون الكتب خشية سؤال الانسان، ولكنني لا أجد في السؤال عارا ، وكل عقل يخطيء ويصيب ، ويزل ويستقيم

(أحد قرائكم)

﴿ جواب المنار ﴾

لقد سرنا من السائل انه على تمكن الشبهة من نفسه لم يذعن لها تمام الاذعان، فيسترسل في تعدي حدود الدين الى فضاء الاهواء والشبهات التي تفسد الارواح والاجسام ، بل أطاع شعور الدين الفطري ، ولجأ الى البحث في الكتب ، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم بما يكشف الشبهة ، ويقيم الحجة ، وان كثيرا من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند أول قزعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم، لأنهم شبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة ، ويرون الدين صاداً لهم عن الانهماك والاسترسال فيها،فهم يحاولون اماتة شعوره الفطري ، كما أمات النشوء في الجهل برهانه الكسبي

أرى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر في المقاصد والنتائج ، لذلك نراه مسلما المقدمات دون النتيجة مع التلزوم بينهما ، فاذا هو عاد الى مبحث (حاجة البشر الى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله ، وانه أقام الكون على أساس الحكمة البالغة والنظام الكامل، فانني أرجو له أن يقتنع . ثم انني آنست منه انه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) أو لعله قرأه ولم يتدبره ، فانه لم يذكر البرهان على نفس الرسالة ويبني الشبهة عليه ، وانما بناها على جزء من أجزاء المقدمات ، وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام . وانني أكشف له شبهته أولا فأبين أنها لم تصب موضعها، ثم أعود الى رأيي في الموضوع

ان (جان دارك) التي اشتبه عليه أمرها بوحي الانبياء لم تقم بدعوة الى دين او مذهب تدعي ان فيه سعادة البشر في الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين ، ولم تأت بآية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها . وانما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين، وحركته مزعجات السياسة، فتحرك ، فنفر ، فصادف مساعدة من الحكومة ، واستعداداً من الامة للخروج من الذل الذي كانت فيه ، وكان التحمس الذي حركته سببا للحملة الصادقة على العدو وخذلانه . وما أسهل تهييج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات وبما هو أضعف منها ، فان نابليون الاول كان يسوقهم الى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته المشهورة عند الاهرام

وأذكر السائل الفطن بانه لم يوافق الصواب في ابعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف العربية (للبستاني) ما نصه :

« كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعي المواشي وركوب الخيل الى العين

ومنها الى البيت ، وكان الناس في جوار دومري (اي بلدها) متمسكين بالخرافات ويميلون الى حزب أورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا ، وكانت جان تشترك في الهياج السياسي والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخيل والورع، تحب ان تتأمل في قصص العذراء وعلى الأكثر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت ، وهي ان إحدى العذارى ستخلص فرنسا من اعدائها . ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعة وتتكلم عن أصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها ، ثم بعد ذلك ببضع سنين خيل لها انها قد دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها . ثم أوقع البرغنيور تعديا على القرية التي ولدت فيها، فقوّى ذلك اعتقادها بصحة ماخيل لها »

ثم ذكر بعد ذلك توسلها الى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها، وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون علي عسكر الانكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان ، وانها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة أسبوع، وذلك سنة ١٤٢٩ ثم ذكر انها بعد ذلك زالت أخيلتها الحماسية ، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأسرت

فمن ملخص القصة يعلم ان ما كان منها انما هو تهيج عصبي سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها من نشأت بينهم، مع معونة التحمس الديني والاعتقاد بالخرافات الدينية التي كانت ذائعة فى زمنها. وهذا شيء عادي معروف السبب، وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر كمحمد احمد السوداني، والباب الايراني (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها ابعد من الشبهة في قصة هذين الرجلين ، وإن كانت أسباب النهضة متقاربة، فان هذين كانا كأمثالهما يدعوان الى شيء (ملفق) يزعمان انه اصلاح للبشر في الجملة

أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن ، المعروفة السبب ، التي لادعوة فيها

الى علم ولا اصلاح اجتماعي، الا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الانسان والحيوان الاعجم ، التي لاحجة تدعمها ، ولا معجزة تؤيدها ،التي اشتعلت بنفخة، وطفئت بنفخة ؟ أين هي من دعوة الانبياء التي بين الاستاذ الامام أنها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشري،طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فسار الانسان بذلك الى كماله ، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى؟ وأين دليلها من أدلة النبوة؟ وأين أثرها من أثر النبوة ؟

ان الامم التي ارتقت بما أرشدها اليه تعليم الوحي انما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وان فرنسة لم ترتق بارشاد (جان دارك) وتعليمها ، وانما مثلها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته، وبأسباب أخرى ليست من صنعه ، واستولت أمته بسبب ذلك على بلاد رقتها بعلوم علمائها ، وحكمة حكمائها ، وصنع صناعها ، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشد اليه ، فلا يقال ان ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد ، وعمرها ومدنها ، وإن عد سبباً بعيداً فهو شبيه بالسبب الطبيعي ، كهبوب ريح تهيج البحر فيغرق الاسطول وتنتصر الامة

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (اي ظهرت وأومضت) ثم خفيت ، وصيحة علت ولم تلبث ان خفتت ، من حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت فأنارت الارجاء ، ولا يزال نورها ولن يزال متألق السناء : أمي يتيم قضى سن الصبا وسن الشباب هادئا ساكنا لايعرف عنه علم ولا تخيل،ولا وهم ديني ، ولا شعر ولا خطابة ، ثم صاح على رأس الاربعين بالعالم كله صيحة : انكم على ضلال مبين * فاتبعون أهدكم الصراط المستقيم . فأصلح وهو الامي أديان البشر عقائدها وآدابها وشرائعها ، وقلب نظام الارض فدخلت بتعليمه في طور جديد ؟

لا جرم ان الفرق بين الحالين عظيم ، اذا أنعم النظر فيه العاقل الحكيم .
ولا سعة في جواب سؤال كهذا لتقرير الدليل على النبوة بالتفصيل، وانما أحيل السائل على التأمل في بقية بحث النبوة فى رسالة التوحيد ، ومراجعة ما كتبناه أيضاً من الامالي الدينية في المنار، ولاسيما الدرس الذي عنوانه (الآيات البينات ، على صدق النبوات) وان كان يصدق على رسالة التوحيد المثل « كل الصيد في جوف الفرا »(١) فان بقي عنده شبهة فالاولى ان يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية في الموضوع ، فان المشافهة أقوى بيانا ، وأنصع برهانا، ونحن نعاهده على أن نكتم أمره، وإن أبى فليكتب الينا مايظهر له من الشبهة على ما في الرسالة والامالي من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل ، وعند ذلك نسهب في الجواب بما نرجو ان يكون مقنعا، على ان المشافهة أولى كما هو معقول، وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتبهين والمرتابين اه جوابنا في المنار (٢)

هذا وان ما بينه الاستاذ الامام في إثبات وقوع الوحي لا يستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العليم الحكيم الفاعل المختار إلا أن يقبله ويذعن له ، فانه بين أن الوحي والرسالة بالمعنى الذي قرره لازم عقلي لعلمه تعالى وحكمته وكونه هو (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ولا يفهمه حق الفهم إلا من أوتي نصيباً من علم الاجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد ، ونصيباً آخر من بلاغة اللغة العربية . وإن نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن اثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة ، وهوما قهر عقول علماء الافرنج على تصديق دعوته، وحمل الماديين على تصورها بما نبسطه فيما يأتي ونقفي عليه باثبات بطلانه

(١) الفرا بفتح الفاء مقصور اسم لحمار الوحش ، وهو خير مايصاد لكبره وكثرة لحمه وجودته : وأصل المثل ان ثلاثة رجال خرجوا للصيد فاصطاد احدهم أرنبا والآخر ظبيا ، واصطاد الثالث حمار وحش فقال لهما وقد اعجبا بما اصابا « كل الصيد في جوف الفرا » أي كل ما يصاد يصغر دونه كأنه يغيب في جوفه
(٢) الظاهر أن ذلك السائل قد اقتنع بجوابنا إذ لم يكتب لنا بعده شيئا . كذلك الاستاذ الامام رضي به وأعجبه



تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل (أميل درمنغام) الشبهة التي أجملها مونتيه بما لم نر مثله لغيره من كتاب الافرنج، حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين، وإنه لحسنُ الثناء، ولكنه يُسِرّ حَسواً في ارتغاء، فان كان حكيمنا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية: إنكم فصلتم قميصاً من رقاع العهد القديم وألبستموها للمسيح عليه السلام فنحن نقول لهم انكم فصلتم قميصا آخر مما استنبطتم من تاريخ الاسلام لا من نصوصه، وحاولتم خلعها على محمد ﷺ واني أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام وما بلغني عن كل أحد منهم، ثم أكر عليها بالنقض والدحض، وأبدأ بمقدماتها وهي عشر:

(المقدمة الأولى لشبهة الوحي النفسي الأخذ عن بحيرا الراهب)

قالوا ان محمداً قد لقي بحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام، وقالوا انه كان نسطوريا من أتباع آريوس في التوحيد، وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث، وان محمدا لا بد أن يكون علم منه عقيدته، وقالوا في بحيرا أيضا انه كان عالما فلكيا منجما، وحاسباً ساحرا، وانه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنبأه بأن سيكون هاديا لآل اسماعيل إلى الدين المسيحي. بل سمعنا من بعض الرهبان انه كان معلما لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته، وأن محمدا ما حرّم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بحيرا وهو سكران، وأسرفوا في هذا الافتراء والبهتان، وكل ما عرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو ابن تسع سنين وقيل ١٢ سنة رآه هذا الراهب مع قريش ورأى سحابة تظلله من الشمس، وذكر لعمه أنه سيكون له شأن، وحذره عليه من اليهود - وفي المسألة روايات أخرى بعضها ضعيفة الاسانيد، إلا رواية للترمذي ليس فيها اسم بحيرا، وفيها غلط في المتن، وليس في شيء من تلك الروايات انه ﷺ سمع من بحيرا شيئا من عقيدته أو دينه

(المقدمة الثانية الاخذ عن ورقة بن نوفل)

قالوا ان ورقة بن نوفل كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقارب خديجة ـ يوهمون القارىء انه ﷺ أخذ عنه شيئا من علم أهل الكتاب ـ والذي صح من خبر ورقة هذا هو ما رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن خديجة أخذته ﷺ عقب إخباره إياها بما رآه في حراء إلى ورقة هذا وأخبرته خبره، وكان شيخاً قدعمي، ولم يلبث بعد ذلك أن توفي، ولم ينقل أن النبي ﷺ رآه قبل ذلك (وسأذكر نص الحديث في آخر هذا المبحث) وقد استقصى المحدثون والمؤرخون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده ومما لم يصح له سند، كدأبهم في كل ماله علاقة بالنبي ﷺ والاسلام، فلم يذكر أحد منهم أنه عرف عنه دعوة إلى النصرانية أو كتابة فيها . وإنما ورد في بعضها أنه قال حين علم من خديجة خبر محمد : انه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم، وفي بعضها أنه عاش حتى رأى بلالا يعذبه المشركون ليرجع عن الاسلام، ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة لحديث عائشة الصحيح انه كان عند بدء الوحي أعمى ولم ينشب أي لم يلبث أن مات ، وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها ، وكان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين ـ وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط الروايات عليه فيها، وعدم اطلاعه على مادوّن في كتب الحديث منها . وإنما كان همّ المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا أكان صحابياً أم لا ، فان الصحابي هو من لقي النبي ﷺ بعد البعثة مؤمناً به ، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الانجيل غير ما ذكروه لنقلوه

(المقدمة الثالثة انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب)

ذكروا ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الاسلام، ومن تنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم كقسّ بن ساعدة الإيادي وأمية

ابن ابي الصلت ، واشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الانبياء . وقد نشرنا بعض بشاراتهم من التوراة والاناجيل وكتب النبوات بنصوصها المعتمدة عندهم في تفسير (٧ : ١٥٧ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) من سورة الاعراف، ولكن لم يثبت انه ﷺ سمع منها شيئا

فأما قس فقد مات قبل البعثة . وروي ان النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمن طويل يخطب الناس في سوق عكاظ على جمل له اورق ، بكلام له مونق ، قال فيه: ان لله دينا خيراً من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيا قد أظلكم زمانه، وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه . والروايات في هذا ضعيفة . وتعددها قد يدل على ان لها أصلا، ولو حفظ من كلامه شيء بسند صحيح لبينوه قطعاً

وأما أمية بن ابي الصلت الثقفي فهو شاعر مشهور . قال ابو عبيدة اتفقت العرب على ان أمية أشعر ثقيف، وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قال: كان أمية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً، وكان يذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر وتجنب الاوثان وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب ان نبيا يبعث بالحجاز فرجا ان يكون هو ، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يسلم . وهو الذي رثى قتلى بدر (المشركين) بالقصيدة التي أولها

ماذا ببدر والعقنـ قل من مرازبة جحاجح

وفي المرآة عن ابن هشام انه كان آمن بالنبي ﷺ فقدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر فعلم بغزوة بدر وقتل صناديد قريش فيها فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى لان فيهم ابني خاله وعاد الى الطائف ومات فيها . وصح ان النبي ﷺ استنشد الشريد بن عمرو من شعره فأنشده فقال « كاد ان يسلم » والمعروف انه كان حنيفاً على ملة ابراهيم ولم يتنصر، ولم يلق النبي ﷺ قبل النبوة ولا بعدها . ومن شعره

كل دين يوم القيامة عند الا ـه الا دين الحنيفة زور

(المقدمة الرابعة حديث اسلام سلمان الفارسى)

كان سلمان الفارسي (ر ض) فارسيا مجوسيا فتنصر على يد بعض الرهبان وصحب غير واحد من عبادهم وسمع منهم أو من آخرهم بقرب ظهور النبي الذي بشر به عيسى والانبياء من العرب، فقصد بلاد العرب وبيع لبعض يهود يثرب ظلما وعدوانا ، ولم ير النبي ﷺ الا بعد الهجرة فأسلم وكاتب سيده (اي اشترى نفسه منه) وفي قصته روايات متعارضة وهذا هو المراد منها لدرمنغام وغيره

(المقدمة الخامسة رحلة الشتاء والصيف لتجار قريش)

ذكروا ما كان من رحلة تجار قريش في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منهما كلما مروا بدير أو صومعة للرهبان، وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب

(المقدمة السادسة ماقيل من وجود يهود ونصارى بمكة)

زعم درمنغام انه كان بمكة نفسها اناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخدما لأن رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم . بل كان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة «في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء» وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لاتصل إلى مسامع رؤساء قريش وعظمائهم، أوما كانوا يحفلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة . ولكنه ذكر ان أبا سفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر

فهذه مقدمات يذكرها كتاب الافرنج لتعليل ماظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة، يعنون انه سمع ماسمع من أخبارها فتعلقت نفسه به، على طريقتهم في الاستنباط وما يسمونه النقد التحليلي، ويقرنون بها مقدمات أخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفاده منها من تأثير وعبرة ، فنلخصها مضمومة إلى ماقبلها، مع الالمام بنقدها

(المقدمة السابعة ما زعمه من سبب نشوء محمد (ص) أمياً وما استفاد من رحلاته التجارية)

قال درمنغام في كفالة ابي طالب لمحمد بعد وفاة جده : انه لم يكن غنياً فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أميا طول حياته (يوهم القاريء ان أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون كأن هنالك مدارس يعلم فيها النشء بالاجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لا أصل له) — ثم قال

« ولكنه كان يستصحبه وإياه في للتجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الابعاد المتنائية، وتحدق عيناه الجميلتان بمدين ووادي القرى وديار ثمود، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبئها . ويقال انه في إحدى هذه الرحلات إلى الشام التقى بالراهب بحيرا في جوار مدينة بُصرى، وان الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه. وفي الشام عرف محمد أحبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناوأة الفرس من عباد النار لهم، وانتظار الوقيعة بهم »

كل ما ذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله ، ومبتدعات رأيه ، ألبسه حلة من طراز البيان الافرنسي ، إلا مسألة بحيرا الراهب فأصلها ما ذكرنا ، وكأنه لم يحفل باثباتها ، لما يعلمه من مفتريات رجال الكنيسة فيها

فمحمد صلى الله عليه وسلم لم يذهب مع عمه إلى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم، وقد أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته . ثم سافر اليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة، ولم يتجاوز سوق مدينة بصرى في المرتين . والقوافل التي تذهب إلى الشام لم تكن تمر بمدين وهي في أرض سيناء . ولم تكن هذه القوافل تضيع شيئا من وقتها للبحث مع العرب أو الاعراب في طريقها عن أنبائها والتاريخ القديم لبلادها، ولم يعرف عن تجارها أنهم كانوا يعنون بلقاء أحبار النصارى ومباحثتهم في دينهم

وكتبهم ، فمن أين جاء لدرمنغام أن محمداً هو الذي كان يشتغل في تلك التجارة بالبحث عن الامم والتواريخ والكتب والاديان . ويعنى بلقاء رؤسائها والبحث معهم ؟ كما يفعل رواد العلم والتاريخ وجواسيس السياسة من الافرنج في هذا العصر انما اخترع هذا لأنه لا يستطيع تعليل ماجاء في القرآن من قصص الرسل إلا به ، وكذلك الإنباء بغلب الروم للفرس كما سيأتي . وسترى ما نفند به تعليله ، وتحليله وتركيبه ، على تقدير صحة مازعمه كله

(المقدمة الثامنة تصوير مجامع قريش بمكة وشأن محمد فيها)

ثم ذكر درمنغام أن العرب ولا سيما أهل مكة كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعد مايكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع باللذات من السكر والتسري وغير ذلك ، وان التاريخ يشهد بأن محمداً كان يراهم ولم يكن يشاركهم في ذلك، لا لفقره وضيق ذات يده ، بل لما صوره بقوله « لكن نفس محمد كانت شغوفا بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف، وكأن حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقا وبها تعلقا ، كما أن النفس العظيمة التي تجلت من بعد آثارها، وما زال يغمر العالم سلطانها ، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح اليه أهل مكة. إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق اليها لاستكناه ماتدل هذه المظاهر عليه، وما تحدث الموهوبين به » لعله يريد الملهمين

هذا الخبر من مخترعات خيال درمنغام فمحمد لم يكن شغوفا بأن يرى ما يفعله فساق قومه من فسق وفجور، ولا أن يسمع ذلك، ولا كان يتحرى أن يعرفه، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت الشمس فلم ير ولم يسمع شيئا ، وقد بطل بهذا ما علل به الخبر على ما فيه من المدح المتضمن لدسيستين (إحداهما) أن أنداده من قريش كانوا متعلمين وكان هو محروما مما لقنهم آباؤهم من العلم، وكان حرمانه هذا يزيده شغفا بالبحث والاستطلاع

(والثانية) أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحا إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ماتدل عليه هذه المظاهر،فهذه مدحة غرضه منها تعليل ما انبثق في نفسه ﷺ بعد ذلك من الوحي ، وسترى بطلان تعليله

(المقدمة التاسعة موت أبناء محمد وما اثاره في نفسه)

ثم ذكر درمنغام مسألة أبناء النبي ﷺ القاسم والطيب والطاهر وهو يشك في وجودهم، ويقول إن تكنيته بأبي القاسم لاتدل على وجود ولدله بهذا الاسم، وإنه إن صح أنهم ولدوا فقد ماتوا في المهد. هذا زعم ووهم، والحق أنه ولد له غلام سماه القاسم وكني به وأنه مات طفلا ، وقيل عاش إلى أن ركب الدابة ، وأن الطيب والطاهر لقبان للقاسم . ولكن درمنغام قد كبر مسألة موت هؤلاء الاولاد الذين يشك في وجودهم تكبيرا ، وبنى عليها حكما،وأثار وهما ،قال بعد أن زعم ان محمداً تبنى زيد بن حارثة لأنه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً :

« فمن حق المؤرخ أن يجعل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ماهي جديرة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر،والامر كذلك بنوع خاص ان كان محمد أميا ، فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثر بعبر الحوادث ودروسها ، وحوادث أليمة كوفاة أبنائه جديرة بأن تستوقف تفكيره، وأن تصرفه كل واحدة منها الى ما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة، وتنحر لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، تريد أن تفتدي نفسها من ألم الثكل ، فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور »

قال « والامر كان كذلك،لاريب أن كانت عبادة الاصنام قد بدأت تتزعزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدرة اليها من الروم،ومن اليمن متخطية إليها من خليج العرب (البحر الاحمر) من بلاد الحبشة »

غرض درمنغام من تكبير المصيبة بموت الابناء المشكوك في ولادتهم عنده، هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة إلى الاصنام بالقرابين لينقذوها من مصيبة الثكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة إيمانها وإيمان بعلها بعبادتها التي كان سببها تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الاسباب التحليلية لتعليل الوحي لمحمد ﷺ

والحق أنه ماتبنى زيداً إلا لأنه آثر أن يكون عبداً له على أن يكون حراً مع والده وعمه عند ماجاءا مكة لافتدائه بالمال فقال لهما « ادعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكم بغير فداء » ثم دعاه فسأله عن أبيه وعمه فعرفهما، فقال له «فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما »، فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحداً . أنت مني بمكان الاب والعم. فقالا ويحك يازيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحداً . فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال « اشهدوا ان زيداً ابني يرثني وأرثه » فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما . فدعي زيد: ابن محمد: حتى جاء الله بالاسلام رواه ابن سعد ونحوه في سيرة ابن اسحاق

هذا وان محمداً لم يكن جزوعا عند موت ولده ولا غيره ، بل كان أصبر الصابرين ، وان خديجة لم تيأس بموت القاسم من الله أن يمن عليها بولد آخر، ولم تنحر للاصنام شيئا — وان اللات كانت صخرة في الطائف تعبدها ثقيف ولم تكن من أصنام قريش ، والعزى كانت شجرة ببطن نخلة تعبدها قريش وكنانة وغطفان ، ومناة كانت صنما في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة . وقد كان ماذكره من ضعف الوثنية في ذلك العهد — وزعم ان سببه انتشار النصرانية — جديراً بأن يمنع خديجة وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم الى الحنيفية ملة ابراهيم أن تهاجر إلى هذه الاصنام لتنحر لها وتتقرب إليها لترزقها غلاما ،

فان لم يمنعها عقلها وفطرتها فأجدر ببعلها المصطفى أن يمنعها من ذلك وهو عدو الوثنية والاصنام من طفولته كما يعترف درمنغام — ولكن اتباع الهوى ينسي صاحبه مالم يكن لينساه لولاه

(المقدمة العاشرة ضعف الوثنية في العرب وتعبد محمد في الغار)
(وسببهما بزعم درمنغام)

زعم درمنغام ان ما ذكره من تغلغل النصرانية في بلاد العرب أوجد فيها حالة نفسية أدت إلى زيادة إمعانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث أو التحنف ، وزعمه هذا له أصل ولكنه زاد فيه وكبره وفرّع عليه قوله :

«وكان محمد يجد في التحنث طمأنينة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف ، وأن كان يجد فيها الوسيلة إلى ما برح شوقه يشتد اليه من نشدان المعرفة واستلهام مافي الكون من أسبابها ، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل اليه ليمضي أياما طويلة بالغار في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة »

وأقول : ان روايات المحدثين تفيد أنه حبب اليه الخلاء والوحدة والتحنث في غار حراء في العام الذي جاءه فيه الوحي ، وكان هو يحمل الزاد وما كان أحد يحمله اليه ، وما ذكره ابن اسحاق من تعبده فيه في شهر رمضان كل سنة انما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي ولم يكن في أعوام ولا شهور قبله ، وأما قوله انه كان يتوسل بذلك الى ما اشتد في شوقه اليه من المعرفة وابتغاء الالهام مما في الكون من أسبابها ، فهو مما يخطر في بال الباحث في حياة رجل صدر عنه عقب هذه الخلوة ما صدر من علم ومعرفة واصلاح ، وارشاد الى النظر والتفكر في آيات السموات والأرض ، ولكن لم يرو عنه ﷺ أنه كان يقصد ذلك ويبتغيه ، ولا روي عن أصحابه وأترابه ، الذين كانوا يعرفون سيرته الطاهرة وآمنوا به كأبي بكر وعثمان ، وعميه حمزة والعباس ، ولا عن ربيبه وصفيه وابن عمه علي ، ولا حِبه ومولاه زيد ابن ثابت (رضي الله عنهم) والتحقيق في ذلك كله ما تراه في المباحث الآتية



نتيجة

تلك المقدمات العشر

ههنا وصل درمنغام إلى آخر المقدمات التي تتصل بالنتيجة المطلوبة له ، فأرخى لخياله العنان ، ونزع من جواده اللجام ، ونخسه بالمهماز ، فعدا به سبحا ، وجمح به جمحا ، وأَوْرَتْ حوافره له قدحا ، فأثارت له نقعاء، وأذن لشاعريته الفرنسية في بريق لمعها ، وظلمة نقعها ، أن تصف محمداً عند ذلك الغار ، بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل وما تسفعه به شمس النهار ، وما تخيل اليه انه كان يراه في قنة الجبل من صحاري وقفار، وخيام وآبار، وما ثم خيام ولا آبار، ورعاة تهش على غنمها حيث لا أشجار، حتى ذكر البحار على بعد البحار، وسيذكر موج البحر أيضاً، ونسي ان يصف الفلك المواخر فيه، وما يعرض لها في حالة الرهو والريح الطيبة، وحالة العواصف والامواج المصطخبة ، فكل منهما ذكر في القرآن، ولم يكن رآه محمد من جبل حراء. قد أتقن هذا الفرنسي التخيل الشعري ، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضعي ، ثم قال مصوراً لما يبتغيه محمد ﷺ من مشاهداته المزعومة

« وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب الانسان أنه يسمع بصيص ضوئها وكأنه نغم نار موقدة

«حقا ! ان في السماء لشارات للمدركين. وفي العالم غيب بل العالم غيب كله. لكن ! ألا يكفي أن يفتح الانسان عينيه ليرى،وأن يرهف أذنه ليسمع ؟ليرى حقا ، وليسمع الكلام الخالد ؟ لكن للناس عيونا لا ترى وآذانا لا تسمع . أما هو فيحسب(!!) أنه يسمع ويرى. وهل تحتاج لكي تسمع ماوراء السماء من أصوات إلا إلى قلب خالص ونفس مخلصة وفؤاد مُليء إيمانا ؟

« ومحمد في ريب من حكمة الناس فهو لا يريد أن يعرف إلا الحق الخالص ، الذي لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل ، وهو لا يستطيع العيش إلا بالحق ، والحق ليس فيما يرى حوله ، فحياة القرشيين ليست حقا ، وربا المرابين ونهب البدو ولهو الخلعاء وكل ما إلى ذلك لا شيء من الحق فيه ، والاصنام المحيطة بالكعبة ليست حقا ، وهُبَل الاله الطويل الذقن الكثير العطور والملابس ليس إلها حقا

« إذن فأين الحق وما هوه ؟ »

« وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متوالية ، وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه ، وينسى طعامه ، وينسى كل ما في الحياة ، لان هذا الذي يرى في الحياة ليس حقا . وهناك كان يقلب في صحف ذهنه كل ما وعى (!) فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازوراراً ، وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الأحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد ، بل في هذا الكون المحيط به في السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفي الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء وساعات صفوها البديع ، إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي ، وفي البحر وموجه (!) وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود — في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها ، كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شغاف الحجب إلى مكنون سره

(قال درمنغام) : فلما كانت سنة ٦١٠ أو نحوها كانت الحال النفسية التي يعانيها محمد على أشدها ، فقد أبهظت عاتقه العقيدة بأن أمراً جوهريا ينقصه وينقص قومه ، وان الناس نسوا هذا الامر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته ، وخشي الناس الجن والاشباح والبوارح ، وأهملوا الحقيقة العليا ، ولعلهم

لم ينكروها ، ولكنهم نسوها نسيانا هو موت الروح . وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة ، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها ، ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد

ولقد عرف ان المسيحيين في الشام ومكة لهم دين أوحي به(!) وان أقواما غيرهم نزلت عليهم كلمة الله، وأنهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من أنبياء أوحي اليهم به ، وكلما ضل الناس بعثت السماء اليهم نبيا يهديهم إلى الصراط المستقيم ويذكرهم بالحقيقة الخالدة . وهذا الدين الذي جاء به الانبياء في كل الازمان دين واحد، وكلما أفسده الناس جاءهم رسول من السماء يقوّم عوجهم . وقد كان الشعب العربي يومئذ في أشد تيهاء الضلال . أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم الى الحق ؟ »

« وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقا ، وجعل يقضي الاسابيع ومعه قليل من الزاد ، وروحه تزداد بالصوم والسهر والادمان على تقليب فكرته صقالا وحدة . ونسي النهار والليل ، والحلم واليقظة، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثيا في الغار، أو مستلقيا في الشمس، أو سائراً بخطوات واسعة في طرق الصحراء الحجرية ، وكأنه يسمع الاصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته (!)

« وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره ، فأسرّ بمخاوفه إلى خديجة فطمأنته وجعلت تحدثه بأنه الامين ، وان الجن لا يمكن أن تقترب منه . وفيما هو يوما نائم بالغار جاءه ملك فقال له اقرأ، قال « ما أنا بقارىء » وكان هذا أول الوحي وأول النبوة

« وهنا تبدأ حياة حدة روحية قوية غاية القوة، حياة تأخذ بالابصار والالباب، ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والانسانية » اه

أقول : ان كل ما هنا من خبر أو جله غير صحيح ، ولو صحت لكان ما استنبطه منها مما يخطر بالبال ، ولكن الوحي المحمدي فوق كل استنباط وكل احتمال ، فمن أين علم هذا الافرنسي أن محمداً نسي الليل والنهار ، والحلم واليقظة ، وأنه كان يقضي الساعات الطوال جاثيا في الغار أو مستلقيا في الشمس الخ ، وانه قضى ستة أشهر في هذه الحال ؟ قد افترى في الاخبار [1] ليستنبط منها انه صار صلوات الله عليه مغلوبا على عقله ، غائبا عن حسه غارقا في بحر لجي من خياله ، أثمر له انبثاق ذلك الوحي العالي من نفسه ، وتجليه لبصره وسمعه ، واتي ابدأ الرد عليه وعلى أمثاله بنقل أصح الروايات في خبر تحنثه في الغار الليالي ذوات العدد - من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها - لتفنيد أخيلته وشعرياته وابطال نتيجة مقدماته ، وللاستغناء بها عما نقله من الخلط في صفة الوحي من الفصل الذي بعد هذا من كتابه . ذلك ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما . وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه في كتابه الجامع الصحيح :

---

(١) أي افترى في اثنائها ماليس له اصل من روايات السيرة، ولم يفترها كلها ، كما انه لم يعرف الصحيح من الضعيف فيها ، وفسرها بما وافق رأيه في سبب ذلك الوحي العظيم الذي يعترف بعظمته وحكمته

باب

كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

(افتتح الحافظ البخاري هذا الباب بل الكتاب كله بروايته لحديث « انما الاعمال بالنيات » ثم قال : —)

حدثنا عبدالله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس (٢) وهو أشده علي فيفصم (٣) عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك

---

(١) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الاعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة منها الرؤيا الصادقة والنفث في الروع والالهام و إلقاء الملك ، وله معنى خاص هو احد الاقسام الثلاثة للتكليم الالهي الوارد في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء إنه علي حكيم) وهذا الحديث فيه وصف القسم الأول وذكر الثالث، وأما الثاني وهو الكلام الالهي من وراء حجاب بدون وساطة فقد ثبت للنبى (ص) في ليلة الاسراء والمعراج ولموسى عليه الصلاة والسلام . وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله تعالى التشريعي، والرؤيا الصادقة والالهام مما وقع و يقع لغير الانبياء

(٢) المراد من التشبيه أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتداركة التي تسمع من الجلاجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف والأقرب أن سببه وجود الملائكة و إن لم ير أحدا منهم في حال سماعه . وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه لانها كما قال الحكيم ابن خلدون انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية والحالة الاخرى عكسها لانها انتقال الملك من الروحانية المحضة الى البشرية الجسمانية.

(٣) يفصم وزان يضرب ينفك و ينجلي

رجلا (١) فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها ، ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا (٢)

حدثنا يحي بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين انها قالت : أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم (٣) فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (٤) - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى

---

(١) أي يظهر بصفة رجل ومثاله ، وذلك أن الملك روح عاقل مريد له قوة التصرف في المادة فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريدها. وانعلم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصرف بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة ومابينهما بقوة الحرارة وأقواها حرارة الكهربائية ، والملك يتصرف في الكهربائية كما يشاء ، وقدشرحنا هذا المعني في تفسير قوله تعالى (٧: ١٤٣ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) — راجع ص ١٦٢ — ١٦٧ ج ٩ تفسير

(٢) كان من هذه الشدة عليه ماقاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد : حتي ان راحلته لتبرك به الى الارض اذا كان راكبها ولقد جاء مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتي كادت ترضها اه

(٣) أكثر الرؤى أضغاث أحلام لها أسباب تثيرها في خيال النائم والرؤيا الصالحة نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لادراكها بما يكون وقت النوم من صفائها بعد اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والافكار ، ورؤيا الانبياء قبل وحي التشريع تمهيد وتأنيس للنفس تقوي استعدادها لتلقى الكلام الالهي

(٤) أصل التحنث اتقاء الحنث أي الذنب أو مقلوب التحنف وهو اتباع الحنيفية ملة ابراهيم . وهو رواية ابن هشام . وقوله وهو التعبد، جملة تفسيرية لراوي الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهومدرج في الحديث والليالي ظرف متعلق بيتحنث

جاءه الحق(١) وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال ما أنا بقارىء (٢) قال فأخذني فغطني (٣) حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * خَلَقَ الانسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكرَم).(٤) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه

---

(١) وفي رواية فجئه الحق أي بغته والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام الله تعالى، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة، وفي سيرة ابن هشام أن جبريل جاءه في المنام، وهي من مراسيل عمر بن عبيد وهو ثقة وله صحبة ولكن رواية الصحيحين المسندة هي المعتمدة، وجمع بعضهم بين الروايتين بأنه رآه أولا في المنام فاستقرأه ثم رآه في اليقظة، ولو وقع هذا في المنام لزال خوفه ورعبه ﴿ص﴾ بعد اليقظة ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده

(٢) الظاهر أن الامر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف - أي كن قارئا، ولذلك قال له في الثالثة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي كن قارئا باسمه ومن قبله وباقداره اياك على القراءة، لا بحولك وقوتك، فهو يعلم أنك أمي لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة، أما وقد شاء ربك - الذي خلق، خلق الانسان من علق، وهو الحيوان المنوي أو أول ما تتحول اليه نطفة الزوجين بعد العلوق، فجعله بشراً سويا يسمع ويبصر ويعقل - شاء أن يجعلك قارئا لما يوحيه اليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئا

﴿٣﴾ فسروا الغط بالضم الشديد الضاغط فقالوا أي ضمني وعصرني، وفي رواية الطبري للحديث فغتني بالمثناة الفوقية وعليها ابن هشام وهي بمعنى غطني واصل معناها الغمس في الماء وضيق النفس وحكمة هذا الغط تقوية روحانية النبي (ص) حتى يقوى على الاتصال بالملك والفهم منه

(٤) اختصره هنا وزاد في التفسير (الذي علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم)

الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر «لقد خشيت على نفسي»(١) فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً (٢) إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب

(١) اختلف العلماء في خوفه (ص) على نفسه فقيل خشي الجنون وان يكون ما رآه من الجن، وقد أنكره ورده القاضي أبو بكر بن العربي ووافقه الحافظ ابن حجر ولكن الحافظ قال انه روي من عدة طرق (أقول) وهو الظاهر مما أجابته به خديجة. واستشكل بان الوحي يكون مقترنا بعلم قطعي بأنه من الله وان الملقن له من الملائكة، وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف الملك له واعلامه إياه بذلك عند تلقينه الامر بالتبليغ، وانما كان ظهور الملك له هذه المرة لاجل الايناس والاعداد لتلقي وحي الاحكام، والامر فيه بالقراءة للتكوين لا للتكليف، والا كان من تكليف مالا يطاق. وقيل انه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب، وثم اقوال اخرى متكلفة. وهو على كل حال يدل على أنه (ص) لم يفهم من هذه الرؤية أنه صار نبيا، ولا أن الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام، ويؤيد ذلك مسألة ورقة

(٢) الخزي اسم معناه الذل والهوان وأخزاه أذله وأهانه. والكل (بفتح العين) المتعب ومن هو عالة على غيره، وحمله إعطاؤه راحلة يركبها او حمل اثقاله، وتكسب بفتح التاء، وضمها لغة ورواية، والمعدوم المفقود (قيل) ولا يظهر معناه هنا الا بتكلف وقال الخطابي الصواب المعدم وهو الفقير الفاقد لما يكفيه اه ولكن الرواية المعدوم، وهو وصف لمحذوف، وتكسب الثلاثي من الكسب يتعدى بنفسه إلى مفعولين، حذف أولها والمعنى وتجعل المحتاج العاجز عن الكسب كاسبا للشيء المعدوم الذي يفقده ببذله له أو بمساعدته على كسبه، والاعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل اعمال البر والنجدة والمروءة فيما عدا الباطل. وما رغب خديجة في التزوج به (ص) الا هذه الفضائل التي أحاطت بها خبرا بمعاشرته الزوجية، ولذلك عد بعض علماء الافرنج إيمانها به اصح شهادة له

من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب (١) وكان شيخا كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة ياابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة ياابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس (٢) الذي نزل الله على موسى ، ليتني فيها جذعا (٣) ، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ أومخرجي هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب (٤)

(١) وفي رواية البخاري في كتاب التفسير من صحيحه : يكتب من الانجيل بالعربية ، وفي معناها رواية مسلم فكان يكتب الكتاب العربي . ولا تنافي بين الروايات اذ كان يعرف اللغتين . وورقة ابن عم خديجة ، واما قولها له اسمع عن ابن اخيك فهو من باب التوقير لسنه واستعطاف الرحم ، وكذا قوله للنبي (ص) يا ابن أخي

(٢) الناموس في اللغة صاحب السر والمراد به امين الوحي جبريل وقوله نزل على موسى ولم يقل وعيسى لان الشبه بين الوحي الى موسى ومحمد عليهما السلام أتم لأن كلا منهما اوتي شريعة تامة مستقلة في عباداتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية ، وعيسى عليه السلام كان تابعا لشريعة التوراة وناسخا لبعض الاحكام التي يقتضيها الاصلاح ، ومبشرا بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وفي بعض الروايات الضعيفة ان ورقة قال « ناموس عيسى » وفي رواية أخرى حسنة الاسناد في دلائل النبوة لابي نعيم ان خديجة جاءت ورقة وحدها أولا فذكرت له الخبر فقال لها: لئن كنت صدقتني انه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو اسرائيل ابناءهم اه والناموس واحد على كل حال . ولكن رواية الصحيحين « فانطلقت به » تدل على التعقيب اى انها ذهبت به عقب تحديثها بما رأى وعليها المعول

(٣) قوله : ليتني كنت جذعا : الجذع بفتحتين خلاف المسن من البهائم واشتهرت استعارته للشاب من الناس . والاخراج النفي من الوطن

(٤) لم ينشب بفتح الشين المعجمة أى لم يلبث بعد هذا أن توفي ولم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي (ص) ولكن في سيرة ابن اسحاق وتبعه غيره ان ورقة كان يمر ببلال وهو يعذب، ومقتضاه انه أدرك زمن البعثة واضطهاد المشركين للمؤمنين. والمعتمد ما في الصحيح من أنه توفي عقب هذا الحديث بقليل

ورقة أن توفي وفتر الوحي (١)

قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الانصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه «بينا أنا ماش إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض، فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأنزل الله تعالى (يا أيُّها المدَّثِّر * قم فأنذِر) إلى قوله (والرُّجزَ فاهجُر) فحميَ الوحي وتتابع (٢) اه

---

(١) فتر الوحي انقطع موقتا ليعود ـ وكانت فترة الوحي ثلاث سنين ـ وهي ما بين بدئه بأمر جبريل له بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بانذار الناس

(٢) أي اتصلت مدة التبليغ كلها وهي عشرون سنة ولكنه كان نجوما متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة، وتارة تنزل الآيات المتفرقة، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة، كالذي ورد في سبب نزول سورة الضحى. وقد اختلط الامر في هذا على درمنغام فظن أنها هي التى نزلت بعد فترة الوحي، والمروي انه نزل قبلها بضع سور: وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جندب ابن سفيان ان النبي (ص) اشتكى (أي وجع) فلم يقم ليلتين أو ثلاثا (أي إلى تهجده وتلاوته) فقالت امرأة يا محمد اني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم اره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله عزوجل (والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى) اه تقرأ ودعك بالتشديد والتخفيف ومعناهما واحد وهو الترك، والقلى بالكسر والقصر البغض، أي ما تركك ربك وما أبغضك ـ وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبى لهب وبنت أبى سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم، وكان هذا بعد نزول سورة (تبت يدا أبى لهب) وروى ابن جرير من طريقين مرسلين أن جبريل أبطأ على النبي (ص) فجزع جزعا شديدا فقالت خديجة: اني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك، فنزلت ـ ومعارضة رواية الصحيحين بهاته الرواية المرسلة تسقط اعتبارها وإن جمع الحافظ ابن حجر بينهما بأن خديجة قالت ماقالت توجعا، وحمالة الحطب قالته شماتة

وأقول : أخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها ان أولها هو أول ما أنزل مطلقا وفي البعض الآخر انها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتي هنا ، وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية الملك بقوله «فجئثت منه رعبا» وفي رواية أخرى «فجئثت منه حتى هويت الى الارض» أي فزعت وخفت وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للمفعول

هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن والمشهور انه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة وبعدها بقية سورة المدثر . وقال مجاهد أول ما نزل سورة (ن والقلم) وهو غلط ، وروي عن علي كرم الله وجهه ان أول ما نزل سورة الفاتحة واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب ، ويمكن أن يراد انها اول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني ، ثم بالامر بالتبليغ الاجمالي ، وتلاها فرض الصلاة ونزول سورة المزمل أو نزلتا في وقت واحد



(بسط ما يصورون به الوحي النفسي)
لمحمد صلى الله عليه وسلم

هأنذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية ، وحالة قومه ووطنه، وما تصوروا انه استفاده من أسفاره ، وما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها، وقفيت عليها بأصح مارواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي وكيف كان بدؤه وفترته، ثم كيف أمر نبيه ﷺ بتبليغه ودعوة الناس إلى الحق، وكيف حمي وتتابع

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره، بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله في تقريبه إلى العقل ، ثم أقفي عليه بما ينقضه من أساسه بأدلة العقل والنقل والتاريخ ، والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول :

يقولون (أولا) إن عقل محمد الهيولاني - أو ما يسمونه في عصرنا بالعقل الباطن - قد أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الاصنام ، كما أدرك ذلك أفراد آخرون من الاقوام ، ونقول : آمنا وصدقنا

(ثانيا) ان فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الاموال بالربا والقمار ، ونقول : آمنا وصدقنا

(ثالثا) إن فقره وفقر عمه (أبي طالب) الذي كفله صغيراً قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات: من السكر والتسري وعزف القيان ، ونقول : الصحيح انه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزا عنه

(رابعاً) انه طال تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح ، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات . ونقول: لامانع من ذلك

(خامسا) انه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيرا من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني اسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور . ونقول: إن هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا

(سادسا) ان تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيهما من البدع . ونقول :هذا مبني على ما قبله فهو معقول غير منقول

(سابعا) انه كان قد سمع ان الله سيبعث نبياً مثل أولئك الانبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الانبياء، وان هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذلك النبي الذي آن أوانه و نقول: إن هذا استنباط لهم مما قبله وسيأتي ما فيه

(ثامنا) وهو نتيجة ما تقدم : انه توسل الى ذلك بالانقطاع الى عبادة الله تعالى والتوجه اليه في خلوته بغار حراء فقوي هنالك ايمانه ، وسما وجدانه ، فاتسع محيط تفكره وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير الى الآيات البينات في ملكوت السموات والارض على وحدانية مبدع الوجود ، وسر النظام الساري في كل موجود ، بما صار به اهلا لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور ، وما زال يفكر ويتأمل، وينفعل ويتململ، ويتقلب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر، الذي يبعثه الله لهداية البشر، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة

وأما المعلومات التي جاءته في هذا الوحي فهي مستمدة الاصل من تلك الينابيع التي ذكرناها ، ومما هداه اليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء، وانها خطاب الخالق عز وجل بوساطة الناموس الاكبر ملك الوحي جبريل الذي كان ينزل على موسى بن عمران ، وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام

وقال أحد ملاحدة المصريين ان سولون الحكيم اليوناني وضع قانونا وشريعة لقومه فليس بدعا في العقل أن يضع محمد شريعة أيضاً، وسأبين فساد هذا الرأي أيضا

تفنيد تصويرهم للوحي النفسي
وإبطاله من وجوه

(الوجه الاول) ان أكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة ، أو دعاوى باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتيجة لها

مثال ذلك زعمهم ان محمدا ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم - ليوهموا الناس ان ما جاء في أول سورة الروم من الانباء بالمسألة وبأن الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام . وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل : فأما التاريخ فانه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان في سنة ٦١٠م وذلك بعد رحلة محمد الاخيرة الى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة . ثم ان التاريخ أنبأنا ان دولة الروم كانت مختلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلب على الفرس ، حتى ان أهل مكة أنفسهم هزءوا بالخبر وراهن أبو بكر احدهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فربح الرهان (١)

وأما العقل فانه يحكم بأن مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بأن الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين - لا من قبل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الاخبار غير الموثوق بها . وقد صح أن انتصار

---

(١) في القصة روايات من طرق فيها خلاف فيما قدروا فيه البضع وهو في الاصل من ٣ - ٩ فقيل خمس وقيل ست ولام النبي «ص» أبا بكر على تحديده وقد أبهمه الله تعالى وفي بعضها انهم أخطؤا الاجل الاول فأمر النبي «ص» بأن يمادّوهم في الاجل ويزايدوهم في الرهن ففعلوا ورضي المشركون . وكان الذي تولى قمارهم أبيّ بن خلف، فأظهر الله الروم على الفرس عند انتهائه ، على رأس السبع من قمارهم الاول

الروم وقع سنة ٦٢٢ م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ فاذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين ، وان كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد في التفسير . والبضع يطلق على ما بين الثلاث والتسع .

والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى (٣٠: ٢ غُلِبَتِ الرُّومُ (٣) في أدنى الأرضِ وهم من بعد غلَبهِم سَيَغلِبونَ في بِضعِ سِنينَ) ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلا ـ هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة . وأنباء الوحي والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين ، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة في بابها

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته إلى الشام بأرض مدين وحديثه مع أهلها ، الذي أرادوا به أن يجعلوه أصلا لما جاء في القرآن من أخبارها ، والخبر باطل كما أشرنا اليه عند نقلنا إياه في المقدمات ، ولو صح لما كان من المعقول أن يعتمد محمد على ما سمعه في الطريق من أناس مجهولين لا يوثق بمعرفتهم ولا بصدقهم فيجعله أصلا للوحي الذي جاءه في قصة موسى وفي قصة شعيب عليهما السلام

(الوجه الثاني) لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئا أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئا علم عنه أو قيل فيه ولو لم يثبت إلا ودونوه وكانوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناده: وما علم من سيرة رواته

(الوجه الثالث) لو وقع ما ذكر لاتخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى ، فانهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة ، وهو أنه كان في مكة قين (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده أحيانا

يشاهد صنعته فاتهموه بأنه يتعلم منه، فرد الله عليهم بقوله (١٦ : ١٠٣ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

(الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة في أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئا من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي ، وهم متفقون معنا على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد فضلا عن الكذب على الله عز وجل ، كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل ، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عز وجل ويقينه بكل ما أوحاه إليه

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص (٢٨ : ٤٤ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٤٥ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) وقوله بعد قصة نوح من سورة هود (١١ : ٤٩ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) ونحوه في اواخر سورة يوسف بعد قصته (١٢ : ١٠٢)

ومن الشواهد التي لم يكن يعرفها أحد من أهل الكتاب قوله تعالى بعد قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها ، فيتوهم أنه مأخوذ عنهم (٣ : ٤٤ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ؟ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

الاقلام جمع قلم تطلق على الازلام والاقداح التي كانوا يلقونها لضرب

القرعة لإزالة الخلاف فيما يتنازعون فيه ، وعلى أقلام الكتابة ، وتكون القرعة بأوراق تخط بها كما هو المعهود في عصرنا ، والمعنى انهم اختصموا وتنازعوا في كفالة مريم وتربيتها عناية بأمرها فأصابت القرعة زكريا عليه وعليها السلام، كما قال تعالى في أول قصتهما (٣ : ٣٧)

(الوجه الخامس) انه لم يرد في الأخبار الصحيحة والمرفوعة(١) أن محمداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لأنهم ما تركوا شيئاً بلغهم عنه إلا ودونوه، كما رووا مثله عن أمية بن أبي الصلت . بل صرح القرآن المجيد بأنه لم يرج هذا ولا يؤمله. قال تعالى(٢٨: ٨٦ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) أي لكن ألقي إليك رحمة من ربك بك وبالناس كلهم ، لا كسب لك فيه بعلم ولا عمل ، فهذا تأكيد وتكميل للشاهد الاول من الوجه الرابع

(الوجه السادس) ان حديث بدء الوحي الذي أثبته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده في الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعداده، تجلى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوي عليه

«١» الحديث المرفوع في اصطلاح المحدثين ماصرح الصحابي بأنه من قول النبي « ص »

نفسه الوثابة، وفكرته الوقادة، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن، في بيان أصول الايمان، وتوحيد الديان، واجتثاث شجر الشرك وعبادة الأوثان، وتشريع الأحبار والرهبان، واتخاذ الولد للرحمن، وإنذار رءوس الكفر والطغيان، ما سيلقون في الدنيا من الخزي والنكال، وفي الآخرة من عذاب النار، كسورَ المفصل ولاسيما (ق والقرآن المجيد) والذاريات والطور والنجم والقمر، ثم الحاقة والنبأ ـ أو في سورة أو أكثر من السور الوسطى التي تقرعهم بالحجج، وتأخذهم بالعبر، وتضرب لهم المثل، بسنن الله في الرسل، كسور الأنبياء والحج والمؤمنون

ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة، ولم يدعهم إلى شيء، ولا تحدث إلى أهل بيته ولا أصدقائه بمسألة من مسائل الاصلاح الديني الذي توجهت إليه بزعمهم نفسه، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه، إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه، وناهيك بألصق الناس به: خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته، وأبي بكر الصديق الذي عاشره طول عمره ـ فهذا السكوت وحده في فترة الوحي برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه، واستمداده لعلومه من التلقي الذي اختلقوه، والاختبار الذي توهموه

(الوجه الثامن) ان ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد هذه الفترة الطويلة جاء موافقا لما كان يتجدد من الوقائع والحوادث الطارئة، دون ما زعموا من الامور السابقة، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر ردا على قول الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قاله في القرآن — فقد أراده أبو جهل أن يقول فيه قولا يبلغ قومه أنه منكر له وأنه كاره له، بعد أن علم أنه تحرى استماعه من محمد ﷺ وأعجب به. قال له الوليد وماذا أقول؟ فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر لا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله مايشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله [١] وانه ليعلو وما يعلى،

«١» وفي رواية: وان اعلاه لمثمر، وان اسفله لمغدق.

وإنه ليحطم ما تحته . قال أبو جهل لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، فقال ذعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره،فنزلت الآيات (٧٤ : ١١ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) الى الآية ٣٠ رواه الحاكم عن ابن عباس باسناد صحيح على شرط البخاري

وقد نزلت سورة اقرأ فسورة ن والقلم فسورة المزمل قبل سورة المدثر ، ونزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة من قصار المفصل وأوساطه ليس فيها شيء مما زعموا أنه تلقاه أو شاهده في الاسفار ، ولا مما وصفوا من أفكاره في الغار، فليراجع ترتيب نزول السور في كتاب الاتقان من شاء .

(الوجه التاسع) ان هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحي قليلة المواد ، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن

وان القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الارض ويهودها، دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام

وان القرآن نزل مصدقا لكتب أهل الكتاب من حيث كونها في الاصل من وحي الله إلى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم — ونزل أيضاً مهيمناً عليها، أي رقيبا وحاكما كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (السادسة) ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى أنهم أوتوا نصيبا من الكتاب (٥:٤٤و٥١) أي لا كله ، ونسوا حظا آخر منه (٦:١٣و١٤) وأنهم حرفوا كلمه عن مواضعه (٢ : ٧٠ و ٥ : ٤٥ و ٦ : ١٤ و ٤٤) وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والاحكام والاخبار

ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان ، أفاضوها على محمد في رحلته التجارية إلى الشام ،سواء أكان عند

بعضهم بقية من التوحيد الموسوي والعيسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا ؟ وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الاناجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (أبو كريف) كانجيل طفولة المسيح وانجيل برنابا أم لا ؟ فمحمد لم يعقد في الشام ولا في مكة مجمعا مسيحيا كمجامع الكنيسة للترجيح بين الاناجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض

ان وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعوا هذه الاخبار ببداهة العقل مع عدم النقل انه محال عادة، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الاناجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حكمه الخطأ ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه في شأن أهل الكتاب «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم » (١) يعني فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا ، أو يكون ما صدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا

(العاشر) إن في القرآن ماهو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به ، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته — وفيما فيه من عزو صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامري، وإثباته لانكار هارون عليهم فيه، وغير ذلك

بل ماجاء به محمد أكبر وأعظم من كل مافي الكتب الالهية ماصح منها ومالم يصح كما سنبينه.

---

(١) رواه البخاري بهذا اللفظ ، وأحمد والبزار من حديث جابر بلفظ « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وانكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي » وسببه أن عمر كتب شيئا من التوراة عن اليهود فعلم النبي ﴿ص﴾ فغضب وقاله

رويدكم أيها المفتاتون(١) الذين يقولون ما لا يعلمون، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون، وأكبر مما تتصورون وتصورون،وان محمداً أقل علما كسبيا مما تدعون، وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون

واذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ماحفظ عن أنبياء الله ورسله، لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة،فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليوناني الذي شبه محمداً به أحد ملاحدة عصرنا في مصرنا ،مع بعد الشبه بين أمي نشأ بين الاميين.وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة وسياسة، ودخل في كل أمور الامة والدولة كسولون هذا (٢)

---

(١) يقال افتات فلان اذا سبق بفعل شيء واستبد به ولم يؤامر فيه من هو احق منه بالأمر فيه لأنه اعلم به واجدر بتحقيقه، ويقال فلان لايفتات عليه اي لا يتدخل احد في اموره بدون أمره واذنه

(٢) سولون أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح ووالدته من أنسباء بستراتوس آخر ملوك أثينا، وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الأعمال الادارية والعسكرية وقيادة الجيش . وقد انتخب في سنة ٥٩٤ ق . م (ارخونا) أى رئيسا على الامة باجماع احزابها كلهم وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه (زراكوت) من قبله فوضع لهم نظاما جديدا قررت الحكومة والامة اتخاذه دستورا متبعا مدة عشر سنين . فسولون كان في قانونه منقحا ومجددا لقانون أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة نشأ فيها فكان متعلما وفيلسوفا وحاكما وقائدا ورئيسا، أفيقاس عليه محمد (ص) الامي الذى لم يقرأ سطرا ولم ير كتابا، ولا تولى عملا اداريا ولا سياسيا، ثم إن ما جاء به لم يكن قانونا موضعيا منقحا لقوانين أخرى قبله، بل كان اصلاحا لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم واحكامهم وسياستهم وحروبهم الخ ؟ تأمل ايها القارىء الى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم ! !

القول الحق

في استعداد محمد (ص) للنبوة والوحي

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته ، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته ، هو أنه خلقه كامل الفطرة ، ليبعثه بدين الفطرة ، وأنه خلقه كامل العقل الاستقلالي الهيولاني . ليبعثه بدين العقل المستقل والنظر العلمي ، وأنه كمله بمعالي الأخلاق ، ليبعثه متمما لمكارم الاخلاق ، وأنه بغض اليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه ، وحبب اليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية ، أو منكرات القوة الوحشية ، كسفك الدماء والبغي على الناس ، أو المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل - ليبعثه مصلحا لما فسد من أنفس الناس ، ومزكيا لهم بالتأسي به ، وجعله المثل البشري الأعلى ، لتنفيذ ما يوحيه اليه من الشرع الأعلى ،

فكان من عفته أن سلخ من سني شبابه وفراغه خمسا وعشرين سنة مع زوجه خديجة كانت في عشر منها كهلة نصفا أم أولاد ، وفي ١٥ منها عجوزا يائسة من النسل ، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس اليه ، وظل يذكرها ويفضلها على جميع من تزوج بهن من بعدها ، حتى عائشة بنت الصديق على جمالها وحداثتها وذكائها وكمال استعدادها للتبليغ عنه ، ومكانة والدها العليا في أصحابه ، وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق ، فكان على شجاعته الكاملة ، يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم ، لأجل صدهم عن دينهم ، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحدا منهم (هو أبي بن خلف) كان موطنا نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مغفر ودرع ، فلم يجد ﷺ بدا من قتله فطعنه في ترقوته من خلل الدرع والمغفر فقتله ، وظل طول عمره ،

ثابتا على أخلاقه من الزهد والجود والايثار،فكان بعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر القشف وشظف العيش على نعمته ، مع إباحة شرعه لأكل الطيبات ونهيه عن تركها تدينا ، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله ، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد، وكان يساعد أهل بيته على خدمة الدار

أكمل الله تعالى استعداده الفطري الوهبي «لا الكسبي» للبعثة باكمال دين النبيين والمرسلين ، والتشريع الكافي الكافل لاصلاح جميع البشر الى يوم الدين ، وجعله حجة على جميع العالمين، بأن أنشأه كأكثر قومه أمياً،وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الأميين ومن أهل الكتاب، حتى انه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسان ، وبلاغة البيان، من شعر وخطابة ، ومفاخرة ومنافرة (١) إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ[٢] من جميع النواحي لاظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الاسباب لارتقاء لغتهم ، واتساع معارفهم، وكثرة الحكمة في شعرهم ، فكان من الغريب أن يزهد محمد ﷺ في مشاركتهم فيه بنفسه ، وفي روايته لما عساه يسمعه منه ، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال «ان كاد ليسلم» وقال «آمن

---

(١) المنافرة المحاكمة والمفاخرة في الاحساب والانساب

«٢» كان للعرب في عهد الجاهلية أسواق ومجامع في الحجاز يقصدونها في موسم الحج للبيع والشراء، ولاظهار مناقبهم ومجد آبائهم وقبائلهم، أولها عكاظ بالضم «بوزن غراب» وهي من عمل الطائف على طريق اليمن . وقال ابو عبيد هي صحراء مستوية لا علم (بفتحتين) بها ولا جبل، وهي بين نجد والطائف وكان يقام فيها السوق نحواً من نصف شهر في ذي القعدة ، ثم يأتون سوق ذي مجنة (بكسر الميم وتشديد النون) وهي دون عكاظ إلى مكة ، فيقيمون فيها إلى آخر ذى القعدة ، ثم يأتون سوق ذي المجاز وهي أقرب الى مكة فيقيمون فيها الى يوم التروية (وهو الذي قبل عرفة الذي هو تاسع ذي الحجة) ومنها يصدرون إلى منى فعرفات

شعره وكفر قلبه» وقال «ان من البيان لسحرا، وان من الشعر حكما» رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس، وأما قوله «ان من البيان لسحرا» فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر

قلنا إن الله تعالى جعل استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطريا وإلهاميا لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي، وانه لم يرو عنه انه كان يرجوها كما روي عن أمية بن ابي الصلت، بل أخبر الله عنه انه لم يكن يرجوها، ولكن روي عن خديجة (رض) انها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته، وما قاله بحيرا الراهب فيه، تعلق أملها بأن يكون هو النبي الذي يتحدثون عنه، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها إلى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفا، فان قيل إنه يقويها حلفها بالله ان الله تعالى لا يخزيه أبداً، قلنا إنها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله، ورأت أنها في حاجة إلى استفتاء ابن عمها ورقة في شأنه

وأما اختلاؤه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في أنه كان عملا كسبيا مقويا لذلك الاستعداد الوهبي، ولذلك الاستعداد السلبي، من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولا عاداتهم، ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة، لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى الملك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه، ولم يخف منه على نفسه، وانما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى الانس بالله تعالى، والرجاء في هدايته الى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الاستاذ الامام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحى ٩٣ (وَوَجدكَ ضالاً فهدَى) وما يفسره من قوله عز وجل في سورة الشورى (٤٢ : ٥١ وَكَذَلِكَ أَوحَينَا إِلَيكَ رُوحًا مِن أَمرِنَا، ما كُنتَ تَدرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ، وَلَكِن جعَلنَاهُ نُورًا نَهدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِن عِبادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهدِي إِلى

صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ) وألمّ به في رسالة التوحيد إلماما مختصرا مفيدا، فقال:

« من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لا سيما ان كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده[1]

ولكن الامر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدإ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله (ووجدك ضالا فهدى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، إن ذلك لهو الافك المبين ، وانما هي الحيرة تلمّ بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل ، الى ما هدوا إليه من انقاذ الهالكين ، وارشاد للضالين ، وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته » اهـ

(أقول) وجملة القول ان استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية ، والأعمال الوراثية والعادات المنكرة ، الى أن تجلى فيها الوحي الالهي بأكمل معانيه ، وأبلغ مبانيه ، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله الى أقوامهم خاصة بما يناسب حالهم واستعدادهم ، وأراد إكمال الدين به فجعله خاتم النبيين ، وجعل رسالته عامة دائمة ، لا يحتاجون بعدها الى وحي آخر

﴿١﴾ كامية بن ابي الصلت وعمرو بن نفيل

الأمثال النورانية

لفطرة محمد (ص) وروحه ووحيه، وكتاب الله تعالى ودينه

لقد كان محمد ﷺ في فطرته السليمة، وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل الذي تلوته عليك آنفا من آخر سورة الشورى هو مضرب المثل في قوله تعالى من سورة النور (٢٤ : ٣٥ اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، : زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

فمصباح الروح المحمدية، في زجاجة فطرته الزكية، المتلألئة كالكواكب الدرية، يوقد من شجرة مباركة قدوسية، زيتونة لا شرقية ولا غربية، لا يهودية ولا نصرانية، بل هي إلهية علوية، أشبه بما عرف الناس في عصرنا بالكهربائية، يكاد زيت كمالها الفطري يضيء بذاته ولو لم تمسسه نار، فمسه نور الله بما أوحاه اليه فاشتعل بما عم العالم من الانوار، ولا غرو، فقد جعل الله محمدا نورا، وجعل كتابه الذي أنزل إليه نورا، وجعل دينه نورا

قال تعالى (٥: ١٥، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ (١) وَكِتَابٌ مُبِينٌ) وقال (٤: ١٧٣ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مبينًا) وقال (٣٩: ٢٢ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) وقال (٦٤: ٨ فَآمِنُوا بِاللَّهِ

---

(١) النور هنا هو محمد رسول الله (ص) بدليل عطف الكتاب عليه

وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الذى أَنْزَلْنَا) وقال في خطاب المؤمنين بالله ورسله السابقين لمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب (٥٧ : ٢٨ يَاءَيُّهَا الذين آمَنوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال فيمن استجاب لهذه الدعوة (٧:١٥٧ فَالذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الذى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ)

ومما كان يدعو به ﷺ بعد نبوته استمداداً للنور من ربه « اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نورا، وعن يميني نورا، وعن يساري نوراً، ومن فوقي نورا، ومن تحتي نورا، ومن أمامي نورا، ومن خلفي نورا، واجعل لي في نفسي نورا، وأعظم لي نورا » رواه الامام احمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس

فيا موسيو درمنغام! انك قد أبصرت قبساً من هذا النور الوهاج، فلا تحسبن ان محمداً اقتبسه من اعراب مدين ويهود يثرب ونصارى الشام، أو استوراه من تفكره في أمور الكون والناس، فالامر أعظم من ذلك، فنور الكهرباء أعظم من أن يكون مقتبساً من نار حطب البادية العربية، وقناديل الكنائس اليهودية والنصرانية، أو من نور ما بقي عندهم من كتب أنبيائهم الاصلية، انما هو فائض من نور الله الاعظم، على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، هو كما قال البوصيري

أَللهُ أكبر ان دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفىء القنديلا

وكما قال في أول همزيته

كيف ترقى رقيّكَ الأنبياء يا سماءً ما طاولتها سماء

لمْ يساووكَ في علاكَ وقد حا ... ل سنًى منكَ دونهم وسناءُ
إنما مثّلوا صفاتك للنا ... س كما مثّل النجومَ الماءُ
أنت مصباح كل فضل فما تصـ ... ـدر إلا عن ضوئك الأضواءُ

أفرأيت من أنزل الله عليه تلك الآيات ، التي أشرقت بنورها الأرض والسموات ، وألهمه هذا الدعاء الفياض بنور الله ، أيعقل أن يستمد النور ممن كانوا يعيشون في ظلمة الوثنية الهالكة، وفي ظلمات التقاليد الكهنوتية الحالكة ، الذين ضرب لهم الله المثل بعد مثل النور الذي اقتبسناه من سورة النور بقوله: (٢٤ : ٣٩ وَالذينَ كفَرُوا أَعْمالُهُمْ كسَراب بِقيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حتَّى إذَا جاءَهُ لمْ يجِدْهُ شَيْئاً وَوَجدَ اللهَ عِنْدَهُ فوَفّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤٠) أَوْ كظُلُمَاتٍ في بَحْرٍ لُجّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَاب ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لمْ يَكدْ يرَاهَا ، وَمَنْ لمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

فارجع أيها الناظر المنصف الى وجدانك ، وتأمل هذه الامثال الالهيـة ، ومايراه في سائر هذا الكتاب، لعل الله يتم نور انصافك، فتكتب كتابا آخر تثبت به الوحي الالهي المعصوم، لمحمد خاتم النبيين، ببلاغتك الفرنسية، وتدعو قومك الى الاهتداء بكتابه القويم، ومعالجة مفاسد إلحادهم وخياناتهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم باتباع صراطه المستقيم

***

هذا مانراه كافياً لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده ويتلوه ماهو أقوى دليلا ، وأقوم قيلا ، وهو موضوع الوحي الذي هو آية نبوته الخالدة ، وحجته الناهضة ، ومصـدر جميع تلك الانوار الفائضة ، وهو:

آية الله الكبرى

القرآن العظيم

﴿ القرآن الكريم ، القرآن الحكيم ، القرآن المجيد، الكتاب العزيز ﴾

الذى (لَا يَأتيهِ البَاطِلُ مِنْ بَينِ يدَيْه ولَا من خَلْفِهِ

تنزِيل مِن حَكيم حَميدٍ)

هو كتاب لا كالكتب ، هو آية لا كالآيات ، هو معجزة لا كالمعجزات، هو نور لا كالأنوار ، هو سر لا كالأسرار ، هو كلام لا كالكلام، هو كلام الله الحي القيوم، الذي ليس لروح القدس جبريل الأمين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه العربي من سماء الأفق الأعلى إلى هذه الأرض ، ولا لمحمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه إلا تبليغه للناس بلفظه الذي تلقاه عن الروح الأمين ، ثم بيانه لهم بالقول والعمل ليهتدوا به ، فهو معجز للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه وهدايته وتأثيره وعلومه ، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ولا مواهبه ، من علومه ومعارفه، وفصاحته وبلاغته، وهو ﷺ لم يكن عالما ولا بليغاً ممتازاً إلا به ، بل فيه آيات صريحة ناطقة بأنه لم يكن يعلم شيئاً من علومه تقدم بعضها ، وبأنه كان يعجز كغيره عن الاتيان بمثله ، وهو ما أمره الله تعالى أن يقوله للناس في تحديه إياهم واستدلاله به على نبوته ، وهو قوله تعالى (١٠: ١٤ وَإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الذين لا يَرجونَ لِقاءنا: ائْتِ بقُرآنٍ غَيرِ هذا أو بدِّلهُ ، قل ما يَكونُ لي أنْ أُبَدِّلهُ من تلقاءِ نفسِي ، إنْ أتَّبعُ إلاَّ ما يُوحَى إليَّ إني أخافُ إنْ عَصَيتُ رَبِّي

عذابَ يَوْمٍ عظيم (١٥) قُلْ لوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

أي لو شاء الله ألا أتلوه عليكم ما تلوته ، ولما أعلمكم هو به ، فاني إنما تلوته عليكم بمشيئته وأمره ، فقد أقمت فيكم عمرا طويلا لم أتل عليكم شيئا ، أفلا تعقلون ان من عاش أربعين سنة لم يصدر عنه علم ولا عرفان ، ولا بلاغة لسان ، لا يمكن أن يصدر عنه بعد الاكتهال ، ما لم يكن له أدنى نصيب منه في سن الشباب ؟

وقد بينت في الكلام على آية التحدي بالقرآن من تفسير سورة البقرة (٢: ٣٢) أهم وجوه الاعجاز اللفظي والمعنوي بالاجمال والايجاز ، وهي بضعة أنواع (١) ثم تكلمت على التحدي ببلاغته ونظمه في آيتي يونس (١٠ : ٣٧ و٣٨) ومنه دلالتهما على عجز النبي صلى الله عليه وسلم عن الاتيان بسورة من مثله كغيره ، ومنه وجه التحدي بعشر سور مثله مفتريات ، ووجه الاعجاز في السور القصيرة . وسأعود الى هذا في آخر الكتاب

وأوجه الكلام هنا إلى هداية القرآن بأسلوبه وتأثيره وعلومه المصلحة للبشر بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل ، وهو القدر الذي يعلم منه أن هذه العلوم أهدى من كل ما حفظه التاريخ عن جميع الانبياء والحكماء ، وواضعي الشرائع والقوانين ، وساسة الشعوب والأمم ، وان اعجازه من هذه الناحية أقوى البراهين على كونه وحيا من الله تعالى تقوم به الحجة على جميع البشر

فمن كان يؤمن بأن للعالم ربا عليما حكيما رحيما مريدا فاعلا مختارا فلا مندوحة

---

(١) هي (١) أسلوبه ونظمه (٢) بلاغته (٣) ما فيه من علم الغيب الماضي والحاضر والآتي (٤) سلامته من الاختلاف بأنواعه (٥) ما فيه من العلوم الدينية والتشريع (٦) عجز الزمان عن نقض شيء منه بما تجدد فيه من العلوم (٧) اشتماله على مسائل كثيرة لم تكن معروفة في عصر نزوله للبشر . ويتلو هذه الأنواع وجوه دلالتها على نبوة محمد ﴿ ص ﴾ وتفسير الآية في الجزء الأول من تفسير المنار ﴿ ص ١٩١ — ٢٢٨ ﴾

له ولا مناص من الايمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم أنبيائه المرسلين رحمة بهم ليهتدوا به إلى تكميل فطرتهم ، وتزكية أنفسهم، واصلاح مجتمعهم من المفاسد التي كانت عامة لجميع أممهم ، فيكون اتباع محمد فرضاً إلهياً لازباً عاماً كما قال تعالى (٧ : ١٥٨ قلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الذي لهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

ومن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العليم الحكيم فهذا القرآن حجة ناهضة على وجوده الحق، بكونه ليس من المعهود في الخلق. وبما اشتمل عليه من الآيات البينات في الأنفس والآفاق، فمن لم يهتد إلى فهمها فلا مندوحة له عن الجزم بأن محمداً أكمل وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء الهادين المهديين، ويكون الواجب بمقتضى العقل أن يعترف له هؤلاء بأنه أفضل البشر على الاطلاق ، وأولاهم بالاتباع ، ولا غرو فقد اعترف له بهذا كثير من علماء الشرق والغرب، سنورد بعض شهاداتهم بعد ،

بل رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون القرآن في الجملة يعتقدون أنه ماوجد ولن يوجد مثله في المستقبل: منهم الاستاذ وليم موير الانكليزي المشهور (١) ومنهم ذلك الفيلسوف الطبيب السوري الكاثوليكي النشأة ، المادي الكهولة ، الذي رأى في مجلة المنار بعض المناقب المحمدية فكتب الينا كتابا نشرناه في الجزء الأول من مجلة المنار الحادي عشر سنة ١٣٢٦ هذا نصه :

---

(١) قال السير وليام موير في كتابه حياة محمد بعد أن ذكر طائفة من صفاته « ص » : وبالاختصار فانه مهما ندرس حياة النبي محمد (ص) نجدها على الدوام عبارة عن كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريرة وخلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الاطلاق في جميع الازمان في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل

(مكتوب الدكتور شميل المادي في تفضيل محمد على جميع البشر)

« الى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار

« انت تنظر الى محمد كنبي وتجعله عظيما وانا أنظر اليه كرجل وأجعله أعظم ، ونحن وان كنا في الاعتقاد ﴿ الدين أو المبدأ الديني ﴾ على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والاخلاص في القول وذلك أوثق بيننا لعرى المودة

(الامضاء)

الحق أولى أن يقال

دع من محمد في سدى قرآنه	ماقد نحاه للحمة الغايات
اني وان أك قد كفرت بدينه	هل اكفرنّ بمحكم الآيات
اوماحوت في ناصع الالفاظ من	حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو أنهم عقلوا بها	ماقيدوا العمران بالعادات
نعم المدبر والحكيم وانه	رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والدها	بطل حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد غلب النهى	وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الأبطال في كل الورى	من سابق أو حاضر أو آت

والمؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون ، كما قلنا ولكن الجاحدين لوجود رب مدبر للعالمين قايلون ، وان محمداً ﷺ لحجة عليهم فيما شهدوا له به وعزوه إلى استعداده وكسبه ، وأسنده هو إلى وحي ربه ، مع ماعلم بالضرورة من صدقه الفطري المطبوع ، ولكن شبلي شميل كان يزعم أنه نسج قرآنه من سدى الحكمة ولحمة الدين ليقبله جمهور الناس ، وقد بطل هذا الزعم بما بسطناه في هذا الكتاب ، وأثبتنا به نبوته ﷺ وهو يتضمن الحجة على وجود الرب تعالى بل هو مجموعة حجج عقلية وطبيعية ، على الألوهية وعلى النبوة

وسترى أيها القارىء بسط هذه الحجة في خاتمة هذا الكتاب ، وأمهد السبيل لها بفصلين في إعجاز القرآن للخلق ، من وجهين هما أوجه وأقوى ما ألف فيه علماؤنا المصنفات الممتعة وأحراها باقناع أهل هذا العصر المستقلي الفكر ، فأقول

الفصل الرابع

(في إعجاز القرآن بأسلوبه وبلاغته ، وتأثيره وثورته)

أسلوب القرآن في تركيبه المزجي

لو أن عقائد الاسلام المنزلة في القرآن من الايمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما فيه من الحساب والجزاء، ودار الثواب ودار العقاب، جمعت مرتبة في ثلاث سور أو أربع أو خمس مثلا ككتب العقائد المدونة

ولو أن عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والاذكار وضع كل منها في بضع سور أيضاً مبوبة مفصلة ككتب الفقه المصنفة

ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة ، وما يقابلها من الرذائل والاعمال المحرمة والمكروهة ، أفردت هي وما تقتضيه من الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والامثال ، الباعثة لشعوري الخوف والرجاء ، فصلت في عشر سور أو أكثر ككتب الاخلاق والآداب المؤلفة

ولو أن قواعده التشريعية، وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمالية والمدنية، وحدوده وعقوباته التأديبية، رتبت في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية

ثم لو أن قصص النبيين والمرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الالهية سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ

= لو أن كل ماذكر ومالم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها إصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب أسفار التوراة التاريخي التي لا يعلم أحد مرتبها ، او كتب العلم والفقه والقوانين ، لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الاول من التشريع وحكمة التنزيل، وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للكثير أو للقليل من سوره — حتى القصيرة منها — كثيراً من مسائل الايمان والفضائل

والاحكام والحكم المنبثة في جميع السور ، لان السورة الواحدة لا تحوي في هذا الترتيب المفروض إلا مقصداً واحداً من تلك المقاصد، وقد يكون أحكام الطلاق او الحيض، فمن لم يحفظ الا سورة طويلة في موضوع واحد يتعبد بها وحدها، فلاشك انه يملها

وأما سوره المنزلة بهذا الاسلوب الغريب ، والنظم العجيب ، فقد يكون في الآية الواحدة الطويلة والسورة الواحدة القصيرة ، عدة ألوان من الهداية ، وان كانت في موضوع واحد فترى في سورتي الفيل وقريش ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته ، بما منّ عليهم من عنايته بحفظ البيت الحرام وأمنه وهو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم، ومعقل حياتهم، ومجبى تجارتهم ورزقهم

قلت إن القرآن لو أنزل بأساليب الكتب المألوفة المعهودة وترتيبها لفقد أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الاول . وأقول أيضاً إنه لو أنزل هكذا لفقد بهذا الترتيب أخص مراتب إعجازه المقصود بالدرجة الثانية . كلّا ان كل واحدة من المزيتين مقصودة لذاتها، فالاولى أن يعبر عن المزية الاولى بالموضوع وعن الثانية بالشكل ، كاصطلاح المحاكم، فيقال لو كان القرآن مرتبا مبوبا كما ذكر لكان خاليا من اعظم مزاياه على غيره من الكتب شكلا وموضوعا

يُعلم هذا وذاك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين ، العليم الحكيم الرحيم ،وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها في السور الكثيرة، الطويلة منها والقصيرة، بالمناسبات المختلفة، وتكرارها بالعبارات البليغة ، المؤثرة في القلوب ، المحركة للشعور ،النافية للسآمة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به ، وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغني والنغم الذي يحرّك في القلب وجدان الخشوع، وخشية الاجلال للرب المعبود ، والعرفان بقدسه وكماله ، والملاحظة لجماله وجلاله، والتعرض لتجلي أسمائه وصفاته، والتفكر في آيات مصنوعاته، والرجاء فى رضوانه ورحمته ، والخوف من غضبه وعقوبته، والاعتبار بسننه في خلقه،

والقابلة لأنواع أخرى من الالقاء الخطابي في الترغيب والترهيب ، والتعجب والتعجيب ، والتكريه والتحبيب، والزجر والتأنيب، واستفهام الانكار والتقرير، والتهكم والتوبيخ ، بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة ولاشعر، ولا رجز ولا سجع ، فبهذا الاسلوب الرفيع في النظم البديع ، وبلاغة التعبير الرفيع ، كان القرآن كما ورد في معنى وصفه أنه لا تبلى جدته ، ولا تخلقه كثرة الترديد (*) وحكمة ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل ، وهاك بيانه بالاجمال :

(*) المعنى المراد من الحديث هنا ان القرآن لا تنقضي عجائبه الدالة على انه من الله تعالى ، ولا يمل ويسأم من كثرة التلاوة، ولا يخلق بطول الزمان، وهو من خلق الثوب اذا بلي،وأخلقه أبلاه، وأصح ماورد في هذا مارواه ابن ابي شيبة في مسنده ومحمد ابن نصر وابن الأنباري في كتاب المصاحف والحاكم في المستدرك وصححه والبيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعا ولفظه « ان هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم . ان هذا القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوّم ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، فاتلوه فان الله تعالى يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، اما اني لا اقول ﴿الم﴾ حرف ، ولكن الف ولام وميم »

قوله لا يزيغ فيستعتب معناه لا يميل عن الحق فيطلب منه العتبى اي الرجوع اليه

قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر . اي ولم يخرجه البخاري ومسلم بسبب ما قيل في صالح بن عمر في سنده ، وليس كذلك فان صالحا قد خرّج له مسلم وانما تركاه بسبب شيخه ابراهيم بن مسلم الهجري (بفتحتين) الذي ضعفه الجمهور وماضعفوه بطعن في صدقه اوحفظه وانما وجدوا انه رفع عدة احاديث الى النبي (ص) هي موقوفة على عبدالله بن مسعود ، وكذا على عمر (رض) ولكن صرح سفيان بن عيينة بانه جاء ابراهيم هذا فاعطاه كتبه فصحح له المرفوع والموقوف بقوله هذا عن النبي « ص » وهذا عن عبد الله بن مسعود وهذا عن عمر ، والظاهر ان هذا الحديث مما رفعه سفيان ولذلك خرجه ابن ابي شيبة ومن ذكرنا مرفوعا . وروي نحوه من حديث علي كرم الله وجهه واعتمده القاضي الباقلاني في كتابه اعجاز القرآن

الثورة والانقلاب الذى أحدثه القرآن

في الامة العربية فسائر الامم

القرآن كتاب أنزله الله تعالى على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل، صقيل النفس، طاهر الاخلاق، لم تملكه تقاليد دينية ، ولا أهواء دنيوية، لاجل إحداث ثورة وانقلاب كبير في العرب فسائر الامم، يكتسح من العالم الانساني ما دنس فطرته من رجس الشرك والوثنية ، الذي هبط بهذا الانسان من أفقه الأعلى في عالم الارض ،إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات ، وما أفسد عقله وذهب باستقلال فكره من البدع الكنسية ،والتقاليد المذهبية ، التي أحالت توحيد الانبياء الاولين شركا، وحقهم باطلا ،وهدايتهم غواية ـ وما أفسد بأسه، وأذل نفسه ، وسلبه إرادته ، من استبداد الملوك الظالمين ، والرؤساء القاهرين

ثورة تحرر العقل البشري والارادة الانسانية من رق المتحلين لأنفسهم صفة الربوبية ، او النيابة عن الرب الخالق تعالى في التحكم والهيمنة والسيطرة على قلوب الناس وعقولهم ، والتصرف في إراداتهم وأبدانهم وأموالهم، فيكون بهذا العتق كل امرىء اهتدى به حراً كريماً في نفسه،عبداً خالصاً لربه وإلهه ،يوجه قواه العقلية والبدنية إلى تكميل نفسه وجنسه

مثل هذه الثورة الانسانية لا يمكن أن تحدث إلا على قاعدة القرآن في قوله تعالى (١٣ : ١١ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

وكيف يكون تغيير الاقوام لما بأنفسهم من العقائد والاخلاق والصفات الثابتة ، التي طبعتها عليها العبادات الموروثة والعادات الراسخة ؟

هل يكفي في ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتابا تعليميا جافا ككتب الفنون يقول فيه : انكم أيها الناس ضالون فاسدون، ومضلون مفسدون، فاعملوا بهذا الكتاب

تهتدوا وتصلحوا ، أو قانونا مدنيا يقول في مقدمته نفذوا هـذا القانون تحفظ حقوقكم ، وتعتز أمتكم وتقوّ دولتكم ؟ أنى وقد عهد من الناس الفاسدين المفسدين ، سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين ، واهمال قوانين حكمائهم المصلحين ، كما فعل أهل الملل الاولون ، والمسلمون المتأخرون ؟

كلا ، إنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التي تكفل تنفيذها ، وأنى لمحمد ﷺ فعل هذا في الأمة العربية العاتية عن كل سيطرة ونظام ، وقد بعث بالحجة والبرهان ، فريداً وحيداً لا عصبة له من قومه ولا سلطان ؟ على أنه جاء بأعدل الأصول التي تبني عليها أمته قوانينها ، عند تكوين دولتها في الأحوال الملائمة لها ، جاء لاصلاح الاخلاق والطباع ، بالحجة القيمة وطرق الاقناع ، والخضوع لوازع الاعتقاد النفسي ، دون وازع الحكم القهري ، ليغير الناس ما بأنفسهم بالاختيار ، لا بالقوة والاجبار ، فيغير الله ما بهم بمقتضى سنته في نظام الاجتماع . وقد نطق القرآن بأن الرسول انما هو مبلغ ومذكر ، غير جبار على الناس ولا مسيطر ،

كلا ان هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به ، وهو تأثير هذا القرآن في أنفس الأمة العربية التي كانت أشد الأمم البدوية والمدنية استعدادا فطريا لظهور الاسلام فيها ، كما بيناه في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريبا

ذلك بأن من طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر ، والعمل بمقتضى المعرفة وان خالف مقتضى الاهواء والشهوات ، والتقاليد والعادات ، ان مجرد البيان والإعلام والامر والنهي لا يكفي في الحمل على التزام الحق ونصره على الباطل ، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر إذا عارض المقتضي العلمي لهما ما أشرنا اليه آنفا من الموانع النفسية والعملية ، إلا في بعض الافراد من الناس ، دون الجماعات والاقوام .

بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس ، وصدور آثارهما عنها بالعمل ؛ أنه يتوقف على صيرورة الايمان بهما اذعانا وجدانيا حاكما على القلب ،

راجحا على ما يخالفه من رَغب ورَهَب، وأمل وألم. وانما يكون هذا في الأحداث بالتربية العلمية العملية، والأسوة الحسنة لهم فيمن ينشؤون بينهم من الوالدين والاقربين والمعاشرين

وأما كبار السن فلا سبيل الى جعل الايمان بالحق المطلق والخير العام اذعانا وجدانيا لجمهورهم الا بالاسلوب الذي نزل به القرآن، بل بالقرآن الممتاز بهذا الاسلوب، فقلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم، وحولها الى أضدادها علما وعملا بما لم يعهد له نظير في البشر، فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره، بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه، كما كان آية معجزة في إصلاحه للامم بهديه وتعليمه

﴿ اعتبار الموازنة بين تأثير القرآن في العرب والتوراة في بني اسرائيل ﴾

واعتبر هذا ببني اسرائيل سلالة النبيين، فان كل ما رأوه بمصر من آيات موسى عليه السلام، ثم ما رأوه في برية سيناء ومدة التيه فيها، ومن عناية الله تعالى بهم، ومن سماعهم كلام الله تعالى بآذانهم في لهيب النار المشتعلة على ما ترويه توراتهم — ولم يثبت عندنا التكليم إلا لنبيهم — لم يتغير بذلك كله ما كان بأنفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها الراسخة في قلوبهم، ولا من تأثير السياسة الفرعونية المستبدة في أخلاقهم، فقد عذبوا موسى عذابا نكرا، وعاندوه في كل ما كان يأمرهم به، وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاته لربه، حنينًا الى ما كان من عبادة مستعبديهم الفرعونيين للعجل (ابيس) حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة، وهو كناية عن البلادة والعناد، وعَصَل الطباع [1] المانع من الانقياد، وظل ذاك كذلك الى أن باد ذلك الجيل الفاسد

«١» أي اعوجاجها مع صلابتها من عصل الشيء «من باب فرح» اعوج في صلابة فهو عصل «ككتف» وأعصل والجمع عصال كسهام

بعد أربعين سنة ، ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالا عند الخروج من مصر وممن ولد في التيه ، أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة، وأن يعملوا بها ويجاهدوا في سبيلها ، وانما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام

فأين بنو اسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره ، في رسوخهم في الايمان وصبرهم على أذى المشركين واضطهادهم اياهم ليفتنوهم عن دينهم، ثم مجاهدتهم لهم عند الامكان بعد الهجرة ، ومجاهدة أعوانهم من أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين في عهده ﷺ وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أي نصف مدة التيه، وكان ذهب نصفها في الدعوة، وتبليغ الدين للافراد بمكة، والنصف الآخر هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد وفتح وتأسيس

ثم تأمل ما كان من تدفقهم هم أنفسهم كالسيل الأتي [1] على الاقطار من نواحي الجزيرة كلها ، والظهور على ملكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الارض، وإزالة الشرك والظلم منهما ، ونشر التوحيد والحق والعدل فيهما، ودخول الامم في دين الله أفواجا مختارين اهتداء بهم، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين، حتى فتحوا هم وتلاميذهم نصف كرة الارض في زهاء نصف قرن، وكانوا مضرب المثل في الرحمة والعدل [2] وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب(٣)

«١» الأتي بالتشديد كقوي والأتاوي الغريب الذي يأتي من حيث لا يعلم.

«٢» قال الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب والاسلام :ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب

(٣) في مقدمتهم نابليون بونابرت أشهر قواد الحرب في العالم وهو الذي قال ان العرب فتحوا نصف العالم في نصف قرن ، وصرح بأنه يدين بالاسلام كما تراه في علاوات كتاب حاضر العالم الاسلامي للامير شكيب (ص ٢٤ جزء أول طبعة ثانية)

وأنّى يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب الصلب الرقبة — درجة الذين وصفهم رب العالمين بقوله (٤٨: ٢٩ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُم رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فضلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) الآية . فهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي نشأ وشب على الشدة والقسوة في الجاهلية حتى قيل انه وأد بنتًا له ، صار بالاسلام من أرحم الرحماء بالناس ، حتى انه يطبخ الطعام هو وزوجه ليلا لامرأة فقيرة في المخاض وبعلها حاضر لايساعدها ، ولم يكن يعلم انه أمير المؤمنين

لاجرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الاسلوب الذي نراه في المصحف فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله (٢٥: ٥٢ فَلَا تُطِعِ الكافرينَ وَجاهِدْهُمْ بهِ جِهادًا كَبيرًا) ثم كان به يربي المؤمنين ويزكيهم ، كما قال الله تعالى (٣: ١٥٩ فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ) الآية وبهدايته والتأسي بمبلغه ﷺ ربوا الامم وهذبوها ، وقلما يقرؤه أحد كما كانوا يقرءون ، إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون ، على تفاوت في الاستعداد النفسي واللغوي واختلاف الزمان لايخفى .

المسلمون ارحم البشر بهداية القرآن

وكيف لايكون المؤمنون بالقرآن أرحم الناس وقد امتن الله عليهم به في قوله (١٠: ٥٧ يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما في الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلمؤمِنينَ)

وقد قلنا في الكلام على الرحمة من هذه المزايا الاربع للقرآن من تفسير المنار (جزء ١١) ما نصه :

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهي ما تثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة، وهي صفة كمال من آثارها اغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعدي والبغي، وغير ذلك من أعمال الخير والبر، ومقاومة الشر، وقد وصف الله المؤمنين بقوله (رحماء بينهم) وبقوله (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)

وهذه الصفات الاربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالموعظة التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية ، وتزعجها الى مداواتها وطلب الشفاء منها ، والشفاء تخلية ، يتبعها طلب التحلية ، بالصحة الكاملة، والعافية التامة، وهو الهدى، ومن ثمراته هذه الرحمة التي لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين، ولا يحرمها إلا الكافرون الماديون، حتى قال بعضهم انها ضعف في القلب، يجعل صاحبه كالمضطر إلى الاحسان والعطف، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة وقسوة القلب، وفلسفة الكفر، فلقد كان أشجع الناس وأقواهم بدناً وقلباً، أرحم الناس وأشدهم عطفاً، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين، الذي وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله (بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ) وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وكذلك كان أصحابه (رض) حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمر بن الخطاب (رض) صار من أرحم الناس وسيرته في ذلك معروفة كما أشرنا اليه آنفا

وقد قال ﷺ « لا تُنزع الرحمة إلا من شقي » رواه ابو داود والترمذي واللفظ له عن ابي هريرة (رض) وقد صح عنه ﷺ انه كان اذا سمع وهو في الصلاة بكاء طفل تجوز في صلاته - اي اختصرها وخففها - رحمة به وبأمه ، وروى ابن اسحاق ان بلالا رضي الله عنه مرَّ بصفية وبابنة عم لها على قتلى قومها اليهود بعد انتهاء غزوة قريظة فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب وهي تصيح وتبكي ، فقال ﷺ له « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمرّ بالمرأتين على

قتلاهما » وجاء اعرابي اليه صلى الله عليه وسلم فقال : انكم تقبلون أولادكم وما نقبلهم . فقال له ﷺ « أو أملك لك(١) أن نزع الله الرحمة من قلبك؟» رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة [رض] والمراد إني لا أملك ان أشعرك بما لا تشعر به لأن الله نزع الرحمة من قلبك فأجعلك رحيما

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطير والحشرات وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وأمهاتها . جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يا رسول الله انني لما رأيتك أقبلتُ فمررت بغيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، وكشفتُ لها عنهن فوقعتْ عليهن، فلففتها معهن بكسائي فهن أولاء معي ، فقال « ضعهن » قال: ففعلت فأبت أمهن إلا لزومهن، فقال ﷺ « أتعجبون لرحمة أم الافراخ بفراخها ؟ قالوا نعم، قال : والذي بعثني بالحق للهُ أرحم بعباده من أم الافراخ بفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن وأمهن معهن » فرجع بهن . رواه ابو داود من حديث عن عامر الرامي (رض) وروى مالك والبخاري ومسلم وابو داود من حديث أبي هريرة مرفوعا حديثين خلاصتهما ان الله غفر لرجل ولامرأة بغيّ (أي مومس) لأن كلا منهما رأى كلبا قد اشتد به العطش فرحمه وأخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه . قالوا له يارسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال « في كل كبد رطبة أجر » ورواه احمد عن عبد الله بن عمر وسراقة بن مالك بلفظ « في كل ذات كبد حرّى أجر »

وقال ﷺ « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » رواه الترمذي وابو داود من حديث عبد الله بن عمرو (رض)

١) قوله أو املك همزته للاستفهام الانكاري والواو مفتوحة وما بعدها معطوف على محذوف تقديره اتكون هكذا وأملك لك من الله شيئا غيره وقوله أن نزع بفتح همزة أن وتقدير لام التعليل أو باء السببية قبلها أي بأن نزع الرحمة من قلبك

ورويناه مسلسلا بالأولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد ابي المحاسن القاوقجي وقال ﷺ «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحوش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة — وفي رواية — ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن من النار» رواه البخاري ومسلم والترمذي اهـ

***

هذا ولو كان القرآن بأسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غيّر ما بأنفس العرب فغيروا به أمم العجم ، فكانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله (٣ : ١١٠ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) ولم يكن عند العرب شيء من العلم بسياسة الامم وإدارتها إلا هذا القرآن ، والاسوة الحسنة بمبلغه ومنفذه الاول عليه الصلاة والسلام ، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم الا اذا عادوا إلى هدايته وتجديد ثورته ، ولعنة الله على من يصدونهم عنه زاعمين استغناءهم عن العمل به وبسنة مبينه ـ بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحيي الايمان، ويعلي الهمم ويزكي الأنفس ويبعث على الجهاد بالانفس والاموال

اما وحق القرآن علينا ، والله لم ينزل غيره الينا ، انه لا يغنينا عن تدبره والاهتداء به ، ولا عن فهم سورة واحدة من سوره، جميع ما في الارض من الكتب المنزلة ولا من الكتب المصنفة وما فتن الشيطان هذه الأمة بشيء كما فتنهم بصدهم عن تهذيب أنفسهم وتزكيتها بالقرآن والسنة المبينة له، وعن دعوة جميع أهل الملل به اليه ، وقد بينا لك الفرق بين تأثيره وتأثير التوراة ، وهاك إجمالا لما فعله في الامة العربية ثم في العالم

(فعل القرآن في أنفس الامة العربية)

وإحداثها به أكبر ثورة عالمية

تهوّد أناس من العرب وتنصر منهم أناس آخرون من قبل الاسلام بقرون ، وكان كل منهم يمدح دينه ويدعو اليه بالطبع ، فلم يعادِ الجمهور أحدا منهم أو يحتقره لدينه ، بل كان لزعماء اليهود المستعربين وشعراء النصارى من العرب عندهم مكانتهم اللائقة بهم كأمثالهم من المشركين ، ولم يكن لليهودية ولا للنصرانية أدنى صولة في مكة ، ولا خافها رؤساء قريش على زعامتهم الدينية ولا الدنيوية ، فلما قام فيهم محمد بن عبدالله يتلو عليهم القرآن باسم الله ، زلزلت الارض بهم زلزالها ، وثاروا عليه ثورتهم الصغرى ، ثم ثارت الأمة به ومعه ثورتها الكبرى ، وهي التي بدلت الارض غير الارض ، والقلوب غير القلوب ، والعقول غير العقول ، وقلبت نظام الاجتماع العام

قد كان فعل القرآن في أنفس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم على نوعين : أولهما أحدثه من الزلزال في المشركين . وثانيهما تزكيته للمؤمنين ونزعه كل ما كان بأنفسهم من جهل وظلم وفساد ، حتى أعقب ما أعقب من الاصلاح في العالم كله ، وأمهد لبيان ذلك بكلمة في حالهم في عصر ظهور الاسلام

بينا مراراً ان الله تعالى قد أعد الامة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أراده من الاصلاح العام للبشر بكونهم كانوا أقرب الامم الى سلامة الفطرة ، وأرقاهم لغة في التعبير والتأثير ، وأقواهم استقلالا في العقل والارادة ، لعدم وجود ملوك مستبدين فيهم يضعفون إرادتهم ويفسدون بأسهم ، ويذلون أنفسهم بالقوة القاهرة ، ولا رؤساء دين اولي سلطان روحي يسيطرون على عقولهم وقلوبهم ، ويتحكمون في عقائدهم وأفكارهم ، ويسخرونهم لشهواتهم ، وكانت جميع الأمم ، ذات الحضارة والملل ، مستعبدة مستذلة لزعماء هاتين الرياستين ، حاش العرب

فلما بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن الداعي الى الحق والى صراط مستقيم ،

كانوا على أتم الاستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم: في التمتع بالثروة الواسعة، والعظمة الكاذبة، والشهوات الفاتنة، والسرف في الترف، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الاديان فيها من المكانة الدينية بسدانتهم لبيت الله الحرام، الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام - فرأوا ان هذا الدين الحر يوشك أن يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يفضل عليهم بعض الفقراء والموالي، وانه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آبائهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الانعام - فوجهوا كل قواهم ونفوذهم الى صد محمد عن دعوته ولو بتمليكه عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب، حتى التمويل والتمليك، فقد أجاب عمه أبا طالب لما عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا « ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله او أهلك فيه ما تركته » حينئذ أجمعوا امرهم على صده عن تبليغها بالقوة والحيلولة بينه وبين جماهير الناس في الاسواق والمجامع والبيت الحرام، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية الا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة او جوار او ذمة، فهؤلاء الرؤساء المترفون المسرفون المتكبرون، كانوا أعلم الناس بصدق محمد، وفيهم نزل قوله تعالى (٦ : ٣٣ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّه لَيَحْزُنُكَ الذى يَقولونَ، فإِنَّهم لاَ يُكَذِّبونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالمينَ بِآيَاتِ اللهِ يجحدونَ) فقد كابروا الحق بغياً واستكباراً للحرص على رياستهم وشهواتهم، وكانوا أجدر العرب بقبول دعوة القرآن لأنهم أدق الناس لها فهما، وأوسعهم باعجازها علما، ولكنهم عتوا عنها عتواً (٢٧ : ١٤ وَجَحَدوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا) كفرعون وقارون وهامان في آيات موسى .

فعل القرآن في أنفس مشركي العرب

قلنا ان فعل القرآن في أنفس العرب كان على نوعين : فعله في المشركين وفعله في المؤمنين ، فالأول تأثير روعة بلاغته ، ودهشة نظمه وأسلوبه، الجاذب لفهم دعوته والايمان به . إذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها ، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية

فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لأبي جهل التي اعترف فيها بأنه الحق الذي يعلو ولا يعلى. والذي يحطم ما تحته، وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه، وما استطاع ان يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح ابي جهل عليه باقتراحها إلا بتكاف لمكابرة عقله ووجدانه، وبعد ان فكر وقدر، ونظر وعبس وبسر، وأدبر واستكبر، كما تقدم (في ص٩٢)

وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رءوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلا لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته ، على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم عنه، وتواصيهم وتقاسمهم لا يسمعنّ له، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين، ويتلاقون في الطريق متلاومين .

وهذا التأثير للقرآن هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق (رض) من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ، لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب إلى الاسلام ، وعللوا ذلك بأنه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم، فاتخذ مسجداً له بفناء داره فطفق النساء والاولاد الناشئون ينسلون من كل حدب إلى بيته ليلا لاستماع القرآن، فنهاه أشراف المشركين بأن العلة لا تزال، وانهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الاسلام ، حتى ألجئوه إلى الهجرة فهاجر فلقي في طريقه ابن الدغنة[1]

[1] هو بضم الدال المهملة المشددة عند اهل اللغة و بكسرها عند رواة الحديث وكسر الغين المعجمة ، وفي تخفيف النون وتشديدها روايتان

سيدقومه فسأله عن سبب هجرته فأخبره الخبر، وهو يعرف فضائل ابي بكر من قبل الاسلام فأجاره وأعاده إلى مكة بجواره، أي حمايته ومنعه منهم.

وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة من صحيحه وفيه ما نصه: فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة (أي أجازته) وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فانا نخشى ان يفتن نساءنا وأبناءنا [1] فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث ابو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لابي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقذف عليه [2] نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون اليه، وكان ابو بكر رجلا بكاء لايملك عينيه اذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك، على ان يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا ان يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه، فان أحب ان يقتصر على ان يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا ان يعلن بذلك فسله أن يرد اليك ذمتك، فانا قد كرهنا ان نخفرك [3] ولسنا مقرين لابي بكر الاستعلان. قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فاما أن تقتصر على ذلك وإما ان ترجع إليّ ذمتي، فاني لا أحب أن تسمع العرب اني أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر فاني أرد اليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل. اه

«١» اي يحولهم عن دينهم الي دينه بتأثير قراءته للقرآن وخشوعه وبكائه فيها

«٢» من التقذف اي يتدافعون و يزدحمون فيقذف بعضهم بعضا عليه، وفي رواية فينقذف بالنون. و يروي يتقصف وينقصف عليه.

(٣) أخفره نقض عهده وأبطله

قلنا إن هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي ﷺ بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعه ، حتى انهم كانوا يقذفونه بالحجارة، وهو سبب تواصيهم بما حكاه الله تعالى عنهم في قوله (٤١:٢٦ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسة(١) فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية إن محمدا لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى، وقال في الرد عليهم : ان محمدا كان يقرأ القرآن خاشعا أواها متألها فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الايمان مالم تفعله جميع آيات الانبياء الاولين (أقول) ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الفنون المبوبة ، لما كان لقليله وكثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلة

ومن الشواهد الكثيرة على صحة قول هذا الفيلسوف ماروي أن كبراء قريش اجتمعوا فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا وشتت امرنا وعاب ديننا ،فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه، فقالوا ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا أنت ياأبا الوليد - فجاء النبي ﷺ فكلمه فيما قالوا عنه، وما يخافون من عاقبة أمره أن يفضي الى قيام بعضهم على بعض بالسيوف ، وعرض عليه كل ما يمكن أن يريده من المال والرياسة والتزوج بعشر من خير نساء قريش، حتى اذا أتم كلامه تلا عليه النبي ﷺ سورة (حم السجدة) او فصلت(٤١) حتى بلغ قوله تعالى (١٣ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) قام عتبة فأمسك على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه . فلما رجع اليهم وجدوه متغيرا فقالوا اقد صبأ (أي مال) الى محمد وقص عليهم خبره وما وقع من

---

(١) رأيت شيخنا الاستاذ الامام محمد عبده يطالع في كتاب قال لي انه لأحد فلاسفة فرنسة وأسمعني منه ما ذكرت خلاصته هنا ولم أحفظ اسم الكتاب ولا اسم مؤلفه منه، وقال ان الكلمة التى وصف بها النبي (ص) في حال القراءة تدل على أنه كان يكون متأثرا في نفسه ومؤثرا في غيره، وأنه لا يعرف كلمة عربية بمعنى هذه الكلمة الفرنسية

الرعب في قلبه من قراءته. ومما قاله: وقد علمتم ان محمداً اذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب. وفي رواية انه قال: كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له اهـ مختصراً من رواية المحدثين وهو مفصل في السيرة النبوية

كان كل ما يطالبه النبي صلى الله عليه وسلم من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس إذ قال تعالى مخاطباً له (٦: ١٩ قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً؟ قل اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم، وأُوحيَ إليَّ هذا القرآنُ لأنذرَكم بهِ ومَن بلَغ) أي وأنذر به كل من بلغه من غيركم من الناس، وقال في آخر سورة النمل (٢٧: ٩١ إنما أُمرتُ أنْ أعبدَ ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها ولهُ كل شيءٍ، وأُمرت أنْ أكونَ من المسلمين ٩٢ وأنْ أتلوَ القرآنَ: فمَن اهتدى فإنَّما يهتدِي لنفسه، ومَنْ ضلَّ فقلْ إنَّما أنا من المنذِرِين (٩٢) وقلِ الحمدُ لله سيُريكم آياتهِ فتعرِفونها وما ربُّكَ بغافلٍ عمَّا تعملونَ).

ان رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس إلى الاسلام بوقعه في أنفسهم ما لم يعرفه غيرهم، وعرفوا انه ليس لجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود والمكابرة، فقال لهم عمه ابو لهب من أول الامر: «خذوا على يديه قبل أن تجتمع العرب عليه» ففعلوا. وكان من ثباته صلى الله عليه وسلم على بث الدعوة واحتمال الأذى ما أفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الايذاء له ولمن يؤمن به، حتى ألجؤهم إلى الهجرة بعد الهجرة، ثم اجماع الرأي على قتله، لولا أن خرج من وطنه مهاجراً، ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته وما حولها، وينصره الله عليهم، إلى أن اضطروا إلى عقد الصلح معه في الحديبية سنة ست من الهجرة. وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين، وهو الذي كان سبب سماعهم للقرآن، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجاً، فكان انتشار الاسلام في أربع سنين بالسلم والامان، أضعاف انتشاره في ست عشرة سنة من أول الاسلام.

فعل القرآن في أنفس المؤمنين

كان كل من يدخل في الاسلام قبل الهجرة يلقن ما نزل من القرآن — ليعبد الله بتلاوته — ويعلَّم الصلاة ولم يفرض في مكة من أركان الاسلام غيرها، فيرتل ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التهجد بالليل من أول الاسلام، قال تعالى في أول سورة المزمل ٧٣ (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا) ثم قال في آخرها (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك، والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم، فاقرؤا ما تيسر من القرآن) أي في صلاة الليل وغيرها، ثم ذكر الاعذار المانعة من قيام الليل كله ما كان منها في ذلك العهد كالمرض والسفر، وما سيكون بعد سنين وهو القتال في سبيل الله

ومما ورد في صفة الصحابة (رض) ان الذي كان يمر ببيوتهم ليلا يسمع منها مثل دوى النحل من تلاوة القرآن، وقد غلا بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساؤهم فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، وكان هو يصلي في كل ليلة إحدى عشرة ركعة يوتر بواحدة منهن، وما قبلها مثنى مثنى، وكان هو يطيل فيهن حتى تورمت قدماه من طول القيام فأنزل الله عليه مرفها ومسليا (٢٠: ١ طه ٢ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) الخ

فتربية الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية، وزكتها تلك التزكية التي أشرنا اليها آنفا، وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ،

إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة وتدبره ، وربما كان أحدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها ، وكانوا يقرءونه في كل حال حتى مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله (٣: ١٩١ الذين يذكرون الله قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبهم) وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى ، وصفاته المقدسة ، وأحكامه وحكمه ، وسننه في خلقه ، وأفعاله في تدبير ملكه ، كما تقدم

وقد وصف الله تعالى فعل القرآن في هؤلاء المؤمنين بقوله (٣٩ : ٢٣ اللهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الحَديث كِتاباً متشابِهاً مَثانيَ تَقْشَعِرُّ مِنه جُلودُ الذينَ يَخشَوْنَ رَبَّهم ثمَّ تَلينُ جلودهمْ وقلوبُهمْ إلى ذِكرِ اللهِ) الآية

ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع ، وتغيير الاوضاع ، بل لكانت تلاوته تملّ فتترك ، فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفا من أعظم أنواع إعجازه اللغوي ، وتأثيره الروحي ، ومن ارتاب في هذا فلينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه وليحاول كتابتها نفسها أو مثلها ، بأسلوب تلك السورة ونظمها أو أسلوب سورة أخرى ، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالاجمال الموجز تارة وبعض التفصيل تارة و بالاطناب فيه أخرى ، كالاعتبار بقصص الرسل مع أقوامهم في سور المفصل (كالذاريات والقمر والحاقة) وفيما فوقها (كالمؤمنون والشعراء والنمل) وفيما هو أطول منها (كالاعراف وهود) ثم لينظر مايفضي اليه عجزه من السخرية ، والتكرار المملول ، الذي يغشى منه الذوق غثيانا ، تمجه القلوب وتستفرغه استفراغا

وقد بين غوستاف لوبون في كتابه (روح الاجتماع) ان تكرار الدعوات

الدينية والسياسية والاجتماعية في الخطب والمقالات التي تثير الجماعات وتدعهم (بتشديد العين تدفعهم بعنف) إلى الانهماك والتفاني فيها دعًّا ـ هو الذي يثبتها في القلوب ، ولذلك يعتمد عليه خطباء السياسة ورؤساء الاحزاب ومؤسسوها ، وكذلك التجار وغيرهم فيما ينشرونه من الاعلانات في الصحف ويعلقونه في الشوارع، (ونقول) ما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا ، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والاقوام، فوق ما يعلمه حكماء عصرنا وسائر الاعصار، وإنما القرآن كلامه ، وليس فيه من التكرار ، إلا ماله أكبر الشأن في انقلاب الافكار ، وتغيير ما في الانفس من العقائد والاخلاق ولو جمعت أبلغ خطب رجال السياسة التي أحدثت التأثير في أحزابهم وقرئت بعد ذلك مرارا قليلة لسارع الملل إلى نفس كل قارىء حتى أتباع ذلك الخطيب أنفسهم ، وقراءة القرآن لا يملها أحد يفهم معانيها ، ويذوق حلاوة أسلوبها

ألا وإن تقليب القلوب والافكار ، لأعسر من فلق الصخور وتحويل الجبال ، وقد ضرب الله المثل لهذا بقوله (٥٩ : ٢١ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وهكذا كان تأثير القرآن في العرب فهذا مثلهم ، وأما مثل بني اسرائيل بعد رؤيتهم آيات الله لموسى فقوله لهم بعد سردها (٢ : ٧٤ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

حسبنا ما بينا به تأثير القرآن وما أحدثه من الثورة العربية العالمية من ناحية أسلوبه ونظمه، وتكراره المعجز للبشر بشكله ، ونقفي عليه باصلاحه واعجازه بموضوعه ، وهو تعاليمه الدينية والسياسية والمدنية وغيرها فنقول :

الفصل الخامس

في مقاصد القرآن ، في تربية نوع الانسان

وحكمة ما فيه من التكرار في الهداية وإعجازه بالبيان

ان مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم ، وإدخالهم في طور الرشد ، وتحقيق اخوتهم الانسانية ووحدتهم، وترقية عقولهم ، وتزكية أنفسهم : منها ما يكفي بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مراراً قليلة ، ومنها ما لا تحصل الغاية منه إلا بتكراره مراراً كثيرة ، لأجل أن يجتث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ، ويغرس في مكانها أضدادها ، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتي أكله ، ويبدو صلاحه ، ويينع ثمره ، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة ، ومنها ما لا يمكن كماله الا بالتدريج ، ومنها ما لا يمكن وجوده الا في المستقبل ، فيوضع له بعض القواعد العامة ، ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكناية

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط، فلا يكفي أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في متون الفنون وكتب القوانين ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية (٦٢: ١ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم (٢) هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) فآياته المتلوة هي سور القرآن ، المرشدة الى سننه في

الاكوان ، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الاسوة ؛ والكتاب هو الكتابة التي تخرج العرب من أميتهم ، والحكمة هي العلوم النافعة الباعثة على الاعمال الصالحة ، وما يسمى في عرف شعوب الحضارة بالفلسفة ، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الاقطاب الثلاثة

وانتا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ما جاء به محمد ﷺ هو أعلى وأكمل مما جاء به من قبله جميع الانبياء والحكماء والحكام ، فهو برهان علمي على انه من عند الله تعالى ؛ لا من فيض استعداده الشخصي ، وإننا نقسم هذه المقاصد الى أنواع ، ونبين حكمة القرآن وما امتاز به في كل نوع منها بالاجمال ، لأن التفصيل لا يتم الا اذا يسر الله لنا إنجاز ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر الى ذلك المقصد ، وكون القرآن وفى بهذه الحاجة بما نأتي به من جملة آياته فيه ، وانما هذا الفصل نموذج منه

المقصد الاول من مقاصد القرآن

(في بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة)
(التى دعا اليها الرسل وضل فيها أتباعهم)

ان أركان الدين الاساسية التي بعث الله تعالى بها جميع رسله، وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة المبينة بقوله (٢ : ٦٢ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وهاك الكلام على كل واحد منها بالايجاز، لان المراد هنا بيان أن ما جاء به القرآن منها هو أتم وأكمل من المعروف في سائر الاديان، وفيه صلاح لما أفسد اهل الملل من دين الانبياء، بما طرأ على كتبهم من الضياع والتحريف، وما ابتدعوا فيه من الاهواء والتقاليد، وليس المراد بيانها في ذاتها بالتفصيل الذي يتوقف عليه العمل، حتى إذا ثبت ما نقصده من نبوة محمد ﷺ وكون هذا القرآن كلام الله عز وجل أوحاه اليه، علم منه انه يجب على المؤمن به أن يتعلم جميع ما فرضه عليه

وهذه الاركان الثلاثة تدل عليها آثار الملل القديمة البائدة كالمصريين والكلدانيين، وبقايا كتب أممها الباقية كالهنود والمجوس والصينيين، وغرضنا في هذا الكتاب أن نبين لجميع الشعوب المتدينة ان ما هم عليه من الدين ليس هو عين ما أوحاه الله الى رسله الذين ظهروا في أسلافهم، ولا هو بالمصلح لهم في أنفسهم وأعمالهم، وأن الاسلام هو الدين الحق الثابت عقلا ونقلا، المبين لكل ما يحتاجون اليه من الهداية. وبهذا الاعتبار جعلناها مقصدا واحدا لا ثلاثة، وجعلنا المقصد الثاني التالي له في موضوع الرسل والرسالة

(الركن الاول للدين . الايمان بالله تعالى)

إن الركن الاول الأعظم من هذه الاركان — وهو الايمان بالله تعالى — قد ضل فيه جميع الاقوام والامم حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل ، فاليهود على حفظهم لأصل عقيدة التوحيد ، قد غلب عليهم التشبيه ، وغاب عنهم أن يجمعوا بين النصوص المتشابهة في صفات الله وبين عقيدة التنزيه . فقد جعلوا الله كالانسان يتعب ويندم على ما فعل كخلقه الانسان لانه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله أومثل الآلهة(١) وزعموا انه كان يظهر في شكل الانسان حتى انه صارع اسرائيل ، ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه (٢) وعبدوا بعلا وغيره من الاصنام

والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، واتخذوا المسيح ربا وإلها وعبدوا القديسين وصورهم حتى صارت كنائس النصارى كهيا كل الوثنية الاولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة ـ على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء التي جعلوها أساس الدين بل الدين كله ـ هي عقيدة الهنود في كرشنة وثالوثه في جملتهـا وتفصيلها ، وهي مدعومة بفلسفة خياليـة غير معقولة ، وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقياصرة ، وتبذل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويربى عليه الاحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهانا ، فعمر الشرك بالله هذه الارض بطوفانه ، وطغت الوثنية على أهلها

هدم القرآن معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة في الافكار والقلوب ، وما كان ليتم هذا باقامة برهان عقلي أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل ، بل لا بد فيه

---

(١) في سفر التكوين (٣ : ٢٢ وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر) وفيه (٦ :٦ فحزن الرب (وفي ترجمة اخرى فندم) أنه عمل الانسان وتأسف في قلبه) (٢) راجع آخر الفصل ٣٢ من سفر التكوين

من دحض الشبهات ، وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والمواعظ الخطابية بالعبارات المختلفة وضرب الامثال، لذلك كان أكثر المسائل تكراراً في القرآن مسألة توحيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ماسواه من الموجودات سواء في كونهم ملكا وعبيداً له ،لايملكون من دونه نفعاً ولا ضراً لأحد ولا لأنفسهم إلا فيما سخره من الاسباب المشتركة بين الخلق

وأما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني ، فليس لاقناع المعطلين والمشركين بربوبيته تعالى فقط ، بل أكثره لاقامة الحجة به على بطلان شرك العبادة بدعاء غير الله تعالى لاجل التقرب اليه بأولئك الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده،فشر الشرك وأوغله في إفساد عقائد المؤمنين بالله من ضعفاء العقول ، وحملهم على التدين بالاوهام والخرافات، المخالفة لما أثبتته التجارب من سنن الله في المخلوقات [1] انما هو توجه العبد الى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة اليه من كشف ضر وجلب نفع من غير طريق الاسباب ،فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لإنه روح العبادة ومخها، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله ، وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي من تعليم الوحي فهو يغذيها وينقيها من شوائب الآراء ،وينفي عنها تقاليد الاهواء

١) اشتدت وطأة البرد في شتاء هذا العام وجاءت الأنباء من الشرق والغرب بكثرة الثلوج في اقطارهما الشمالية و بعض المعتدلة فعلل بعض المسلمين سلامة مصر منها بوجود اهل البيت فيها يعني القبور المشيدة لاسماء بعضهم فبينت لمن سمعت منهم ذلك خطأهم من الناحية الدينية ومن ناحية سنن الله تعالى في اسباب الحر والبرد والمطر والثلج،وكون وجود القبور أو اهلها لاشأن له في ذلك. وحدث في هذا الشتاء زلزال عظيم في الهند هدم به بعض البلاد، ماعدا المعابد الوثنية في بعضها فاعتقد أهلها ان سبب بقائها عناية الله بحفظها لرضاه عن عبادتهم فيها . وانما سببه قوة بنائها فان أكثر معابد الامم قوية البناء تمر عليها القرون وتفنى سائر الأبنية وهي باقية .

بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى وحده ، وبعضها نهي عن دعاء غيره مطلقا ، ومنها حجج على بطلان الشرك أو على اثبات التوحيد ، ومنها أمثال تصور كلا منهما بالصور اللائقة المؤثرة ، ومنها اخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب ، وان كل من يدعى من دونه تعالى فهو عبد له ، وان أفضلهم وخيارهم كالملائكة والأنبياء يدعونه هو ويبتغون الوسيلة اليه ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله ويتبرءون منهم ، وأمثال ذلك مما يطول شرحه ، بل يضيق المقام عن تلخيصه

وثم أنواع أخرى من آيات الايمان بالله تعالى تغذي التوحيد ، وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله والتوله في حبه ، من التنزيه والتقديس والتسبيح له . وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والارث والاموال ، وبحكمه في الخلق والتدبير لأمور العالم ، وسننه في طباع البشر وفي شئونهم الاجتماعية . ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من علم وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة ورحمة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن الأمر بالتوكل عليه والخوف منه لاجلاله أو لعدله ، والرجاء في رحمته وفضله ، وناهيك بما سرد منها سرداً لجذب الأرواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها في شهوده عن شهودها ، بله أهواءها وشهواتها ، كما تراه في فاتحة سورة الحديد (٥٧ : ١ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الخ وفي آخر سورة الحشر (٥٩ : ٢٢ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ

الغَيبِ والشَّهادةِ هو الرَّحمنُ الرَّحيم(٢٢)هوَ اللهُ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ الملكُ القدُّوسُ السَّلامُ المؤمِنُ المهَيمِنُ العَزيزُ الجبَّارُ المتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكونَ (٢٣) هوَ اللهُ الخَالقُ البَارِئُ المصَوِّرُ لهُ الأسماءُ الحُسْنَى، يُسَبِّحُ لهُ مَا في السَّمـوٰتِ والأرْضِ، وَهوَ العَزيزُ الحكِيمُ) فهذه الأسماء الالهية هي ينابيع الحياة الروحية في القلوب، ومشرق أنوار المعارف الالهية على العقول، ومنها استمد الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الحكم السامية، والكتب العالية في معرفته تعالى وأسرار خلقه، والادعية والقصائد في حبه ومناجاته، بعد أن تربوا بكثرة ذكره وتلاوة كتابه

وهذا هو الغرض الأول من أمر القرآن المؤمنين بذكر الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ليكون الله تعالى غالبًا على أمرهم، كما قال في وصف يوسف عليه السلام (١٢ : ٢١ والله غالب على أمره) فيمقتون الباطل والشر، ويكون كل حظهم من الحياة الحق والخير، لما يثمره الذكر لهم من صلاة الله عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات الى النور كما قال عز وجل (٣٣ : ٤١ يَا أيُّهَا الذينَ آمَنوا اذْكُروا اللهَ ذِكْرًا كثِيرًا (٤٢) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصِيلًا (٤٣) هوَ الذي يُصَلِّي عَلَيكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلمَاتِ إلى النُّورِ، وَكانَ بِالمؤْمِنِينَ رَحِيما)

بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول، طهر الله عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية، وزكاها بالاخلاق العالية والفضائل السامية، وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه، وصار يرتله في عبادته ويتدبر آياته، حتى إذا دب في الشعوب الاسلامية دبيب الجهل بلغة القرآن، وقل تدبره الذي فرضه الله عليهم، واعتمد المسلمون في فهم

عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ، وفي أعمال عباداتهم على كتب الفقه الجافة ، وفي تزكية أنفسهم على الاوراد البشرية المؤلفة ، ضعف التوحيد في قلوب الكثيرين ، وشابته شوائب الشرك الاصغر ثم الاكبر ، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع(١) اعتقاداً وعملا ، وتأولا وجدلا ، فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة في التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم وتقاليدهم المبتدعة ، وهجروا القرآن هجرا غير جميل ، وعاقبهم الله بما أوعدهم كما هو مشاهد ومعلوم

على أن بعض المتكلمين قد تأولوا صفات الله تعالى بنظرياتهم الجدلية ، وبعض الصوفية قد بالغوا في التوحيد وفهم الصفات أو حملها على الاذواق والوجدانات الروحية ، حتى أنكر بعضهم تأثير الاسباب في مسبباتها ، وانتهى بهم ذلك إلى بدعة الجبر التي أفسدت على أهلها كل شيء ، وقال بعضهم بوحدة الوجود ، بيد أن الاولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم اليه النظر العقلي . أو رياضة النفس وما تثمره من الشعور الوجداني ، مع الاعتماد في فهم النصوص على صميم اللغة والمأثور عن السلف ، ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لا حظ لهم من القرآن ولا من البرهان ولا من الوجدان ، وإنما يتبعون اهواء العوام ويتأولون لهم بكلام أمثالهم من المصنفين الجاهلين ، ولو فقهوا أقصر سورة في التوحيد والتنزيه كما يجب — وهي سورة الاخلاص — لما وجد الشرك الى أنفسهم سبيلا

إن عقيدة التوحيد القرآني هي أعلى المعارف التي ترقي الانسان الى اعلى ما خلق مستعدا له من الكمال الروحي والعقلي والمدني . وقد صرح كثير من علماء

---

(١) أي مصداقا لقول النبي (ص) « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال « فمن » ؟ رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

الافرنج ان سهولة فهم هذه العقيدة وموافقتها للعقل والفطرة هما السبب الاكبر لقبول الامم له وانهزام النصرانية من أمامه

قد كان توحيد المسلمين الاولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم ، وأعلى هممهم ، وكملهم بعزة النفس ، وشدة البأس ، وإقامة الحق والعدل ، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الامم ، وإعتاقها من رق الكهنة والاحبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحي والعقلي ، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، وإقامة دعائم الحضارة ، وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك مالم يقع مثله ولا مايقاربه لأمة من أمم الارض ، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير في كتابه (تطور الامم) ان ملكة الفنون لايتم تكوينها لأمة من الامم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال : اولها جيل التقليد وثانيها جيل الخضرمة وثالثها جيل الاستقلال والاختصاص. قال: الا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الاول الذي بدء وافيه بمزاولتها

وأقول :ان سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد الاصم الاعمى ، وتوطين أنفسهم على إمامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معاً ، وقد خفي كل هذا على سلائلهم بعد ذهاب الخلافة الاسلامية ، وزوال النهضة العربية . وتحول السلطان إلى الاعاجم الذين لم يكن لهم من الاسلام إلا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن

(الركن الثاني للدين. عقيدة البعث والجزاء)

الايمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الاعمال، هو الركن الثاني للدين الذي بعث الله به الرسل عليهم السلام، وبه يكمل الايمان بالله تعالى ويكون باعثا على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان، وكان جل مشركي العرب ينكرونه أشد الانكار، وأما أهل الكتاب وغيرهم من الملل - التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني، ثم فقدت كتبهم أوحرفت واستحوذت عليهم الوثنية - فكلهم يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء يختلفون في صفتها لا في اصلها، ولكن إيمانهم هذا قدشابه الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجل فائدته في إصلاح الناس، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين، وخلائف النصارى المتبعين لدين القيصر قسطنطين، هو وجود المخلص الفادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه، وهو الاقنوم الثاني من الثالوث الالهي الذي هو عين الاول والثالث، وكل واحد منها عين الآخر. وكل ما تقوله النصارى في فداء المسيح للبشر وغير ذلك من ولادته الى رفعه فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنة وبوذا في اللفظ والفحوى كما تقدم، فلا يختلفان إلا في الاسمين كرشنة ويسوع (١)

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب اسرائيل، وادعاء محاباة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة، ويسمونه إله اسرائيل، كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية، فكان

«١» عقيدة التثليث والفداء معروفة في وثنية قدماء المصريين والبابليين والاوربيين أيضاً وقد فصل ذلك في كتاب خاص بالشواهد التاريخية اسمه «العقائد الوثنية، في الديانة النصرانية» تأليف الأستاذ محمد طاهر التنير البيروتي وطبع سنة ١٣٣٠

فساد الايمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد الركن الاول وهو الايمان بالله تعالى ومعرفته ومحتاجا إلى الاصلاح مثله

جاء القرآن للبشر بهذا الاصلاح ، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول وهو ما كرم الله تعالى به الانسان من جعل سعادته وشقائه منوطين بايمانه وعمله، اللذين هما من كسبه وسعيه، لا من إيمان غيره وعمله ، وان الجزاء على الكفر والظلم والفساد في الارض ، يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب ، والجزاء على الايمان والاعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة

وقد نص القرآن على ان ماجاء به من هذا الاصلاح هو ما أوحاه إلى ابراهيم أبي الانبياء المعروفين الذين يدين الله بنبوتهم اليهود والنصارى ، وإلى موسى والانبياء الذين كانوا من بعده على شرعه، فقال (٥٣ : ٣٥ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٦) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٧) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٨) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٩) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٤٠) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤١) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)
أي ان أصل دين الله لجميع رسله أنه لا تحمل نفس وازرة أي خاطئة خطيئة نفس أخرى بفداء ولا غيره، وأنه ليس للانسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره ، ويدخل في عموم عمله ما يكون سببا له كالذي يعمله ولده او تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه ، وما يسنه من سنة حسنة أو سيئة فله مثل جزاء من يعمل بها من بعده ، الاصل الجامع في ذلك قوله تعالى (٩١ : ٧ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٨ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٩ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ١٠ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

أي إن الله الذي خلق هـذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل ، قد جعلها بالهام الفطرة والغريزة مستعدة للفجور الذي يرديها ويدسيها (١) والتقوى التي تنجيها وتعليها، ومتمكنة من كل منهما بارادتها، والترجيح بين خواطرها ومطالبها ، ومنحها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر، فبقدر طهارة النفس وأثر تزكيتها بالايمان ومكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال يكون ارتقاؤها في الدنيا وفي الآخرة ، والضد بالضد . فالجزاء أثر طبيعي للعمل النفسي والبدني ولذلك قال تعالى (٦ : ١٣٩ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) ، وهذا هو الحق الذي يثبته من عرف حقيقة الانسان، وحكمة الديان، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الأديان

فاذا علمت ما كان من إنكار مشركي العرب للبعث والجزاء ، ومن فساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكملة للايمان بالله تعالى، وأن تذكرها هو الذي يقوي الوازع النفسي الذي يصد الانسان عن الباطل والشر والظلم والبغي ، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر — علمت أن إصلاحها ما فعل فعله العاجل في شعب كبير إلا بتكرار التذكير بها في القرآن، بالاساليب العجيبة التي فيه من حسن البيان ، وتقريب البعيد من الاذهان ، تارة بالحجة والبرهان، وتارة بضرب الامثال ، وقد تكرر في آيات بينات ، لعلها تبلغ المئات » ومن إعجازه أنها لاتمل ولا تسأم ، بل لا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها ، وان تقارب جنسها ونوعها وترادفت سورها . فتأمل ذلك في سور المفصل ، تر تكرار الكلام على البعث والجزاء فيها بما لا يخطر على بال بشر من اختلاف الاسلوب والنظم

---

١) أصل معنى دساها أخفاها مبالغة من دسه في التراب واستعملت هنا ضد زكاها، فاذا كان معنى زكاها طهرها فاظهرها واعلى قدرها فمعنى دساها دنسها بما يدفن جميع مزاياها كأنها ليست نفسا ناطقة واصل دساها دسسها قلبت السين الثانية ياء وله نظائر

والفواصل ولا سيما المتناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ ، والنازعات مع عبس ، والتكوير مع الانفطار ، والمطففين مع الانشقاق ، وغيرهن

قلنا ان الايمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثاني في جميع الاديان، من لوازم الركن الاول وهو الايمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العبث في أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله بعد ذكر البعث وجزاء الكافرين في آخر سورة المؤمنون(٢٣:١١٥ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟)وقوله في آخر سورة القيامة (٧٥ :٣٦ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟) فكفر الانسان بهذا الركن من أركان الايمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه ، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم ، وبتفضيله على أهل عالمه (الارض) حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه، وعلى كثير ممن خلق في عالم الغيب الذي وعده بمصيره إليه ، ويستلزم جهله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل ، وجهله بحكمته في خلقه مستعداً لما ليس له حد ونهاية من العلم ، الدال على انه خلقه لحياة لا حد لها ولا نهاية في الوجود —

ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خلق عبثاً لا لحكمة بالغة ، وان وجوده في الارض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنغص بالهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام ، وأنه يترك سدى لا يجزى كل ظالم من أفراده بظلمه ، وكل عادل وفاضل بعدله وفضله، وإذ كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الافراد ، تعين أن يكون جزاء الآخرة هو المظهر الأكبر للعدل العام ، كما قال تعالى (٣ : ١٨٥ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

ومن أبدع أساليبه المكررة الجامعة وأروعها المحاجة في النار بين الاتباع والمتبوعين والغاوين والمغوين والضالين والمضلين من شياطين الانس والجن ، وبراءة بعضهم من بعض ، ومنه التنادي والتحاور بين أهل الجنة وأهل النار

البعث الانساني جسماني روحاني

ومما جاء في القرآن مخالفا لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء أن الانسان في الحياة الآخرة يكون انسانا كما كان في الدنيا، إلا أن أصحاب الانفس الزكية والارواح العالية يكونون أكمل أرواحا وأجساداً مما كانوا بتزكية أنفسهم في الدنيا ، وأصحاب الانفس الخبيثة والارواح السافلة يكونون أنقص وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا ، ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الغابرين، أن الاديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد الا أنهم ظنوا بعد رسلهم أن أجسادهم تبقى بعد موتهم فيبعثون بها عينها، ولكن بين القرآن أن كل من على الارض فانٍ ، وانها تكون بقيام الساعة هباء منبثا، وقال علماء العقائد من اهل السنة ان بعث الاجساد يكون بعد العدم التام ، وقال تعالى (٥٦: ٦٠ نحنُ قدَّرنَا بينَكُم المَوْتَ وما نحنُ بمَسبوقينَ ٦١ عَلى أَنْ نبدِّلَ أَمْثَالكم ونُنْشِئَكُمْ في ما لا تَعلمونَ ٦٢ ولقَدْ عَلِمتُمُ النَّشأةَ الأُولى فلوْلا تذَكَّرونَ)

ولو كان البعث للارواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرَّم من الخلق، المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجثمانية ، ويتحقق بحكم الله « جمع حكمة » وأسرار صنعه فيهما معاً، من حيث حرم الحيوان والنبات من الاولى والملائكة من الثانية، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم للذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها، وانما تكون نقصا في الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها، حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان أو أضعفها، — وأصل هذا الافراط والتفريط غلو الهنود في احتقار

الجسد، وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضات الشاقة ، وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث ، على أنهم نقلوا ان المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم : إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي (متى ٢٦:٢٩) وجرى اليهود على عكس ذلك ، وجاء الاسلام بالاعتدال فأعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملا في إنسانيته، مرجحا لروحانيته على حيوانيته ، متزودا من دنياه لآخرته

ويؤخذ مما ورد في الآيات والاحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ان القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الاجساد فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة ، وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة ، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة وأهل النار — وإن ترقي البشر في علم الكيمياء وخواص الكهرباء والصناعات والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الانسان ، بعد أن كان الماديون الملحدون يعدون مثل قوله تعالى (٧:٤٤ ونادى أصحابُ الجنَّةِ أصحابَ النَّارِ أنْ قَدْ وجَدْنَا ما وَعدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجَدْتُم ما وَعدَ ربُّكُم حقًّا؟ قالوا نعَمْ، فأذَّنَ مؤذِّنٌ بينَهُم: أنْ لعنَةُ اللهِ على الظَّالمينَ) من تخيلات محمد صلوات الله وسلامه عليه — وهانحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوربة بالمسرّة (بالكسر آلة التلفون) ونسمع خطبهم ومعازفهم بالمذياع (آلة الراديو) وسنراهم ويروننا بآلة التليفزيون(١) مع التخاطب حينما يعم انتشارها

وأما علماء الروح من الافرنج وغيرهم فقد أثبتوا ان الارواح البشرية تكون بعد الموت قادرة على التشكل في أجساد تأخذها من مادة الكون كالملائكة والجن، وكما يقول الصوفية في الانس. وهذه مسألة أو مسائل قد شرحناها من قبل في تفسير المنار وإنما نذكرها هنا بالاجمال رداً على من زعموا ان القرآن مستمد من كتب اليهود

«١» هي آلة حديثة بها ينظر الانسان من يكلمه على بعد مهما يكن سحيقا

والنصارى ومن عقل محمد صلى الله عليه وسلم الباطن وإلهاماته الروحية

ويناسب هذا ماجاء في القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التي هي بدء مايجب الايمان به من عقيدة البعث والجزاء، ولم يوجد له أصل عند أهل الكتاب ولا غيرهم، ولاهو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذكائه و نظرياته العقلية، وجملته ان قارعة ـ والظاهر انها كوكب ـ تقرع الارض قرعا، وتصخها صخًّا، وترجها رجًّا، فتكون هباء منبثاء أي غباراً دقيقا متفرقا في الفضاء، وحينئذ يختل ما يسمى في عرف العلماء بسنة الجاذبية العامة، فتتناثر الكواكب ثم يدخل العالم في طور جديد هو المراد بالحياة الآخرة(١). وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال أحد من علماء الكون ولا من علماء الدين، فلا يمكن أن يقال ان محمداً ﷺ سمعه من أحد في بلده أو في سفره، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التي تدحض زعم القائلين بالوحي النفسي. وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه. وسنفصل ذلك بالشواهد على ما جاء في القرآن موافقا لأصول العلم الحديث في ملحقات الكتاب، من الجزء الثاني له،

ولقد كان اعظم آيات الجزاء تأثيرا في انفس العرب وصف نعيم الجنة وعذاب النار ببلاغته العجيبة في المبالغة التي امتازت بها لغتهم، وفيها مايدل على انها غيبية مخالفة للمعهود في الدنيا كقوله تعالى في صفة النار (١٠٤:٧ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) وفي الجنة (١٧.٣٢ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) وقوله بعد ذكر النعيم الحسي (٩ : ٧٢ ورِضْوانٌ مِنَ اللهِ أكبر) وناهيك بمناجاته تعالى ورؤيته التي انكرها وتأول نصوصها المعتزلة ومن تبعهم وعدوها من المتشابهات ولا غرو فكل أمور الآخرة متشابهات، قال تعالى في ثمرها (٢ : ٢٥ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) قال ابن عباس (رض) في تفسيرها. لايشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا الا في الأسماء. فكيف يشبه خالقها شيئا من خلقه ؟

«١» اقرأ سورة الواقعة والقارعة والتكوير والانفطار

(الركن الثالث للدين العمل الصالح)

الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل - وهو العمل الصالح - أثر لازم للايمان بالله وبالحساب والجزاء في الآخرة وثمرة له ، وهو يمده ويستمد منه ، فكل من الايمان والعمل يغذي الآخر ويقويه ، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر، فمن فسد إيمانه فسد عمله وكان رياء ونفاقا أو تقليداً صوريا ، فلا يكون العمل صالحا مصلحا لعامله إلا بجعله على الوجه الذي شرعه الله لأجله . وهذا مكرر في القرآن في سور كثيرة لإصلاح ما أفسده البشر فيه بجعله تقليديا غير مزك للنفس ولا مصلح لشئون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذي هو الاصل الذي يتبعه غيره ، على أنه يقرنه به ،

ولولا الحاجة إلى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكانت سورة العصر وحدها كافية في الاصلاح العلمي العملي على قصرها، كسورة الاخلاص في الركن الاول الاعتقادي، وكل منهما تكتب في سطر واحد، فهما من معجزات ايجاز القرآن وهدايته، وكسورة الزلزال في الركن الثاني وهي تكتب في ثلاثة أسطر. وقد روى الامام أحمد والطبراني في الكبير أن صعصعة بن معاوية أتى النبي ﷺ فقرأ عليه (٩٩ : ٧ فَمَنْ يَعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيرًا يرَهُ ٨ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يرَهُ)

فقال حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها . وروي ان بعض الأعراب سمع النبي ﷺ يقرؤها فقال يارسول الله: أمثقال ذرة ؟ قال « نعم» . فقال الأعرابي واسوأتاه : ثم قام وهو يقولها فقال النبي ﷺ « لقد دخل قلبَ الاعرابي الايمانُ » وروي عن زيد بن أسلم (رضى) أن النبي ﷺ دفع رجلا الى رجل يعلمه فعلمه حتى بلغ هذه الآية فقال : حسبي فذكر الرجل المعلم ذلك للنبي ﷺ فقال له « دعه

فقد فقه » نقل هذه الروايات وغيرها السيوطي في الدر المنثور عن مخرجيها ، ومنها أن بعض كبار الصحابة كان ربما يعطي المسكين حبة عنب ويقول إن فيها ذرات كثيرة ، اهتداء بهذه الآية وبقوله ﷺ في حديث مسلم « لا تحقرن من المعروف شيئا » .

فتدبر هذا تعلم منه قدر استعداد عقول العرب لهداية القرآن ، وكيف صلحت به أنفسهم وصاروا أئمة الناس في الاصلاح ، آمن بعضهم بأنه يرى في الآخرة جزاء عمله خيره وشره وان قل فكان كالذرة ، فوطن نفسه على عمل كل ما استطاع من الخير ، وترك كل عمل من الشر ، وهذا فقه الدين كله كما شهد له مبلغ الدين ﷺ

انما كان العمل الصالح من لوازم الايمان بالله في الدرجة الاولى ، لان من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الايمان بالجزاء على الاعمال في الدرجة الثانية خوفا من العقاب ورجاء في الثواب ، فالاركان الثلاثة يمد بعضها بعضاً بمقتضى هداية الانبياء الموافقة للفطرة الانسانية ، دون تقاليد الوثنية التي لا شأن فيها لعلم الانسان ولا عمله في سعادته ، لان مدارها على ايمانه بوجود الفادي الشفيع ، أو على إقراره به وإن كان لا يعقله ، بل ينكره عقله ، وتأباه فطرته ، وقد أبطل القرآن عقيدة الفداء والشفاعة الوثنية في آيات عديدة

ويدخل في الاعمال الصالحة العبادات المفروضة التي يتقرب بها الى الله تعالى ، وسائر أعمال البر التي ترضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم ، وإكرام اليتامى والمساكين : ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الاسراء وهي (١٧ :٢٣ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ

ولا تنهرهما(١) وقل لهما قولاً كريماً ٢٤ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ٢٥ ربكم أعلم بما في نفوسكم، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً ٢٦ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ٢٧ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ٢٨ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ٢٩ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً(٢) محسوراً ٣٠ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ٣١ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ٣٢ ولا تقربوا الزنا، إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ٣٣ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل (٣) إنه كان منصوراً ٣٤ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسئولاً ٣٥ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم، ذلك خير وأحسن تأويلاً ٣٦ ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع

(١) كلمة (أف) تدل على أقل التضجر، والانتهار الاغلاظ في الانكار، والقول الكريم هو ألطف ما يقال وأدله على الادب والاحترام (٢) أي ملوما من الناس وفي حسرة من نفسك (٣) السلطان هو القصاص والاسراف فيه قتل من لم يثبت عليه القتل

والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولـئكَ كانَ عنهُ مسئولاً ٣٧ ولا تمشِ في الأرضِ مرَحاً، إنكَ لن تخرقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولاً ٣٨ كلُّ ذلكَ كان سيئُه عندَ ربكَ مكروهًا ٣٩ ذلكَ مما أوحى إليكَ ربُّكَ منَ الحكمةِ ، ولا تجعلْ معَ اللهِ إلـهًا آخرَ فتلقَى في جهنَّمَ ملومًا مدحورًا

هذه الآيات أجمع وأعظم من الوصايا العشر التي في التوراة . وتأمل آيات الوصايا في سورة الانعام (٦: ١٥١-١٥٣) وآية البر في سورة البقرة (٢: ١٧٧) وغير ذلك من آيات الحث على الفضائل ، والزجر عن الرذائل ، والمعاصي الضارة بالابدان والاموال، والأعراض والعقول والاديان ، ومثارها الاكبر اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان، ويضادهما ملكة التقوى، فهي اسم جامع لما يقي النفس من كل ما يدنسها وتسوء به عاقبتها في الدنيا أو الآخرة ، ولهذا تذكر في المسائل الدينية والزوجية والحربية وغيرها ، وهاك كلمة وجيزة في الموضوع

سنة القرآن في تهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال

والفرق بينها وبين كتب الفلسفة والآداب

القرآن كتاب هداية فعلية ، لا كتاب فن وعلم نظري ، فهو يرشد متدبره والمتفقه فيه إلى داعيتي الحق والخير والباطل والشر من نفسه، وإلى طريق تزكيتها بمحاسبتها على أعمالها، لتغليب الحق والخير على ضدهما ، وتجد هذا التهذيب والتثقيف فيه يدور على أمرين فطريين لا يتوقف فهمهما على فلسفة ارسطو ولا ابن سينا ، وهو مجاهدة النفس بالتخلي عن اتباع الهوى ، والتحلي بفضيلة التقوى، وقد تكرر فيه ذم اتباع الهوى والنهي عنه وتعليله بأنه يصد متبعه عن الحق والعدل في زهاء

ثلاثين آية ، وتكرر ذكر التقوى والمتقين في زهاء مائتي آية أو أكثر ، وأكتفي هنا بذكر آية واحدة في كل منها

قال الله تعالى في عبادة الهوى بعد أن ذكر لنبيه ﷺ أنه آتى بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وفضلهم على عالمي زمانهم ، وآتاهم بينات من الامر أمر التشريع فاختلفوا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم . ثم ذكر له أنه جعله على شريعة من الأمر ، وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع اهواء الذين لا يعلمون وهم المشركون الذين لا شريعة لهم ، وأعلمه أن الظالمين من الذين تفرقوا بعد العلم فكان ضلوا بهم ومن الذين لا يعلمون بعضهم اولياء بعض والله ولي المتقين دون كل منهم . وان هذا القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ، وانه تعالى لن يجعل الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا في المحيا ولا في الممات . وانه خلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت لا كما يزعم المشركون من تركهم سدى ، ولا كما يدعي اهل الكتاب من كونه تعالى يحابي بعض الشعوب وبعض الناس بأنسابهم او لأجل من يفديهم ويشفع لهم . قال تعالى بعد آيات في هذه المعاني:

(٤٥ : ٢٣ أفرأيتَ من اتَّخذ إلهه هواه وأضلَّه الله على علمٍ وختمَ على سمعِه وقلبِه وجعلَ على بصرِه غشاوةً ؟ فمنْ يهديه من بعدِ الله أفلا تذكَّرونَ) وفي معناها من سورة الفرقان (٢٥ : ٤٣ أرأيتَ مَن اتخذَ إلهَهُ هواهُ أفأنتَ تكونُ عليهِ وكيلاً ٤٤ أمْ تحسَبُ أنَّ أكثرهم يسمعونَ أو يعقلونَ ؟ إن هم إلاَّ كالأنعامِ بلْ هم أضلُّ سبيلاً)

وقال تعالى في ثمرة التقوى للمؤمنين بعد عدة وصايا (٨ : ٢٩ ياءيها الذين آمنوا إنْ تتَّقوا الله يجعلْ لكم فُرقانًا ويكفِّر عنكم سيِّئاتكم

و يَغْفِرْ لَكُم وَاللهُ ذو الفَضْلِ العَظِيم) وقد قلت في تفسير هذه الآية من جزء التفسير التاسع ما مختصره :

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين في هذا السياق وهي أعمها والاصل الجامع لها ولغيرها ، وكلمة الفرقان فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى في مجيئها هنا مطلقة ، فالتقوى هي الشجرة ، والفرقان هو الثمرة ، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناها في أصل اللغة الفصل بين الشيئين أو الاشياء ، والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والحكم الحق فيها ، ولذلك فسروه بالنور ؛ وذلك أن الفصل والتفريق بين الاشياء والامور في العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الاجمال الى حيز التفصيل . وإنما العلم الصحيح هو العلم التفصيلي الذي يميز بين الاجناس والانواع والاصناف والاشخاص ، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات ، والبسائط والمركبات ، والنسب بين أجزاء المركبات، من الحسيات والمعنويات ، ويبين كل شيء من ذلك ويعطيه حقه الذي يكون به ممتازاً من غيره ، وإيراد الامثلة على ذلك يطول (وقد ذكرنا نموذجا منها في التفسير)

فقوله تعالى (يَاءَيُّها الذِينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجعَلْ لَكُم فُرْقانًا) معناه إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه ، وبمقتضى سننه في نظام خلقه ، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل ، وتفصلون بين الضار والنافع ، وتميزون بين النور والظلمة ، وتزيلون بين الحجة والشبهة . وقد روي عن بعض مفسري السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل ، وهو عين ما فصلناه من الفرقان العلمي الحكمي . وعن بعضهم بالنصر يفرق بين المحق والمبطل ، بما يعز المؤمن ويذل الكافر ، وبالنجاة من الشدائد في الدنيا ومن العذاب في الآخرة ، وهذا من الفرقان العملي الذي هو ثمرة العلمي . ذكر كلٌّ ما رآه مناسبا لحال وقته أو حاله

من فتنه ذلك ، ولم يقصد تحديد المدلول اللغوي ، ولا المعنى الكلي الذي هو ثمرة التقوى بأنواعها . وهذا النور في العلم الذي لا يصل اليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة

أمر الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه باتقائه وباتقاء النار وباتقاء الشرك والمعاصي وباتقاء الفتن العامة في الدول والامم وتقدم في وصايا هذا السياق . وباتقاء الفشل والخذلان في الحرب وباتقاء ظلم النساء وبين أن العاقبة في إرث الارض للمتقين كما أن الجنة في الآخرة للمتقين. وقال (٦٥: ٢ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (٤) وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٥) وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) وأمثال ذلك في التقوى العامة والخاصة وأجرها وعاقبتها كثير

فمعنى التقوى العام اتقاء كل ما يضر الانسان في نفسه وفي جنسه الانساني القريب والبعيد، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة والكمال الممكن . ولذلك قال العلماء : انها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي وفعل ما يستطاع من الطاعات .وزدنا على ذلك اتقاء الاسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى في الكون، كالنصر على الاعداء وجعل كلمة الله هي العليا في الارض، كما هي في الواقع ونفس الامر . وكلمة الذين كفروا السفلى كذلك. وكمال ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة، وكمال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى في الانسان مجتمعا ومنفردا كما أرشد اليه في آيات من كتابه، ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الاشياء التي تعرض له من علم وحكم وعمل، فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه، وبين ما ينبغي فعله وما يجب تركه . وتنكير الفرقان للتنويع التابع لأنواع التقوى، كالفتن في السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم،

فكل متق لله في شيء يؤتيه فرقانا فيه، وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من خلفاء العرب أعدل حكام الأمم في الارض حتى في عهد الفتح . قال بعض حكماء الافرنج : ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب ، ولكنهم لم يتقوا فتن السياسة والرياسة لقلة اختبارهم، فعوقبوا عليها بتفرقهم فضعفهم فزوال ملكهم، وكان من بعدهم من أعاجم المسلمين دونهم لجهلهم بكل نوع من أنواع التقوى الواجبة ، وحرمانهم من فرقانها ، فهم يزعمون أنهم يجددون مجدهم، مع جهل هذا الفرقان المبين ، وعدم الاعتصام بالتقوى المزكية للنفس ، المؤهلة لها للاصلاح في الارض ، بل مع انغماسهم في السكر والفواحش لظنهم أن الافرنج قد ترقوا في دنياهم بفساقهم وفجارهم ، وإنما ترقوا بحكمائهم وأبرارهم، الذين وقفوا حياتهم على العلم والعمل النافع (وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) هذا عطف على (يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) أي ويمحو بسبب هذا الفرقان وتأثيره ما كان من تدنيس سيئاتكم لأنفسكم فتزول منها داعية العود إليها المؤدي إلى الاصرار المهلك ، ويغفرها لكم بسترها وترك العقاب عليها (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) ومن أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظيم بقسميه السلبي والايجابي جزاء للتقوى وأثراً لها اه تفسير الآية مختصراً

سنة القرآن في الارشاد الى العبادات

وأما سنة القرآن في الارشاد إلى الاعمال الصالحة فهي بيان أصولها ومجامعها وتكرار التذكير بها بالاجمال ، وأكثر مايحث عليه من العبادات الصلاة التي هي العبادة الروحية العليا، والاجتماعية المثلى، والزكاة التي هي العبادة المالية الاجتماعية الكبرى . كرر الامر بهما في آيات كثيرة ، وبين أهم منافعها بقوله (٢٩ : ٤٥ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفَحشَاءِ والمنكرِ ، ولَذِكرُ اللهِ أكبرُ ، واللهُ يعلمُ مَا تصنعونَ) وقوله (٧٠ : ١٩ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هلوعًا ٢٠ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جزوعًا ٢١ وإِذَا مَسَّهُ الخيرُ منوعًا ٢٢ إِلاَّ المصلِّينَ ٢٣ الذينَ هُمْ على صَلاتِهم دائمون ٢٤ والذين في أموالهم حقٌّ معلومٌ ٢٥ للسَّائلِ والمحرُوم)

ولم يكرر فيه مايحفظ بالعمل والاقتداء بالرسول من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج بل لم يذكر منها الا ما لذكره فائدة خاصة . وذكرت فيه أحكام الصيام في موضع واحد من السورة الثانية، ولم يذكر فيه عدد الركعات في كل صلاة ولا عدد الركوع والسجود، ولا نصاب الزكاة في كل نوع مما تجب فيه، لان كل هذا يؤخذ من بيان الرسول ويحفظ بالعمل، وليس في ذكره تزكية للنفس ولا تغذية للايمان، وسيأتي بعض فوائد الزكاة في الكلام على إصلاح القرآن المالي من المقصد السابع

وسنعقد في ملحقات الكتاب من الجزء الثاني منه فصلا في اسرار العبادات الاسلامية من روحية واجتماعية وصحية نبين به فضلها وامتيازها على جميع عبادات الملل الأخرى . فيعلم به انه لولم يجيء محمد ﷺ بغيرها لنهضت برهانا على نبوته . وإ كمال الله الدين به

ترجيح فضائل القرآن على فضائل الانجيل

نحن نؤمن بأن انجيل المسيح عليه السلام هدى ونور بشهادة القرآن له وان كنا لا نعرفه ، وانما نؤمن انه هداية خاصة مؤقتة، لا عامة دائمة ،وان الله تعالى انما أكمل دينه ووحيه بالقرآن، ففضائله أتم وأكمل ، وأعم وأشمل وأبقى وأدوم

وأذكر فضيلتين من فضائل الانجيل بزعم النصارى أن ماهو مأثور عندهم فيهما أكمل وأفضل مما جاء به الاسلام (الاولى) قول المسيح عليه السلام « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى من يبغضكم ، ومن ضربك على خدك الايمن فأدر له الايسر »(*) ومن المعلوم بالبداهة أن امتثال هذه الاوامر يتعذر على غير الأذلة المستعبدين من الناس ، وانه قد يكون من أكبر المفاسد باغراء الاقوياء بالضعفاء الخاضعين ،وإنك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين

أمثال هذه الاوامر لا تأتي في دين الفطرة العام لان امتثالها من غير المستطاع، والله تعالى يقول (٢ : ٢٨٦ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا) وإنما قرر القرآن في موضوعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة . قال تعالى (٤٢ : ٤٠ وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلى اللهِ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٤١ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فأُولَئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبيلٍ ٤٢ إِنَّما السَّبيلُ عَلى الذينَ يَظْلِمونَ النَّاسَ وَيَبْغونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ ٤٣ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمورِ)

ولا يخفى أن العفو والمغفرة للمسيء إنما تكون من القادر على الانتصار لنفسه؛

«*» راجع هذه الأوامر في أواخر الفصل الخامس من انجيل متى

وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه ، فيكون سبباً لاستبدال المودة بالعداوة ، في مكان الاغراء بالتعدي ودوام الظلم . ولذلك قال (٤١ : ٣٤ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٣٥ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

فانظر كيف بين مراتب الكمال ودرجاته من العدل والفضل، وكيف استدل عليه بما فيه من المصلحة وحكم العقل، أفليس هذا الاصلاح الأعلى على لسان أفضل النبيين والمرشدين ، دليلا على أنه وحي من الله تعالى قد أكمل به الدين؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. ولا يجحده إلا من سفه نفسه فكان من الجاهلين

(الثانية) مبالغة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا والامر بتركها وذم الغنى حتى جعل دخول الجمل في نقب الابرة أيسر من دخول الغني ملكوت السموات . ونقول ان هذه المسألة وسابقتها إنما كانتا إصلاحا مؤقتا لإسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم ، وآثروا دنياهم على دينهم ، والغلو يقاوم موقتا بضده . وكذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود وغيرهم دولة مسرفة في الظلم والعدوان ، والفسق والطغيان

وأما الاسلام فهو دين البشر العام الدائم فلا يقرر فيه إلا ماهو لمصلحة الناس كلهم في دينهم ودنياهم . وهو في هذه المسألة ذم استعمال المال فيما يضر من الاسراف والطغيان ، وذم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه والبخل به عن الفقراء والضعفاء . ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه وإنفاقه في سبيل الله بما ينفع الناس ويعز الملة ويقوي الامة، ويكون عونا لها على حفظ حقيقتها واستقلالها. وسترى في المقصد الثامن ماهو أعظم من هذا في إصلاحه المالي

فهذه المسألة وما قبلها مما أكمل الله تعالى به الدين، فيما أوحاه من كتابه الى محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وما كان لرجل أمي ولا متعلم ان يصل بعقله الى أمثال هذا الاصلاح لتعاليم الكتب السماوية التي يتعبد بها الملايين من البشر ولكتب الحكماء والفلاسفة أيضا فهل الاقرب الى العقل أن يكون بوحي من الله عز وجل ، أم من نفس محمد ﷺ؟

ومهما أنس من شيء فلن أنسى أول كلمة في المفاضلة بين فضائل الاسلام والمسيحية طرقت سمعي ووعاها قلبي، أتحسبون أنني سمعتها من أحد شيوخنا الاعلام كالعلامة الشيخ حسين الجسر او الاستاذ الامام ؟ لا لا ، انما سمعتها من أكبر وجهاء النصارى في طرابلس الشام ، (اسكندر كاستفليس) الذي كان قنصل دولتي روسية وألمانية معا ، جئته من قبل والدي في مسألة مالية وأنا تلميذ ، وكان يسمع انني عصري حر الفكر ، فلما انتهى الحديث الذي جئته من أجله فتح لي باب الحديث في الامور القومية والوطنية والترقي العصري ، فسمع مني انتقادا لتقصير مسلمي بلادنا وتأخرهم عن غيرهم خلافا لما يرشدهم اليه دينهم ولم يكن يتوقع هذا مني ، فعاملني بمثل حريتي ، على ما كان يصفه به وجهاء بلادنا من التعصب الديني السياسي لا الاعتقادي ، وكان مما قاله هذه الكلمة : ان في الاسلام فضائل كالجبال او أشمخ وأرسخ ولكنكم دفنتموها حتى لا تكاد تعرف او ترى ، ونحن عندنا شيء قليل ضئيل ككلمة « حب الله والقريب » فما زلنا نعظمه ونمده ونقول الفضائل المسيحية حتى ملأ الدنيا كلها

(شبهة فلسفية على عمل الخير لمرضاة الله تعالى)

على ذكر الفلاسفة أذكر شبهة لمقلدتهم على الفضائل وعمل الخير بهداية الدين يلوكونها بألسنتهم ولا يعقلون فسادها، وهي أن الكمال البشري أن يعمل الانسان الخير لذاته أو لانه خير لا لعلة ، ويعدون من أكبر العلل أن يعمله لمرضاة الله او رجاء في ثواب الآخرة أو خوفا من عقابها. حتى انني قرأت لكاتب اشتهر بأنه يمدح

الاسلام ويدافع عنه مقالا يهذي فيه بهذه الفلسفة. ومعنى هذا إن كانوا يفقهون ان من النقص في الانسان أن يقصد بعمل الخير والبر ما أرشد اليه الدين من تزكية نفسه وترقية روحه، بحيث تكون راضية مرضية عند رب العالمين ذي الكمال المطلق الأعلى وأهلا لجواره في دار كرامته. وإنما يكون كاملا اذا خرج عن طبعه، وقصد بعمله النفع لغيره دون تزكية نفسه ودون إرضاء ربه، أو عمل العمل لذاته أي لا لمصلحة ولا منفعة فيه، وهذا سفه وعبث ينزه عنه العقلاء

(فان قيل) بل تقصد به المصلحة عامة أو المنفعة الخاصة بغير العامل (قلنا) ان هذا مما شرعه الدين وجعله مما يرضي الله تعالى وينال به ثوابه، فهل تشترطون في كونه خيراً أن يكون فاعله كافراً بالله لا يبتغي رضوانه ولا ثوابه، وأن يحب نفع الناس بشرط أن لا ينتفع هو بعمله فيما لا يضرهم؟ ألا ان هذا لمن الحماقة والسفه، لا من الحكمة والفلسفة

مثال ذلك ان جميع الصدقات الواجبة والمستحبة من الخير الذي يفضل بها المؤمن غيره على نفسه وأهله، وقد مدح الله الايثار على النفس، حتى مع الحاجة والفقر، من أنصار نبيه ﷺ ورضي عنهم، وذم الرياء فيها وفي كل عمل وهو منفعة دنيوية. وقلما يفعل غير المؤمن خيرا إلا لأجل الرياء والسمعة. أفتقولون انه مع هذا من الخير، وانما يخرجه من محيط الخير، أن يرتفع به إلى القربة عند الله عز وجل؟ وأي خير وفضل وكمال. أعلى من القرب الى ذي العزة والجلال؟

وجملة القول ان أركان الدين الثلاثة مأثورة عن جميع الملل القديمة، وذلك دليل على أن أصلها واحد وهو الوحي وهداية الرسل، وأنه كان قد دب اليها الفساد بتعاليم الوثنية وبدعها، فجاء محمد النبي الامي بهذا القرآن من عند الله تعالى فأصلح ما كان من فسادها، الذي جعلها غير كافلة لسعادة البشر الآخذين بها، من شوب الايمان بالله بالشرك، وتشبيه الخالق بالخلق، وجعل الجزاء بالمحاباة و الفداء، لا بالحق والعدل، وجعل العبادات تقاليد كاللعب واللهو، غير مثمرة لتزكية النفس، ولا راجحة في ميزان العقل، فجاءت عبادات الاسلام وآدابه كلها معقولة مكملة لفطرة الانسان

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

بيان ماجهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفراداً من بقايا الحنفاء في الحجاز وغيره ، ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلهما ، وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص الله تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده، وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب اسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الانبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته ، وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم في المقصد الاول، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الانبياء من رسل المسيح وغيرهم من البابوات والعباد ، وعبدوهم أيضاً ، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكارهم إياه في وقت الشدة ، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه، وأنه لمن اكبرهم وسماه شيطانا وانه قال لهم « كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أربابا من دون الله تعالى بأن نحلوهم حق التشريع الديني من وضع العبادات والتحليل والتحريم(١) وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله، وعموم رحمته وفضله ، ومن مفسدات نوع الانسان، وجعل السواد الاعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين (ص)

(١) راجع تفصيل هذا في (ص ٢٦٣) من جزء التفسير العاشر

بعثة الرسل في جميع الأمم ووظائفهم

قال الله عز وجل (١٦ : ٣٦ ولَقَدْ بعَثْنا في كلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنْ اعْبُدوا اللهَ واجْتَنِبوا الطّاغوتَ ، فمِنهُمْ مَنْ هَدى الله ومِنهُمْ مَنْ حقَّتْ عليْهِ الضَّلالةُ) وقال (٣٥ : ٢٤ إنّا أرْسلْناكَ بالحقِّ بشيراً ونذيراً وإن مِن أُمَّةٍ إلاّ خلا فِيها نذير) وكرم الله الانسان بجعل التشريع الديني من حقوقه وحده ، وانما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الاقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته ، فقد أبطل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع ، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين ، وبذلك تحرر الانسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الامم المتدينة ولا سيما البوذيين والنصارى

ولضلال جميع أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الاصلاح في كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحي إليهم ، وبأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم . قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف(١٨: ١١٠ قُل إنَّما أنا بشَرٌ مِثْلُكم يوحى إليَّ أنَّما إلهُكُمْ إلهٌ واحِد) الآية وقال في جملتهم من وسطها (٥٦ وما نُرسلُ المرْسلِينَ إلاّ مُبشِّرينَ ومُنْذِرينَ)ومثلهما في سورة الانعام(٦: ٤٨)وفي معناها آيات اخرى

بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل ، لا متصرفين في الكون بالنفع والضر بأنفسهم ولا بتأثيرهم في ارادته تعالى. وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٨٨ قُل لا أمْلكُ لِنفسى نفعًا ولا ضرًّا إلاّ ما شاءَ اللهُ ولوْ كُنْتُ أعْلمُ الغيبَ لاستكْثَرْتُ مِنَ الخيرِ وما مسَّنيَ السُّوءُ ، إنْ أنا إلّا نذيرٌ وبشيرٌ لِقَوْمٍ يُؤمنونَ)وقد بين ذلك النبي ﷺ بأقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية والتواضع بما لا يدع لتأويل الآيات سبيلا. حتى

فطن لذلك بعض علماء الافرنج الاحرار فقال: إن محمداً لما رأى خزي النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بان يقولوا « أشهد ان لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

اطوار النصارى وما انتهوا اليه في الدين

ومن عجيب أمر النصارى ان وثنيي أوربة غلبوهم على دينهم لضعفهم وتفرقهم بعدم وجود نظام يجمع أمرهم بقوة حاكمة فتصدى لجمعهم الملك قسطنطين فانتزعهم من دين التوحيد الذي كان عليه ابراهيم وموسى وعيسى وسائر النبيين ، وأسس لهم كنائس تهيا كل قومه الوثنيين، ورياسة دينية رومانية تناوئ اليهود أو الساميين، إلا فاسفة بولس عدو المسيح والمسيحيين ، ثم وضع لهم الاحبار والاساقفة من اليونان والروم عقائد وعبادات وشرائع وشعائر كثيرة ، لم يبن شيء منها على أساس التوراة التي هي ناموس موسى (عم) ونقلوا عن المسيح انه قال وقوله الحق انه ماجاء لينقض الناموس وانما جاء ليتممه، ولكن هؤلاء الاوربيين نقضوه ووضعوا لأنفسهم نواميس أخرى مخالفة له ولما تممه به المسيح من الزهد وترك عبادة المال والشهوات والرياء وحب الرياسة والبغي والعدوان، وعادوا أتباعه اليهود في كل شيء

ولما بعث خاتم النبيين الذي بشر به موسى وعيسى والنبيون عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وبين للفريقين — اليهود والنصارى — مااختلفوا فيه من أمر الدين ورأوا اليهود والنصارى يتبعونه لعلمهم بأنه جدد لهم دين أنبيائهم عادوه وحاربوه كما تقدم ، ولكنهم استفادوا من نوره ﷺ ما حملهم على إصلاح كبير في دينهم قاتل عليه بعضهم بعضا حتى صارت أوربة فريقين متكافئين في القوة . وكل ذلك معروف بالتفصيل في العالم كله

ثم حدث بعد ذلك ان حزب دين الاصلاح (البروتستنت) ما زال

يتدرج فيما خالف فيه دين الكاثوليك والأرثوذكس وهو حرية البحث في الدين حتى صار الملايين من أتباعه لا يؤمنون بعصمة كتب العهد القديم ولا العهد الجديد ، ثم عقدوا مجامع ومناظرات قرروا فيها بطلان القول بألوهية المسيح

ثم حدث في هذا العام ان جاهر الجمهور الاعظم في الممالك الجرمانية بوجوب بناء دين الامة على قواعد جنسها الآري وهدم قواعد الجنس السامي الدينية وأنبيائه من بني اسرائيل فبرز البابا يناهضهم ويصرح بأنهم يعودون الى الوثنية (القديمة) فعلم من هذا الحدث الجديد ان الديانة النصرانية التي هدمها الشيوعيون في شرق أوربة وآسية (الروسية) وطفقوا يبثون الدعوة بهدمها هي وسائر الاديان ، والتي تلاحم الفاشيون من الجرمان بهدمها في قلب أوربة ـ ليست بالديانة التي تثبت في عواصف هذه الفتن الجديدة ، وإنما الذي يقوى على ذلك دين الاسلام وحده ، فلا سبيل إلى إنقاذ اوربة وسائر العالم من فوضى كفر التعطيل والاباحة إلا به

مسألة الشفاعة

وأما مسألة الشفاعة التي كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم في الدنيا ، وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة ، فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعاً وأنه لا يشفع عنده أحد إلا باذنه (٢١:٢٨ يعلمُ ما بينَ أيديهِمْ وما خلفَهُم ولا يشفعونَ إلّا لمنِ ارتَضى وهمْ منْ خشيتِهِ مُشفِقونَ ٢٩ ومَنْ يقُلْ مِنهمُ إنّي إلهٌ مِن دونِهِ فذلِكَ نَجزيهِ جهنّمَ كذلِكَ نَجزي الظّالِمينَ)وقد فصلنا ذلك في تفسير سورة البقرة وغيرها مراراً (ومنه ان الشفاعة الثابتة في الاحاديث غير الشفاعة الوثنية والنصرانية المنفية في القرآن) وقد كرر هذه المسألة في بضع وعشرين آية من السور المكية والمدنية

فأنت ترى ان القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التي ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله مالا يضرهم ولا ينفعهم. فهل كان هذا مما استمده محمد صلى الله عليه وسلم من علماء أهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على أقوامهم ؟ أم هو نابع من نفسه ، وهو يقتضي أن ماينبع منها أعلى من وحي الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟ كلا انما هي من وحي الله تعالى له

الايمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

ومما بينه القرآن في مسألة الانبياء والرسل أنه يجب الايمان بجميع رسل الله تعالى وعدم التفرقة بينهم في الايمان ، وان الايمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم ، لإن إضافتهم إلى الله تعالى واحدة ، ووظيفتهم في إرشاد المكلفين تبليغ رسالته وشرعه واحدة . قال تعالى في خواتيم سورة البقرة (آمَنَ الرَّسولُ بِما أُنْزِلَ إليهِ مِن ربِّهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِه ، لا نُفَرِّقُ بينَ أَحدٍ منْ رُسُلِه) وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الايمان هو الكفر حق الكفر ، وان الايمان بالجميع بغير تفرقة هو الايمان حق الايمان ، وهو في الآيات (٤ : ١٥٠ ـ ١٥٢)

وهذا مبني على الايمان بان دين الله تعالى الذي أرسل به جميع رسله واحد في اصوله ومقاصده من هداية البشر وإصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة ، وانما كانت تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الاقوام ، ومقتضيات الزمان والمكان ، حتي بعث الرسول العام بالأصول الموافقة لكل زمان ومكان ، مع الاذن بالاجتهاد في المصالح التي تختلف باختلاف الاطوار والاحوال ، فالايمان ببعضهم دون بعض في رسالتهم الالهية ، اتباع للهوى في الايمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به لأنه عين الكفر

وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون أهل الملل الوثنية من المجوس والهندوس، ودون أهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بأنبياء بني اسرائيل وأبيهم وجدهم، على ما يذكرون في كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمونهم بها (كما تقدم في ص ٢٨ و ٤٣)

وأما المسلمون فيؤمنون بأن رب العالمين أرسل في كل الامم رسلا هادين مهديين، فهم يؤمنون بهم إجمالا، وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلا، فقد كرم الاسلام بهذا نوع الانسان، ومهد به السبيل للالفة والاخوة الانسانية العامة التي نبينها بعد، فالمسلم صديق ومحب وحبيب لجميع الانبياء والمرسلين في الدنيا والآخرة، وتجاه هذا يصح أن يقال ان غير المسلم عدو لله ولهم كلهم، لان تكذيبه لبعضهم تكذيب لرسالتهم ولمرسلهم سبحانه

وهذه المزية لامة محمد (ص) من المزايا التي كانت بها حجة على سائر الامم وأهلا لمنصب الامامة فيها، قال تعالى (٢ : ١٤٣ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) فهي الوسط العدل في الايمان بجميع الرسل وما جاءوا به من اركان الدين الثلاثة كما بيناه في المقصد الاول وفي غير ذلك

واما شهادتها على الناس فهي تابعة لما كلفته من دعوة جميع الامم الى حقيقة دين الرسل التي تلقتها من خاتم النبيين ﷺ وحلت محله في الدعوة الى ما جاء به من بعده فهو ﷺ يشهد عليها يوم القيامة كما يشهد كل رسول على قومه الذين كانوا في زمانه كما قال تعالى (٤ : ٤١ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)

ومن المعلوم بنص القرآن ان بعض الانبياء والرسل أفضل من بعض بتخصيص الله تعالى، وبما كان لكل من عمل في نفع العباد وهدايتهم وهي متفاوتة جداً.

قال الله تعالى (٢ : ٢٥٢ تِلكَ الرُّسُلُ فَضَّلنا بعضَهُم على بَعْضٍ، مِنهُم مَن كَلَّمَ اللهُ ورفعَ بَعْضَهُم دَرَجاتٍ، وآتينا عيسى بنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ وأَيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ) ومن المعلوم بالدلائل العقلية والنقلية ان محمداً خاتم النبيين، الذي أكمل الله به الدين، وأرسله رحمة للعالمين، هو الذي رفعه الله عليهم كلهم درجات كما بيناه في تفسير تلك الآية بالاجمال [1] وفصلناه في هذا الكتاب أقصد التفصيل

وانك لتجد مع هذا أنه ﷺ قال لأتباعه « لا تفضلوا بين أنبياء الله» قاله إنكاراً على رجل من المسلمين لطم يهوديا لانه قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر . فشكاه إلى النبي ﷺ فغضب غضبا شديداً على صاحبه المسلم وقاله وبين مزية لموسى عليهما الصلاة والسلام في الآخرة ثم قال « ولا أقول ان أحداً أفضل من يونس بن متى » والحديث رواه الشيخان في الصحيحين، وفي روايات أخرى للبخاري « لاتخيروا بين الانبياء » وفي بعضها « لاتخيروني على موسى » والغرض من ذلك كله منع المسلمين من تنقيص أحد من الانبياء عليهم السلام، ومن التعادي بين الناس لأجلهم، ومن الغلو فيه ﷺ وإلا فهو قد قال في تعليل نهيه عن سؤال أهل الكتاب عن شيء « والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني » رواه أبو يعلى من حديث جابر

ذلك بأن مثل الانبياء كمثل ولاة الاقطار في مملكة واحدة، أو مثل قواد الجيش في المعسكرات المتفرقة لدولة محدودة، ومثل خاتمهم صاحب الرسالة العامة، كمثل القائد والوالي العام عند ارادة توحيد السياسة والقيادة، وهذا معنى تبشير الانبياء بمحمد ﷺ (٢) وأخذ الميثاق عليهم بوجوب الايمان به ونصره واتباعه اذا جاءهم فرضا كما تراه في قوله تعالى (٣ : ٨١ وإِذ أَخذَ اللهُ مِيثاقَ النبيين) الآية (٣)

«١» راجع أول ج ٣ تفسير (٢) راجع تفصيل ذلك في ص ٢٥١ ج ٩ منه
«٣» راجع تفسيرها في ص ٣٤٩ ج ٣ منه

بحث في الآيات الكونية التي أيد الله بها رسله

(وما يشبه بعضها من الكرامات، وما يشتبه بها من خوارق العادات)

(وضلال الماديين والخرافيين فيها)

تكلمنا في الفصل الثاني في آيات الانبياء التي تسميها النصارى بالعجائب ويسميها علماء الكلام منا بالمعجزات،ويعدونها قسما من خوارق العادات، وكان الكلام فيها هنالك للمقابلة والموازنة بين آيات الانبياء الكونية وآية خاتمهم الكبرى العلمية العقلية الدائمة وهي القرآن ، وتاثير كل في الاهتداء الى الايمان. ونأتي هنا ببحث آخر في تلك الآيات . ومايشبهها أو يشتبه بها من الكرامات، وسائر خوارق العادات، وما كان من إصلاح الاسلام لضلال البشر فيها . والصعود بهم الى أعلى مراقي الايمان، اللائق بطور الرشد العقلي لنوع الانسان، والعلم الواسع بسنن الاكوان،الذي منحوه برسالة محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام. فنقول:

آيات الله نوعان

آيات الله تعالى في خلقه نوعان: (النوع الاول) الآيات الجارية على سننه تعالى العامة المطردة في نظام الخلق والتكوين وهي أكثرها وأظهرها وأدلها على كمال قدرته وإرادته ، وإحاطة علمه وحكمته ، وسعة فضله ورحمته (والنوع الثاني) الآيات الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر . وهي أقلها ، وربما كانت أدلها عند أكثر الناس على اختياره عز وجل في جميع ماخلق وما يخلق ، وكون قدرته ومشيئته غير مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام هذا العالم،فالسنن مقتضى حكمته واتقانه لكل شيء خلقه ، وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة ، ولولا هذا الاختيار لكان العالم كالآلات التي تتحرك بنظام دقيق لاعلم لها ولا

إرادة ولا اختيار فيه ، كآلة الساعة الصغيرة التي تعرف بها أوقات الليل والنهار وآلات البواخر والمعامل الكبيرة، والماديون المنكرون لوجود الخالق والفلاسفة الذين يسمونه العلة الفاعلة للوجود يعبرون عن هذا النظام (بنظرية الميكانيكية) وهم يتكلفون اختراع العلل والاسباب لكل مايرونه مخالفا لسننه المعروفة، ويسمون مالا يهتدون إلى تعليله من الامور المخالفة لها بفلتات الطبيعة، ويقيسون مالم يظهر لهم تعليله على مااقتنعوا بتعليل له وإن لم يقم عليه دليل يثبته ، ويقولون إن مالم يظهر لنا اليوم فلا بد أن يظهر لنا أو لمن بعدنا غداً . وهذا دأبهم في جميع نظرياتهم العلمية إذ ليس عندهم علم قطعي بشيء منها . وهذا مرادهم من تسميتها بالنظريات ، فمعناها المسائل الموضوعة للنظر والبحث والاستدلال .

سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب

ونحن معشر المؤمنين بعالم الغيب وما فيه من الملائكة وهم جند الله الاكبر وما لهم من التأثير والتدبير في عالم الشهادة المادي باذن الله تعالى وتسخيره، نعتقد أن لله تعالى سننا في نظام ذلك العالم غير سننه الخاصة بعالم المادة ، وأن الانسان هو حلقة الاتصال بين العالمين بجسده ووظائفه الحيوية من عالم الشهادة ،وروحه من عالم الغيب ، وهو مادام في عالم الجسد المادي فان جميع مداركه تكون مشغولة بعالم المادة وسننها ، وحاجاته الشخصية والنوعية منها، فيحجبه ذلك عن عالم الروح الغيبي حتى روحه وهي الفصل المقوّم لحقيقته ، وانما يكون الظهور والسلطان للروح على الجسد في الحياة الآخرة ، إلا من اصطفى الله تعالى من رسله وأنبيائه فأعدهم بفضله ورحمته للاتصال بملائكته والتلقي عنهم ، وأظهرهم على ماشاء من غيبه ليبلغوا عباده عنه ما أمرهم به ، وقد يشرف غيرهم من الاصفياء وأصحاب الرياضات النفسية على بعض الخواص الروحية دون ما يطلع عليه الله أنبياءه ورسله عليهم السلام

الغيب قسمان حقيقى و إضافي

الغيب ماغاب علمه عن الناس وهو قسمان: غيب حقيقي لا يعلمه إلا الله، وغيب إضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض لأسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي ، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب لانه من خصائص النبوة غير المكتسبة (١)

ومن دونهم أفراد من خواص أتباعهم أوتوا نصيبا من الاشراف على ذلك العالم بانكشاف ما للحجاب، وإدراك ما لشيء من تلك الانوار، كان بها إيمانهم برسلهم فوق إيمان أهل البرهان . وقد روي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أنه قال : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا . يعني والله أعلم أن الله قد شرح صدره للاسلام فكان على نور من ربه بلغ به مقام الاطمئنان . وقد صح عن بعض من دونه من الصحابة في العلم والعرفان ، أنهم رأوا النور الغيبي بالعيان ، ورأوا الملائكة عليهم السلام، في غير ما كانوا يرون جبريل متمثلا بصور إنسان

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون قد يكون لهم من سلامة الفطرة ، أو معالجة النفس بأنواع من الرياضة ، أو من طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد ، أو من سلطان إرادة قوية على إرادة ضعيفة تصرفها عن حسها، وتوجه قواها النفسية إلى ماشاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها — قد يكون لهؤلاء الافراد في بعض الاحوال من قوة الروح ما يلمحون به بعض الاشياء أو الاشخاص البعيدة عنهم، وتتمثل لهم بعض الامور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم فيخبرون بها فتقع كما أخبروا، وثبت هذا وذاك عند بعض الماديين في هذا الزمان

---

(١) يراجع تحقيق هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحات ٤٢١ و٤٥٦-٤٦٩ من جزء التفسير السابع وملخصه في (ص) ٥١٣ من الجزء التاسع

الخوارق الحقيقية والصورية عند الامم

إن الامور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة،أو الخارقة للعادات المألوفة،منقولة عن جميع الامم في جميع العصور نقلا متواتراً في جنسه دون جميع أنواعه أوافراد وقائعه، وليست كلها خوارق حقيقية، فان منها ماله أسباب مجهولة للجمهور، وان منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص،وان منها لماهو من خصائص قوى النفس في توجيهها إلى مطالبها، وفي تأثير أقوياء الارادة في ضعفائها، ويدخل في هذين المكاشفة في بعض الامور والتنويم المغناطيسي، وشفاء بعض المرضى ولاسيما المصابين بالامراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم ، ومنها بعض أنواع العمى والفالج،فان من الناس من يفقد بصره بمرض يطرأ على أعصاب عينيه وهما صحيحتان تلمعان في وجهه، أو يغشاهما بياض عارض مع بقاء طبقاتهما صحيحة، وليس منه الكمه والعمى الذي يقع بطمس العينين وغئورهما كالذي أبرأه المسيح عليه السلام باذن الله تعالى.

ومنه انخداع البصر بالتخييل الذي يحذقه المشعوذون ، ومنه ما فعله سحرة فرعون المبين بقوله تعالى (فاذا حبالُهم وعِصيُّهم يُخَيَّلُ إليه من سِحرِهم أنها تسعى) ومنه انخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون استخدام الجن إذ يتكلمون ليلا بأصوات غريبة غير أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم ان ذلك صوت الجني، وقد يتكلمون نهاراً من بطونهم من غير أن يحركوا شفاههم(١) فلا ينبغي أن يوثق بشيء من أخبارهم ولا من نقلهم. ومن الدلائل على كذب المنتحلين لهذه الغرائب

(١) قد حدث في هذه السنة افتضاح دجالة اتخذت دعوى استخدام الجن صناعة لها فرفعت عليها قضايا وقد قرأنا في بعض الجرائد عند تقديم هذه الكراسة لجمعها للطبعة الثانية ان حيلتها الصناعية بالكلام الذي يسمع صوته من جوفها وتوهم به المخدوعين انه كلام الجني قد عرفت في أثناء التحقيق

انهم جعلوها وسيلة لمعايشهم الدنيئة ، وانهم لو كانوا صادقين فيها لتنافس الملوك وكبار علماء الكون في صحبتهم والانتفاع بهم

وقد بينا هذه الانواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الاعراف (١) وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليلها في المجلد الثاني من المنار وأتممناها في المجلد السادس منه

إن عوام الشعوب الذين يجهلون تواريخ الامم وما وجد عند كل منها من هذه الغرائب وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل ، يغترون بما عندهم منها ، ويخضعون للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها، ويمكنونهم من أموالهم فيسلبونها، ويأتمنونهم على أعراضهم فينتهكونها ، ولا سيما اذا كانوا يأتون ما يأتون منها على أنه من كرامات الاولياء وعجائب القديسين ، ويقل تصديق هذا والانقياد لأهله حيث ينتشر تعليم التواريخ وما عند جميع الامم من ذلك، على أنه لا يزال كثيراً في جميع بلاد أوربة وأمريكة ولعله دون ما في بلاد الشرق ولا سيما القرى وهمج الزنوج وغيرهم

بيد أن آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الاعمال الصناعية الغريبة لا كسب لأحد من البشر ولا صنع لهم فيها ،وإن ما أيد به رسله منها لم يكن بكسبهم ولا عملهم ولا تأثيرهم ، حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله تعالى بها . ألم يهد لك كيف خاف موسى عليه السلام حين تحولت عصاه حية تسعى ،فولى مدبراً ولم يعقّب[٢] لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه ؟ أولم تقرأ قوله لمحمد ﷺ (٨ : ١٧ وما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولٰكِنَّ اللهَ رَمَى) أو لم تفهم ما أمره الله تعالى أن يجيب به مقترحي الآيات عليه من قومه بقوله(١٧ : ٩٣ قُلْ سُبحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَرَاً رَسولا) وقوله (قُلْ إِنمَا الآياتُ عِنْدَ اللهِ) وما في معناهما

(١) راجع ص ٤٥ — ٦٠ ج ٩ من تفسير المنار
(٢) يعقب بتشديد القاف أي لم يلتفت ولم يرجع

الفرق بين المعجزة والكرامة

ان الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات الا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية . وتحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة، وذلك لا يكون إلا باظهارها، فهو واجب لاتمام تبليغ الدعوة التي أُرسلوا لتبليغها . وما كان الانبياء يدعون الله تعالى بشيء من خوارق العادات غير ما يؤيدهم به من الآيات الدالة على صدقهم في دعوى الرسالة الا لضرورة كالاستسقاء. وكان خاتمهم وأكرمهم على الله تعالى يصبر هو وأهل بيته وأصحابه على المرض والجوع والعطش ولا يدعو لهم ﷺ بما يزيل ذلك الا نادرا . وقد سألته المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدها الى أن الصبر على مصيبتها خير لها ، فشكت اليه انها تتكشف عند النوبة وسألته أن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها واستجاب الله دعاءه

وكان المشركون يقترحون عليه الآيات الكونية كآيات موسى وعيسى (ع.م) فيجيبهم بأمر الله تعالى بما هو صريح في أن الآيات عند الله وهو القادر عليها دون الرسول ومنه التعجب من طلبهم بقوله تعالى له (١٧: ٩٣ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً) وفي معناه ما حكاه من جواب الرسل الاولين لأقوامهم الذين كانوا يطالبونهم بمثل ذلك بقوله (١٤: ١١ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ولَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وما كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ)

والاصل في الكرامة الإخفاء والكتمان وكثيراً ما يكون ظهورها فتنة !!

وما كان أهلها يظهرون مالهم كسب فيه منها كالمكاشفة الا لضرورة وقد صرح بهذا محققو العلماء والصوفية فهو متفق عليه بينهم خلافا للمشهور بين العامة

قال التاج السبكي في سياق حجج منكري جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية:

(الحجة الثانية) قالوا لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة. والجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة فهي إنما تقترن بكمال اتباع النبي من الولي. وأيضاً فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار، والكرامة مبناها على الاخفاء، ولا تظهر إلا على الندرة والخصوص لا على الكثرة والعموم، وأيضاً فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات، والكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام القشيري وهو الصحيح اه ثم قال

(الحجة الرابعة) قالوا لو جاز ظهور خوارق العادات على أيدي الصالحين لما أمكن أن يستدل على نبوة الانبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولي سراء، فان من أصول معظم جماعتكم أن الاولياء لا يظهرون الكرامات ولا يدعون بها، وإنما تظهر سرا وراء ستور، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس، ويكون ظهورها سرا مستمرا بحيث لا يلتحق بحكم المعتاد، فاذا ظهر نبي وتحدى بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق العادة، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد في حقه؟ وأيضا تكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد في حق الاولياء وذلك يصدهم عن تصحيح النظر في المعجزة إذا ظهر نبي في زمنهم»

وقال في الجواب: لأئمتنا وجهان الاول منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد، وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ماذكروه. والثاني — وهو لمعظم أئمتنا — قالوا انه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يعتاد. لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات اه

وأقول إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والاصول على منع توالي الكرامات وتكرارها ، ومنع إظهارها . قال الشيخ محيي الدين بن عربي ان مايتكرر لا يكون كرامة لانه يكون عادة وإنما الكرامة من خوارق العادات . وقال الشيخ احمد الرفاعي ان الاولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض ، وصرحوا بأنها ليست بشرط للولاية ولا دليل عليها

جهل هذا الاصل المحكم من عقائد الاسلام أدعياء العلم من سدنة القبور المعبودة وغيرهم، فظنوا أن المعجزات والكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية، وان الانبياء والصالحين يفعلونها باختيارهم في حياتهم وبعد مماتهم متى شاؤا ، ويغرون(١) الناس باتيان قبورهم ولو بشد الرحال إليها لدعائهم والاستغاثة بهم عندها ليدفعوا او يرفعوا عنهم نزول البلاء والشدائد التي يعجزون عن دفعها بكسبهم وكسب أمثالهم من البشر بالاسباب العادية كالاطباء مثلا ـ ويتقربون اليهم بالنذور والقرابين كما كان المشركون يتقربون إلى آلهتهم من الاصنام وغيرها . وهم يأكلونها سحتا حراما ، ويخبرونهم بأن دين الله تعالى يأمرهم أن يعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم ، حتى قال بعضهم انهم يخرجون من قبورهم بأجسادهم ويتولون قضاء الحاجات وكشف الكربات. ولو كانت كذلك لما كانت من خوارق العادات . وقال بعضهم في كتاب مطبوع ان فلانا من الاقطاب يميت ويحيي، ويسعد ويشقي ويفقر ويغني ، بل قالوا وكتبوا ماهو أبعد من ذلك عن نصوص الكتاب والسنة القطعية المحكمة ، والعقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة في الاصل وما كان عليه مسلمو القرون الاولى ، فصارت بانتشار الخرافات والجهل من الكرامات ، التي تؤول وتحرف لاجلها الآيات المحكمات . وقد فصلنا هذا في تفسير المنار مرارا ونجمله فيما يأتي :

(١) من الاغراء أي يحضونهم على ذلك ويرغبونهم فيه

الكافرون بالآيات صنفان

(مكذبون ومشركون : وعلاج كل منهما)

الكافرون بآيات الله تعالى صنفان : صنف يكذبها كلها ولا يؤمنون بشيء منها، وصنف يشرك بالله غيره فيها فينحله ماهو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه، بدعوى أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة الغيبية على ذلك وصرفهم في العالم كرامة لهم ، أي هو الذي أشركهم معه كما كان المشركون يقولون في حجهم : لبيك لاشريك لك، إلاشريكا هو لك، تملكه وما ملك ، وانما يتحامون ألفاظ العبادة والشرك والخلق دون معانيها ، فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكذبهم به كتابه المنزل، ونبيه المرسل، ولكنهم يؤولون ماهو حجة عليهم، ويحرفون ماهو شبهة لهم ، فيحتجون به على جهلهم ، كآية (٣٩ : ٣٤ لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ) وهي كأمثالها في جزاء جميع المؤمنين المتقين في الآخرة . ويذكرون أن الله كان يرزق مريم عليها السلام بغير حساب ، وما كان رزقها من فعلها ، ولا يدري أحد كيف سخره الله لها ، ويذكرون وحيه إلى أم موسى بارضاعه وإلقائه في اليم، وما هو من فعلها أيضاً ، وقد قيل بنبوتها ، ويذكرون عرش ملكة سبأ وهو من آياته تعالى لنبيه سليمان، وليس في الآية تصريح برؤيته مستقرا عنده كيف كانت. فقيل ان الذي جاء به جبريل وقيل ملك آخر وقيل ولي هو وزير سليمان وهذا من الاسرائيليات غير المعقولة

وان إفساد هؤلاء الخرافيين للبشر في دينهم ودنياهم لا شد من إفساد المنكرين للآيات المكذبين بها ، ذلك بأنهم أكبر أسباب هذا الانكار والتكذيب ، وصدقهم الآخرون فكذبوا بالدين من أساسه، فدعوى تصرف الانبياء والصالحين في الكون قول على الله بغير علم ، وافتراء على الله بكونه شرعا لم يأذن به الله ، وهو أشد أنواع الكفر بالله ، لان ضرره متعد بما فيه من إضلال الناس باعتقاد باطل يتبعه عبادة باطلة غير مشروعة

علاج خرافة تصرف الاولياء في الكون

أما الذين يشركون بالله في عبادته بجهلهم لآ ياته وتقليد أمثالهم من الجاهلين في خرافاتهم ، فلا علاج لهم إلا تعليمهم توحيد الله الخالص في ربوبيته وألوهيته بآ يات القرآن ، دون نظريات كتب الكلام ، وتعليمهم وظائف الرسل وكونهم بشراً اختصهم الله تعالى بوحيه لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل ، وحصر اختصاصهم بالتعليم والارشاد تبشيراً وانذاراً ، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة ، ولم يؤتهم من التصرف الفعلي في خلقه مايقدرون به على هداية أقرب الناس وأحبهم إليهم بالطبع كالوالد والولد والزوجة ومن دونهم من أولي القربى ، فوالد ابراهيم الخليل عاش كافراً ومات كافراً عدوا لله ورسوله وخليله ، وولد نوح أول الرسل إلى الامم مات كافراً ولم يأذن الله تعالى لنوح بحمله في السفينة فكان من الكافرين المغرقين ، وكان أبو لهب عم محمد حبيب الله ورسوله أشد أعدائه الصادين عنه المؤذين له ، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد بها المؤمنون إلى يوم القيامة لم ينزل مثلها في أحد من أعدائه وأعداء رسوله ﷺ بل كان من كمال حكمة الله تعالى أن عمه الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين ما استطاع لم يؤمن به وقد عرض عليه أن ينطق بكلمة «لا إله إلا الله» ليشهد له بها يوم القيامة فامتنع فأنزل الله تعالى فيه (٢٨:٥٦ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) رواه مسلم في صحيحه ، وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى (٦ : ٧٤ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ) الآيات[1] ثم بينا في خلاصة هذه السورة (الانعام) وظائف الرسل عليهم السلام بما يحسن أن يراجعه من يحب استيفاء هذا الموضوع (٢) واذا كان الانبياء المرسلون لم يؤتوا القدرة على التصرف في الكون فكيف يؤتاه الاولياء وغيرهم

(١) ص ٥٣٤ - ٥٦٥ ج ٧ تفسير (٢) ص ٢٧٥ - ٥٧٨ ج ٨ تفسير

المنكرون للمعجزات

(وشبهة الخوارق الكسبية عليها)

وأما المنكرون للآيات فلا يمكن أن تقوم عليهم الحجة إلا بالقرآن كما تقدم ، فهم لا يصدقون ما ينقله اليهود والنصارى من آيات موسى وعيسى وغيرهما من النبيين (ع.م) ولا يسلمون صحة تواترها ، إذ يقيسون نقلهم لها على ما ينقله العوام في كل عصر عن بعض المعتقدين في بلادهم من الخوارق الخادعة التي مثارها الوهم والتخيل، ويحتجون على ذلك بأن يوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح (ع.م) لم ينقل للناس أخبار عجائبه التي تقصها الاناجيل التي ألفت بعده ، ويعللونها على تقدير صحة النقل بما يعللون به الخوارق الصورية التي يشاهدونها في كل عصر ، فان لم يستطيعوا تعليلها قالوا انه لابد لها من سبب كسبي يظهر لنا أو يعترف به فاعلوها كما وقع في أمثالها من صوفية الهندوس (الفقراء) كالارتفاع في الهواء وغير ذلك مما هو أغرب منه (كما بيناه في الكلام على عجائب المسيح من الفصل الثاني ص٤٦ـ٥٢)

﴿ أعجوبة من خوارق الهنود ﴾

روت إحدى الجرائد المصرية في هذه الايام(١) من أخبار سائحي الافرنج في الهند حادثة لفقير من هؤلاء الفقراء اسمه سارجو هارداس وقعت في سنة ١٨٣٧ خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهراجا رانجيت سنجا أمير بنجاب وعرض عليه أن يريه بعض كراماته ، وكان المهراجا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء

(١) هي جريدة الاتحاد وكان هذا في أثناء الطبعة الأولى للكتاب في أوائل هذا العام (١٣٥٢)

الفقراء فسأله عما يريد إظهاره فقال إنه يدفن أربعين يوما ثم يعود إليهم حيا، فأحضر المهراجا نفراً من أطباء الانكليز والفرنسيس وأمراء بنجاب لمجلس الفقير القرفصاء أمامهم فكفنوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه — كما أوصاهم — وخاطوا عليه الكفن ووضعوه في صندوق من الخشب السميك وسمروا غطاءه ووضع المهراجا عليه ختمه ، ودفنوه في قبو داخل حجرة صغيرة في حديقة القصر وأقفلوا بابها ووضع المهراجا ختمه بالشمع على قفلها، وأمر اثنين من رجال حرسه الامناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتهما ، وكان ذلك كله بمشهد من حضر من الاوربيين والبنجابيين وحاشية المهراجا .

ولما تمت الاربعون حضر هؤلاء كلهم قصر المهراجا وشاهدوا ختم الحجرة كما كان ، والعشب أمامها في الحديقة لم تطأه قدم أحد ، ثم فتحوا باب الحجرة وامتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتحنوا أختامه فوجدوها كلها على حالها ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فاذا هو كما وصفه أحد أولئك من الانجليز. قال:

لما فتحوا الصندوق وأخرجوا الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلا على إحدى الكتفين فخلتني أمام جثة هامدة فارقتها الحياة منذ أمد بعيد، فطلبت من طبيبي أن يفحصها فانحنى عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال انه لم يجد أثراً للنبض البتة ولكنه شعر بحرارة في منطقة الدماغ الخ

ثم نفذ ما أوصى الفقير أن يعمل بعد إخراجه فغسل الجسم بالماء الحار فرد على الاوصال لينها السابق بالتدريج ، وأزيل القطن والشمع عن الاذنين والانف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحياة في الجسد المسجى . وتقلصت الاعصاب والاطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزير وعادت الاعضاء إلى حالتها الاولى ، وبعد دقائق اتسعت حدقتا العينين وعاد إليهما لونهما الطبيعي، فلما رأى الفقير المهراجا شاخصاً إليه دهشا متحيراً قال له « أرأيت يامولاي صدق قولي

وفعلي ؟ وبعد نصف ساعة خرج من التابوت وأنشأ يحدث الحاضرين أحسن حديث ويطرفهم بما يحير العقول . اه

إن هذه الحادثة من آيات الله التي أظهرتها الرياضة المكتسبة ،وهي أعجب من رواية الانجيل لموت ليعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام كما تقدم في بحث عجائبه (ع.م) وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضاً من بعض الوجوه فان الفقير الهندي قد سد أنفه ، ولف في كفن ، ووضع في تابوت دفن تحت الارض ، فحيل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة ،وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف بابه إلى الشمال مهب الهواء اللطيف ، وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم، فتاطف هواءه من حيث لا تصيبهم ، وانما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثهم فيه ، وكانت طويلة جداً حتى على نقل البيضاوي وغيره من المفسرين ان قوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) الآية — حكاية عن بعض المختلفين في أمرهم . فان كان خلاف ظاهر السياق فقد يقويه قوله تعالى في الآية بعدها (قل الله أعلم بما لبثوا) والله أعلم بكل حال على كل حال . وإن خفي سر آياته على خلقه ولا شيء من الامرين بمحال . وقد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر .

ولكن ماجرى للفقير الهندي مخالف لسنة الحياة العامة في الناس فاذا ثبت أنه وقع بطريقة كسبية من طرائق رياضة هؤلاء الصوفية لأبدانهم وأنفسهم بما تبقى به الحياة كامنة في أجسادهم مثل هذه المدة الطويلة مع انتفاء أسبابها العامة في أحوال الناس الاعتيادية من دورة الدم والنفس وغير ذلك ، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء إنكار كل مايخالف السنن العامة قاعدة عامة ، ولا سيما فعل الخالق عز وجل لها وهو خالق كل شيء بقدرته،وواضع نظام السنن والاسباب

بمشيئته . وأكثر منكري الخوارق يؤمنون به ، وانما ينكرون وقوع شيء مخالف لسننه بأنه مناف لحكمته ، ومن ذا الذي أحاط بحكمه أو بسننه علما ؟ وانما الذي يقضي به العقل أن لا نصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الاسباب العامة إلا اذا ثبت ثبوتا قطعيا لا يحتمل التأويل، وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم . وقد ثبت في هذا العصر من خواص الكهرباء وغيرها مالو قيل لعقلاء الناس وحكمائهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممكنات، لحكموا على مدعي إمكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات، كما قلنا من قبل (١)

المعجزات قسمان : تكوينية وروحانية تشبه الكسبية

المعجزات كلها من الله تعالى لا من كسب الانبياء كما نطق به القرآن ولكنها بحسب مظهرها قسمان : قسم لا يعرف له سنة إلهية يجري عليها فهو يشبه الاحكام الاستثنائية في قوانين الحكومات، أو ما يكون بارادة سنية من الملوك لمصلحة خاصة — ولله المثل الأعلى — وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية

أما المأثور من آيات الله التي أيد بها موسى (ع. م) وأثبتها القرآن له كالآيات التسع بمصر فهي من القسم الاول ، ولم يكن شيء منها بكسب له حقيقي ولا صوري ، وكذلك الآيات الاخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني اسرائيل ومدة التيه، بل كل ذلك كان بفعل الله تعالى بدون سبب كسبي لموسى (ع.م) الا ما يأمره الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التي هي آيته الكبرى . ا- ينقل عن أحد من الانبياء آية كهذه الآيات فضلا عمن دونهم ، ولا هي مما يحتمل

(١) ان الصحف قد نقلت الينا في هذا العام من عجائب صوفية الهند ايضا ماهو أعجب مما تقدم وقد لخصنا بعضه في حاشية ص٥١

ان يكون بسبب من الاسباب الروحية التي تكون لأحد من الناس بالرياضة وتوجيه الارادة أوخواص المادة وقواها

وأما المسيح (ع م) فالآيات التي أيده الله تعالى بها — على كونها خارقة للعادات الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس — قد يظهر فيها انها كلها أو جلها حدث على سنة الله في عالم الارواح كما كان خلقه كذلك ، فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها (وهو الملك جبريل عليه السلام) كانت سبب علوقها به بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدرة الله عز وجل . فلا غرو أن كانت مظاهر آياته أعظم من مظاهر سائر الروحيين من الانبياء والاولياء كالكشف وشفاء بعض المرضى وغير ذلك من التأثير في المادة الذي اشتهر عن كثير منهم . والفرق بينه وبين الروحانيين من صوفية الهنود والمسلمين ان روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل ، وأقدس وأفضل ، وانها لم تكن بعمل كسبي منه بل من أصل خلق الله عز وجل له بآية منه كما قال (٢١ : ٩١ وَالتي أَحصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فيها مِنْ رُوحِنا وَجَعلناها وَابنَها آيةً للعالَمين) وقال (٢٣ : ٥٠ وَجعلنا ابنَ مريمَ وأُمَّهُ آيةً) فآيتهما هي الحمل به وخلقه بنفخ الروح الالهي، لا بسبب التلقيح البشري، ولا بما قيل من احتمال وجود مادتي الذكورة والانوثة في رحمها

وأعظم آياته الروحانية التي أثبتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفو الاناجيل الاربعة (وروي انها منصوصة في انجيل الطفولة الذي نبذته المجامع الكنسية قبل البعثة المحمدية ففقد من العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها بهيئة طير فينفخ فيه أي من روحه فيكون طيرا باذن الله تعالى ومشيئته . والمروي أنه كان يطير قليلا ويقع ميتاً. ودون هذا إحياء الميت الصحيح الجسم القريب العهد بالحياة فان توجيه سيال روحه القوي الى جثة الميت مع توجيه قلبه إلى الله عز وجل ودعائه كان يكون سببا روحانياً

لإعادة روحه اليه باذن الله ومشيئته ، كما يمس النور دبال السراج المنطفىء فتشتعل او كما يتصل السلك الحامل للكهربائية الايجابية بالسلك الحامل للكهربائية السلبية بعد انقطاعها فيتألق النور منهما . وما ينقل عن الهنود من إعادة الحياة الى ميت مؤقتا فبو إن صح مكسوب بالرياضة وقد ثبت عن بعض أطباء هذا العصر إعادة الحياة الحيوانية إلى فاقدها عقب فقدها بعملية جراحية أو معالجة للقلب

ومن دون هذا وذاك شفاء بعض الامراض ولا سيما العصبية سواء أ كان سببها مس الشيطان وتلبسه بالمجنون كما في الاناجيل ام غيره ، فان الشيطان روح خبيث لا يستطيع البقاء مع توجه الروح الطاهر الذي هو شعلة من روح القدس جبريل عليه السلام واتصاله بمن تلبس به، وقد وقع مثل هذا لشيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من الروحانيين حتى ان تلميذه العلامة المحقق ابن القيم ذكر أنه أرسله أو رجلا آخر إلى مصروع وخاطب الجني الذي فيه بقوله :الشيخ يأمرك أن تخرج، فخرج وشفي الرجل في الحال . وما من مرض عصبي اوغيره إلا وهو ضعف في الحياة حقيق بأن يزول باتصال هذا الروح بالمصاب به وبما دونه من تأثير النفس

ومن دون هذا وذاك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه بقوله (٣ : ٤٩ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) وقد أنبأ غيره من أنبياء بني اسرائيل وغيرهم وكذا غيرهم من الروحانيين ولا سيما صالحي أمة محمد ﷺ بما هو أعظم من هذا من الامور المستقبلة ولكنها درجات متفاوتة في القوة والضعف، وطول المدة وقصرها ،والثقة بالمرئي وعدمها،وإدراك الحاضر الموجود والغائب المفقود، وما كان في الازمنة الماضية، وما يأتي في الازمنة المستقبلة ، فأعلاها خاص بالانبياء إذلم يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ماوقع منذ القرون الاولى كأخبار القرآن عن الرسل الاولين مع أقوامهم ، أو مايقع بعد سنين في المستقبل كإخباره عن عود الكرة للروم على الفرس ، وإخباره ﷺ

بفتح الامصار واتباع الامم لامته ، ثم بتداعيهم عليها كما يتداعى الآكلون إلى قصعة الطعام . وقد أخبر بعض أصحابه بأعيانهم بما يقع من ذلك في زمنهم كسقوط ملك كسرى . وسنعقد فصلا خاصاً بأخبار الغيب في القرآن والحديث في الجزء التالي كما وعدنا في الفاتحة لهذه الطبعة . ومن المكاشفات الثابتة في هذا العصر ما يسمونه قراءة الافكار ، وقد شاهدنا من فعله ، ومنها مراسلة الافكار

فتبين بهذا وذاك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى (ع .م) بمحض قدرته تعالى دون سنة من سننه الظاهرة في قواه الروحية ، وان آياته لعيسى (ع.م) بخلاف ذلك ، والنوع الاول أدل على قدرة الله تعالى ومشيئته واختياره في أفعاله في نظر البشر لبعدها عن نظام الاسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم

عبادة بعض الناس للمسيح وللاولياء دون موسى

وإنما عبد بعض البشر عيسى واتخذوه إلهاً ولم يعبدوا موسي كذلك وآياته أعظم لانهم جهلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشاركه فيها غيره فظنوا انه يفعلها بمحض قدرته التي هي عين قدرة الخالق سبحانه لحلوله فيه واتحاده به بزعمهم ، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده ، ولم يفطنوا لاتباع عيسى لموسى في شرعه (التوراة) إلا قليلا مما نسخه الله على لسانه من إحلال بعض ماحرم عليهم بظلمهم عقوبة لهم ، ومن تحريم ما كانوا عليه من الغلو في عبادة المال والشهوات

ومثل النصارى في هذا من يفتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم في الشدائد لاعتقادهم انهم يدفعون عنهم الضر ، ويجلبون لهم النفع بالتصرف الغيبي الخارج عن سنن الله في الاسباب والمسببات الداخل عندهم في باب الكرامات ، وهو خاص بالرب تعالى ، ولكنهم لا يطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الاله ولا الخالق ، إذ الاسماء اصطلاحية ، وإنما الفرقان بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب

ان الرب الخالق هو القادر على النفع والضر لمن يشاء وصرفهما عمن يشاء بما يسخره من الاسباب وبدونها إن شاء - وان المخلوق المربوب هو المقيد في أفعاله الكسبية الاختيارية في النفع والضر بسنن الله تعالى في الاسباب والمسببات التي سخرها تعالى لجميع خلقه ، ولكنهم يتفاوتون في العلم والعمل بها كما يتفاوتون في الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والاعضاء وفي وسائلها ، وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار ما لم يعهد مثله لأحد من خلق الله قبلهم لا الانبياء ولا غيرهم ، لان الانبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وانما بعثوا لهداية الناس الى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها . فمنافع الدنيا لا تطلب منهم أحياء ولا أمواتا ، وإنما تطلب من أسبابها ، وما وراء الاسباب لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، وقد قتل الظالمون بعض الانبياء والاولياء ، وآذوا بعضهم بضروب من الايذاء ، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم ، ولذلك تكرر في القرآن الحكيم نفي هذا النفع والضر عن كل ماعبد ومن عبد من دون الله بالذات او بالشفاعة عند الله تعالى كما قال (١٠ : ١٨ ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ ويَقولونَ هؤلاءِ شُفَعَاؤُنا عِندَ اللهِ) الآية ومثلها آيات . وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل فقال (٧ : ١٨٨ قُلْ لا أَملكُ لِنَفسِي نَفعًا ولا ضَرًّا إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ولو كُنتُ أَعلمُ الغَيبَ لاَستَكثَرْتُ مِنَ الخيرِ وما مَسَّنيَ السُّوءُ إنْ أَنا إلاَّ نَذيرٌ وبَشيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ) وقال (٧٢ : ٢١ قُلْ إِنِّي لا أَملِكُ لَكُمْ ضَرًّا ولا رَشَدًا) الآيات . وقد فصلنا هذه المسألة مرارا .

ونلخص الموضوع هنا في المسائل الآتية:

(١) ان الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه فجعله بإحكام ونظام لا تفاوت

فيه ولا اختلال ، وسنن مطردة ربط فيها الأسباب بالمسببات . فمخلوقاته العليا والسفلى، هي مظهر أسمائه الحسنى وصفاته العلى. ولهذا قال حجة الاسلام الغزالي : ليس في الامكان أبدع مما كان. وهذا النظام المطرد في الا كوان، الثابت بالحس والعقل ونصوص القرآن — هو البرهان الاعظم على وحدانية خالق السموات والارض (٢١ : ٢٢ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا)

(٢) إن سنن الله تعالى في إبداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب فيه لا يحيط بها علما غيره عز وجل . وكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكراً واختباراً وتدبراً وتجربة وتصرفا ، ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ، ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون ، وهانحن أولاء نرى مراكبهم الهوائية من تجارية وحربية تحلق في الجواء، حتى تكاد تبلغ محيط الهواء ، وبعض مراكبهم البحرية تغوص في لجج البحار ، ونراهم يتخاطبون من مختلف الاقطار ، كما نطق الوحي بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار ، فيسمع أهل المشرق أصوات أهل المغرب ، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم وأغانيهم ، قبل أن يسمعها بعض أهل البلد أو المكان الذي يصدر عنه الكلام (١) وقد يغمز أحدهم زراً كهربائياً في قارة أوربة فتتحرك بغمزته آلات عظيمة في قارة أخرى في طرفة عين ، وبينهما المهامة الفيح ، والجبال الشاهقة ، ومن دونهما البحار الواسعة، والجاهلون بهذه السنن الالهية ، والفنون العملية، لايزالون يلجئون في طلب المنافع ودفع المضار من غير طريق الأسباب — التي ضيق الجهل عليهم سبلها — إلى قبور الموتى من الصالحين المعروفين والمجهولين، ليقضوا لهم حاجهم، ويشفوا

(١) روي لنا أن آلة المذياع (الراديو) الناقلة للاصوات من أوربة يصل الكلام الذي تحمله إلى مصر وغيرها فتعكسه الآلات التي فيها و يسمعه أهلها قبل ان يسمعه من في الصفوف الخلفية من المكان الذي ألقي فيه

مرضاهم ، ويعينوهم على أعدائهم ، بل ينتقموا لهم من أصدقائهم الذين عادوهم بغيا وفسادا - من زوج وقريب وجار ووطني، وأعداؤهم في دينهم ووطنهم من الاجانب قد سادوا حكومتهم ، واستذلوا أمتهم ، واستأثروا بجل ثروتهم ، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الاولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم وإذلالهم

(٣) ان الاصل في كل ما يحدث في العالم أن يكون جاريا على نظام الاسباب والمسببات ، وسنن الله التي دل عليها العلم ، وأخبرنا الوحي بأنه لا تغيير فيها ولا تبديل لها ولا تحويل ، فكل خبر عن حادث يقع مخالفاً لهذا النظام والسنن فالأصل فيه أن يكون كذبا اختلقه المخبر الذي ادعى شهوده أو خدع به ولبس عليه فيه ، فان كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الاسباب الخفية التي يجهلها المخبر ، كما حققه علماء الأصول في بحث الخبر وما يقطع بكذبه منه

(٤) ان آيات الله التي تجري على غير سننه الحكيمة في خلقه لا يثبت العلم بها إلا بدليل قطعي، وقد كان من حكمته أن أيد بعض النبيين المرسلين بشيء منها لاقامة حجتهم وتخويف المعاندين لهم ، وقد انقطعت هذه الآيات بختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسالته، وجعل ما أوحاه اليه آية دائمة وهداية عامة لجميع البشر مدة بقائهم في هذه الدنيا وأنزل عليه (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ) لعلمه تعالى بأنهم لا يحتاجون بعد هذا الوحي إلى وحي آخر ، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه ، وهذا الكتاب في جملته وتفصيله ، مشتمل على كثير من الدلائل العقلية العلمية على كونه من عنده ، كما فصلناه من قبل ، ونزيده بيانا فيما بعد

وقد ادّعى الباب والبهاء والقادياني الوحي في القرنين الاخيرين فجاءوا بأسخف مما عزي الى مسيلمة الكذاب ، وسأورد نماذج من وحيهم الشيطاني في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، مما فيه عبرة لأولي الألباب .

ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات

(٥) لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمد ﷺ إلى الآيات كما يدعي المفتونون بالكرامات ومخترعو الأديان والنحل الجديدة لما كان لختم النبوة معنى، وقد بلغ من غلو مارقة الصوفية الروحانية أن امتروا في ختم النبوة وتأولوه لادعائهم نوعا منها، ومنهم من ابتدع اسما اووصفا للنبوة التي ادعوها وهو النبوة الظلية، وفتن بفتنتهم البابية والبهائية حتى عبدوا الباب والبهاء، إذ ادعيا الالوهية، وفتن بها احمد القادياني فادعى النبوة والمسيحية له ولخلفائه بلا انقطاع، حتى سامها المرتزقة منهم والرعاع

وقد بين شيخنا الاستاذ الامام في رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الديني في الأمم بارتقاء نوع الانسان في الادراك والعقل كارتقاء الافراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة حتى بلغ فيها رشده واستوى، وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية العليا (هداية القرآن) بعد أن كان لا سبيل إلى إذعانه لتعليم الوحي، إلا ما يدهش حسه ويعيي عقله من آيات الكون (يعني انه بلغ هذا الرشد في جملته واستعداد كثير من أفراده لا كلهم ولا أكثرهم)

بين في الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة أن سمو عقل الانسان وسلطانه على قوى الكون الأعظم بما هي مسخرة له تنافي خضوعه واستكانته لشيء منها، إلا ما عجز عن إدراك سببه وعلته، فاعتقد أنه من قبل السلطان الغيبي الأعلى لمدبر الكون ومسخر الاسباب فيه، فكان من رحمة الله تعالى به « أنه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم، وأيد ذلك زيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح، ويذل الجامح، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه »

ثم قال في رسالة محمد ﷺ : نبي صدق الانبياء ولكنه لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم اليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام ، وسلطان البلاغة ، وصحة الدليل، مبلغ الحجة وآية الحق الذي (لا يَأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خلفهِ تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ حَميد)

لا يمكن اثبات معجزات الانبياء الا بالقرآن

(٦) انه لا يمكن اثبات معجزات الانبياء في هذا العصر بحجة لا يمكن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظيم ، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها، أقول هذا تجاه انكار العلماء الواقفين على كتب الأديان التي قبل الاسلام -حتى كتب اليهود والنصارى - وعلى تواريخها لتواتر ما ذكر فيها من الآيات واشتباههم في كونها خوارق حقيقية ، وفي كون الخوارق تدل على نبوتهم، وحجتهم على الأول أن التواتر الذي يفيد العلم القطعي غير متحقق في نقل شيء منها. وهو نقل الجمع الكثير الذي يؤمن تواطؤهم على الكذب لخبر أدركوه بالحس ، وحمله عنهم مثلهم قرناً بعد قرن وجيلا بعد جيل بدون انقطاع ، وانما يكون استحالة تواطؤهم على الكذب بأمور أهمها عدم التحيز والتشيع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعضهم لبعض فيه . وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعي به واذعان النفس له ، وعدم امكان رده اعتقاداً ووجداناً ، وهذا غير حاصل في رواية آيات الانبياء الاولين عندهم، بل زعم بعض علماء الافرنج ان قصة المسيح وضعية خيالية لا واقعة حقيقية، ولها أمثال في التاريخ . وتقدم الكلام في آياته والمراء فيها . « ص ٤٨ »

وشبهتهم على الثاني، أن وقوع الخوارق المذكورة لا يدل على النبوة والرسالة

وأما آية القرآن فهي باقية ببقائه الى يوم القيامة ، وكل واقف على تاريخ الاسلام يعلم علماً قطعيا أنه متواتر تواتراً متصلا في كل عصر ، من عصر الرسول الذي جاء به الى الآن، وأما الذي يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه الدالة على أنه وحي إلهي، وقد شرحنا شبهتهم عليه و بينا بطلانها في هذا البحث، واذ قد ثبت بذلك كونه وحياً من الله تعالى فقد وجب الايمان بكل ما أثبته من آياته في خلقه سواء أ كانت لتأييد رسله وإقامة حجتهم أم لا ، وكما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها، يجب أن يؤمن بانقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ

وإذ كان لا يجب على مسلم أن يعتقد بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ فلا يضر مسلما في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق في جميع الأمم أكثره كذب ، وبعضه صناعة علم ، او تأثير نفس ، أو شعوذة سحر ، وأقله من خواص الارواح البشرية العالية وعلامته ان يكون علما صحيحا موافقا للمنقول الشرعي ، والمعقول القطعي، او عملا نافعا مشروعا ، وأن يكون من صدر عنه مؤمنا عاقلا صالحا، فكل ما ينقله المتصوفة مخالفا لذلك من التصرف الضار بالناس في دينهم او صحتهم فهو إن صح من تأثير الانفس الخبيثة كالاصابة بالعين والتنويم المغناطيسي الضار لا كله

(٧) إن الثابت بنصوص القرآن من آيات الانبياء المرسلين المعينة قليل جداً. فما كانت دلالته قطعية من هذه النصوص فصرفه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية ، وينقض شيئا من قواعد الشرع القطعية، فهو ارتداد عن الاسلام ، وما كانت دلالته ظاهرة غير قطعية وجب حمله على ظاهره إن لم يعارضه نص أو دليل مثله أو أقوى منه، فان عارضه فحينئذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالادلة المعروفة ، والخروج عن ذلك ابتداع

الايمان بالقدر والسنن العامة

(وآيات الله الخاصة)

اننا نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته وإرادته ، واختياره وحكمته، وانه (أحسن كلَّ شيء خَلقه) كما قال في سورة الم السجدة (٣٢ : ٧) وانه (٢٧ : ٨٨ صُنْعَ اللهِ الذى أَتقَنَ كلَّ شَيءٍ) كما قال في سورة النمل ، وانه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور كما قال في سورة الملك (٦٧ : ٣) وانه خلق كل شيء بنظام وتقدير لا جزافا ولا أُنفا(١) كما قال في سورة القمر (٥٤ : ٤٩ إِنَّا كلَّ شَىءٍ خَلَقنَاهُ بِقَدَرٍ) وقال في سورة الفرقان (٢٥ ٢ وَخَلقَ كلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) وقال في سورة الحجر (١٥ : ١٩ وأَنبَتنَا فيهَا مِن كلِّ شَيءٍ مَوْزونٍ(٢) ٢٠ وجعَلنا لكُم فيهَا مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتمْ لهُ برازِقِينَ ٢١ وإنْ مِنْ شَيءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزائِنُه ومَا نُنَزِّلُه إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعلومٍ)

وان له تعالى في نظام التكوين والابداع، وفيما هدى اليه البشر من نظام الاجتماع، سننًا مطردة تتصل فيها الاسباب بالمسببات ، لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس، وان سنته تعالى عامة في عالم الاجسام وعالم الارواح، وقد ورد ذكر السنن الاجتماعية باللفظ في سور المائدة والانفال والحجر والاسراء والكهف والاحزاب وفاطر والمؤمن والفتح

---

(١) الأنف بضمتين هو الذي يفعل ابتداء من غير سبق تقدير ولا نظام فهو ضد المقدر (٢) وصف النبات بالموزون من عجائب تعبير القرآن التي أظهرتها العلوم الحديثة فكل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادير معينة يمكن ضبطها بالوزن الدقيق في النسبة المئوية

فهذه الآيات البينات ناطقة بان القدر والتقدير عبارة عن النظام العام في الخلق الذي تكون فيه الاشياء بقدر أسبابها بحسب السنن والنواميس العامة التي وضعها الخالق لها ، لا ما اشتهر عند الجماهير من الناس من ان المقدر ماليس له سبب، أو ما يفعله الله على خلاف النظام والسنن ، وقد يصح اطلاقه على مالا يعرفون سببه ، ولا يحيط بأسباب الحوادث علماً إلا خالقها ، ومقدر سببها وسننها

ونؤمن بأن له تعالى في خلقه آيات بينات ، وان له في آياته حكما جلية أو خفية ، وان مامنحنا إياه من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ماتقدم بيانه من نظام التقدير، وسنن التدبير، إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في إثباته وتمحيصه ، وانه لابد أن يكون وقوعه لحكمة بالغة لا عن خلل ولا عبث ، وان ماخفي علينا من حكمه تعالى فهو كسائر ما يخفى علينا من أمور خلقه ، نبحث عنها لنزداد علماً بكماله ، ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا، ولا نتخذها حجة ولا عذراً على الكفر به لجهلنا ، وقد ثبت لأعلم علماء البشر في كل عصر ان مانجهل من هذا الكون أكثر مما نعلم ، ويستحيل أن يحيط البشر به علما .

أجمع على هذا علماء هذا العصر الماديين على سعة علمهم بالمادة وسننها ، وكثرة ما أحدثوا من الصناعات والمنافع بتسخيرها ، فما قولك بعالم الروح والغيب ؟ انه ليظهر فيهم كمن قبلهم صدق قوله تعالى (١٧: ٨٥ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلمِ إلاَّ قَلِيلًا)

ونؤمن بأن الله تعالى قد أرسل إلى البشر رسلا هدوهم بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس، وما يستنبطه الفكر منها بادىء الراي ، إلى ما وراءها من سعة عالم الغيب، ولولا هدايتهم لظل البشر ألوف الالوف من السنين ينكرون وجود

مالم يكونوا يدركونه بحواسهم من الاجسام وأعراضها ، وبقياسهم ما جهلوا على ماعلموا منها . وما ينكره الانسان ويعتقد استحالة وجوده لا يبحث عنه

وقد علمنا من التاريخ ان الايمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر ، وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الاعمال ، هو الذي وجه عقول البشر إلى البحث في أسرار الوجود ، حتى وصلوا إلى ماوصلوا اليه من الارتقاء في العلوم والفنون والصناعات في الاجيال المختلفة ، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب منهم نصيب في ذلك — فهذا الايمان بالاركان الثلاثة من الغيب هو الذي أوصل البشر إلى علوم وأعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من محالات العقول كالغيب الذي أنكروه ، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها

فتبين لنا بهذا وبما قبله انه كان للبشر بآيات الانبياء ثلاث فوائد هي من حكم نصبه تعالى لتلك الآيات

(الاولى) جعلها دليلا حسياً على اختياره تعالى في جميع أفعاله، وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له ، لا حاكمة عليه ولا مقيدة لارادته وقدرته

(الثانية) جعلها دليلا على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه، ونذراً للمعاندين لهم من الكفار ، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم ، أو تقع منهم باستعداد روحي فيهم ، لما كانت آية على صدقهم

(الثالثة) هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات : وضيق نطاق المحال في المعقولات ، وإلى ان كون الشيء بعيداً عن الاسباب المعتادة والامور المعهودة والسنن المعروفة، لا يقتضي أن يكون محالا يجزم العقل بعدم وقوعه، وبكذب المخبر به ولو مع قيام الدليل على صدقه ، وانما غايته أن يكون الاصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح، وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر، فلا ينقصهم لتكميل علمهم إلا ثبوت آية لله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن

الكون وسبب من أسبابه المطردة، والماديون المنكرون لآيات الرسل لن يجدوا هذه الآية في عالم المادة وانما يجدونها في القرآن

ذلك بأن كل ما في عالم المادة فهو خاضع لما يسمى في عرفهم بالاسباب والنواميس والعلل ، وفي لغة القرآن بالسنن والقدر ، (كما قرأنا عليك آنفا) ولذلك تجدهم يبحثون بالتحليلات المادية عن الموجود الاول في الازل ، وما كان يبحث عنه الفلاسفة المتقدمون بالدلائل العقلية ويسمونه علة العلل، وانما الموجود الاول هو الله تعالى واجب الوجود ، الذي صدر عنه كل ما عداه من الموجودات ، وهم لما يعرفوا أول ما صدر عنه بمحض قدرته ومشيئته المعبر عنها عندنا بكلمة التكوين، وهي قوله تعالى للشيء (كن فيكون) وهذا غيب الغيوب، ومنهم من يرى ان العلم به متعذر ومنهم من يطلبه ويرجوه .

ولكن الامر قد انقلب عندهم إلى ضده فان كثيراً من الذين وصلوا إلى هذه العلوم والاعمال المقربة لآيات الرسل وما دعوا اليه من الايمان بالغيب من العقول، قد صارت هذه العلوم نفسها سبباً لانكارهم ما كان سبباً لها وموصلا اليها (وهو الآيات والايمان بالغيب) لا إنكار إمكانه في العقل ، بل إنكار ثبوته بالفعل ، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ماصاروا يفعلون نظيراً له في الغرابة ، وكان ينبغي لهم أن يجعلوه دليلا عليه مبيناً لحقيته كما قال تعالى (٤١ : ٥٣ سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحَقُّ) ولكنهم كلما أراهم آية من آياته الروحية في أنفسهم أو من آياته الكونية في الآفاق التمسوا لها سنة أو فرضوها فرضاً بقياس ما لم يعرفوا على ما عرفوا ، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وابداعه ، وظلوا على لبسهم كالذين طلبوا من محمد ﷺ أن ينزل عليهم ملكا رسولا فقال الله فيهم (٩:٦ ولوْ جَعَلْناهُ مَلَكا لَجَعَلْناهُ رَجُلاً ولَلَبَسْنا عَلَيهِمْ مَا يَلبِسونَ) أي لما كانوا لا يمكن لهم أن يدركوا الملك

ويتلقوا عنه إلا اذا كان بصورة رجل مثلهم ، وهو ما استنكروه من كون الرسل بشراً مثلهم ، فلوجعل الله ملكا رسولا اليهم لجعله رجلا مثلهم ، ولالتبس عليهم أمره بما يلبسونه على أنفسهم من استنكار كون الرسول بشراً مثلهم

وهكذا يفعلون الآن: ظهرت لهم في عصرنا عدة آيات روحية من المكاشفات والتأثير في المادة، فشبهوها بما عرفوا من الامور المادية، فأطلقوا على تلك المكاشفات اسمي قراءة الافكار ومراسلة الافكار، وقالوا انها من قبيل نقل الكلام بالسيال الكهربائي من مكان إلى مكان، حتى لا يعترفوا بآية إبداعية اوغيبية من الخالق لا تخضع لعلمهم، وهم ما زالوا يرتقون في الاسباب الى ان وصلوا من ظواهر تكوين الكهرباء الايجابية والسلبية (بما يسمونه الالكترون والبروتون) الى مستوى قريب من عالم الغيب، وظنوا أنهما أصل لكل ما في عالم الشهادة من شيء، على ان الكهرباء ليست بمادة محض ، ولا بقوة محض ، ولكنها شيء موجود دخل في حكم علمهم بوجه ما وهم عتاة لا يؤمنون إيمانا تعبديا الا بآية تعلو على مدارك علمهم وعقولهم

الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين

إن حرمان هؤلاء العلماء من الايمان بآية كونية لله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم أنهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم ، وجميع علمائهم المصلحين ، وساستهم الدهاقين، في حيرة من تلافي هذا الخطر، ولن يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين، وهذا ما جاءهم به محمد خاتم النبيين، ولأجله أثبت الآيات بكتابه وفي كتابه المبين، إذ لا يمكن أن يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم بقيام الدليل على انه من السلطان الغيبي الالهي الذي فوق استعدادهم . ولا يظهر هذا السلطان والبرهان، في علوم الكون ، لما ذكرنا من شنشنتهم فيها ، وإنما يظهر أكمل الظهور في هذا القرآن ، وسنتحداهم به أتم التحدي في خاتمة هذا الكتاب



المقصد الثالث من مقاصد القرآن

(إكمال نفس الانسان من الافراد والجماعات والاقوام)

﴿ بجعل الاسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ﴾

قد أتي على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كلف البشر (١) مقاومة فطرتهم بها ، وتعذيب أنفسهم ومكابرة عقولهم وبصائرهم خضوعا للرؤساء الذين يلقنونهم إياها ، فان انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين، وإن خالفوهم سراً أو جهراً كانوا من الهالكين ، والحق الواقع أنهم كانوا بهذا الخضوع والخنوع من الخاسرين، ولكن عجز عقلاؤهم وحكماؤهم عن انتياشهم من مهاوي التهلكة ، وإخراجهم من ظلمات الشرك والظلم والاستبداد ، الى نور التوحيد والحرية والعدل والاستقلال

حتى اذا بعث الله رسوله محمداً خاتم النبيين، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين — كان هو الذي أخرجهم من الظلمات الى النور، وبين لهم أن دين الله الاسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال . وان لا سيطرة على روح الانسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله ، وانما رسل الله هداة مرشدون ، مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه في المقصد الذي قبل هذا . ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

---

(١) كلف بالتشديد من التكليف وهو هنا مبني للمجهول لأنه يتعدي بنفسه الى مفعولين وعلماء الاصول والفقه يعدونه الى الثاني بالباء

(١) الإسلام دين الفطرة

قال الله تعالى (٣٠ : ٣٠ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة، وعن الضلالة إلى الهدى، وعن الباطل إلى الحق، ويقابله الزيغ وهو الميل عن الحق إلى الباطل الخ وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الانسانية(١) الجامعة بين الحياتين: الجسمانية الحيوانية، والروحانية الملكية، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما، وما أودع فيها (أي الجبلة) من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي فوق قوى الكون والسنن والاسباب التي قام بها نظام كل شيء في العالم، فرب هذا السلطان هو فاطر السموات والارض وما فيهما. والمصدر الذاتي للنفع والضر المحركين لشعور التعبد الفطري، وطلب العرفان الغيبي المودعين في الغريزة

فالعبادة الفطرية هي التوجه الوجداني؛ إلى هذا الرب الغيبي، في كل ما يعجز الانسان عنه من نفع يحتاج اليه ويعجز عنه بكسبه، ودفع ضر يمسه أو يخافه ويرى انه يعجز عن دفعه بحوله وقوته، وفي كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته، والوصول اليه مما لانهاية له - وأعني بالانسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فانه يعده من مقدوره، ويعد مساعدة غيره له من جنس كسبه؛ فطلبه

---

(١) قال في المصباح المنير: الجبلة بكسرتين وتثقيل اللام والطبيعة والخليقة والغريزة بمعنى واحد، وجبله الله على كذا فطره عليه، وشيء جبلي: منسوب الى الجبلة كما يقال طبيعي أي ذاتي منفعل عن تدبير الجبلة في البدن بصنع بارئها (ذلك تقدير العزيز العليم)

للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر : فتعظيم الفقير للغني بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوي لاستنجاده واستعدائه على أعدائه، وخنوع السوقة(١) للملك أو الامير لخوفه منه أو رجائه - لا يسمى شيء من ذلك عبادة في عرف أمة من الامم ولا ملة من الملل ، وإنما روح العبادة الفطرية ومخها هو دعاء ذي السلطان العلوي والقدرة الغيبية التي هي فوق ما يعرفه الانسان ويعقله في عالم الاسباب ولا سيما الدعاء عند العجز والشدائد ، قال ﷺ « الدعاء هو العبادة »(٢) هكذا بصيغة الحصر أي هو الركن المعنوي الاعظم فيها لانه روحها المفسر برواية « الدعاء مخ العبادة »(٣) وكل تعظيم وتقرب قولي أو عملي لاصحاب هذه القدرة والسلطان فهو عبادة له (٤)

هذا أصل دين الفطرة الغريزي في البشر ، لا مازعمه بعض الكتاب المعاصرين من أن دين الفطرة في الآية الكريمة أن يعمل الانسان متبعاً شعوره وأفكاره ووجدانه بمقتضى طبيعته دون تلقي شيء من غيره ، فهذا جهل ، لا يقره دين ولا عقل ، وفوضى لا يستقيم معها أمر ، فان الانسان يجني على فطرته وغرائزها وقواها بجهله وسوء اجتهاده ، فشعوره الفطري الذي بيناه هو الذي ولد له العقائد الوثنية بعبادته كل ذي تأثير لا يعرف له سببا لحسبانه انه هو صاحب السلطان الغيبي القادر على نفعه وضره ، ومن ثم كان محتاجا الى تكميل فطرته بالوحي الالهي

وعلى هذا الاصل بني الدين التعليمي التشريعي الذي هو وضع إلهي يوحيه الله الى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهادهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة

---

(١) السوقة بالضم (كغرفة) غير الملك يطلق على الواحد والمثنى والجمع

(٢) رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير (٣) رواه الترمذي عن انس (٤) هذا تحقيق لمعنى العبادة أو حد لها وكل ما قيل غيره في تعريفها فهو رسم

وحي .

الدين كما وقع بالفعل ، ولا يقبل البشر هذا الدين التعليمي بالاذعان والوازع النفسي الا إذا كان الملقن لهم إياه مؤيدا في تبليغه وتعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبي الأعلى ، والتصرف المطلق في جميع العالم،الذي تخضع له الاسباب والسنن فيه وهو لا يخضع لها، سواء كان له هذا التصرف لذاته وهو رب العالمين او كانت له بولايته له تعالى ونيابته عنه . وقد شرحنا هذه الحقيقة آنفا مختصراً مما بيناه في مواضع من التفسير والمنار في معنى كون الاسلام دين الفطرة،وانه شرع لتكميل استعداد البشر للرقي في العلم والحكمة ، ومعرفة الله عز وجل المعدة إياهم لسعادة الآخرة ، فليس فيه شيء يصادمها

فهذا الدين التعليمي حاجة من حاج الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعي بدونه، فهو لنوع الانسان كالعقل لافراده كما حققه شيخنا الاستاذ الامام

قد كان دين الله الذي بعث به جميع رسله لجميع الامم مصلحا لما أفسدته الوثنية من فطرتهم بجهلهم ثم بتقليد بعضهم لبعض، على انهم كانوا إذا طال الامد على بعثة الرسل يضلون عن هدايتهم إلى أن أتم الله الدين وأكمله للبشر كما تقدم بيانه في المقصدين الاول والثاني من مقاصد القرآن . وفي حديث الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » يعني انهما يفسدان فطرته الاستعدادية بتلقينه دينا محرفا منسوخا بدلا من إكمالها

وكان من فضل الله على عباده بعد إكمال دينه أن ضمن لهم حفظ كتابه هذا من التحريف والتبديل والنسيان، والزيادة والنقصان،فقال (١٥: ٩ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وعصم أمة خاتم النبيين أن تضل كلها عنه كما ضلت الامم قبلهم ، فان كان ﷺ قد أخبر بما أطلعه الله عليه من مستقبلها انهم سيتبعون سنن من قبلهم من اليهود والنصارى (كما تقدم في ص ١٣٤) فقد أخبر أيضا بأنه لابد أن يبقى بعضهم على الحق ليكونوا حجة الله على خلقه فقال ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي

ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » رواه أحمد والبخاري ومسلم عن المغيرة (رض) ورواه الحاكم عن عمر (رض) بسند صحيح على شرط مسلم بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة » وابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها» وهو صحيح أيضا . وروى مسلم من حديث جابر بن سمرة مرفوعا « لن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة » وروى آخرون من طرق ضعيفة يقوي بعضها بعضا ان هذه الامة لا تجتمع على ضلالة ولله الحمد

(٢) الاسلام دين العقل والفكر

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) ولا مافي معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فضل الانسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كاللب والنهى ، لا لان هذه المادة لم تذكر في كتب العهدين مطلقا بل لانها لم ترد فيها أساساً لفهم الدين ودلائله والاعتبار به ، ولا أن الخطاب بالدين موجه اليه وقائم به وعليه ، وكذلك أسماء التفكر والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل .

أما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة . وأما ذكر أولي الالباب اي العقول ففي بضع عشرة مرة ، وأما كلمة أولي النهى أي العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه

أكثر ماذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء ، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته ورحمته ، كقوله تعالى (٢ : ١٦٤ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ

فأحيا به الأرضَ بعدَ موتِها وبثَّ فيها من كلِّ دابّةٍ ، وتصريف الرِّياحِ والسَّحابِ المُسخرِ بينَ السَّماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلون) ويلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الانعام (٦ : ١٥١ ذلكُمْ وصّاكم به لعلّكمْ تعقِلون) وكرر قوله (أفلا تعقِلون) أكثر من عشر مرار كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله (١٠ :١٦ فقدْ لبثتُ فيكُمْ عمراً منْ قبلهِ أفلا تعقِلون) وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة الملك (٦٧: ١٠ وقالوا لو كنّا نسمعُ أوْ نعقِلُ ما كنّا في أصحابِ السَّعير)وفي معناه قوله تعالى من سورة الاعراف (٧: ١٧٩ ولقدْ ذرأنا لجهنّمَ كثيراً منَ الجنِّ والإنسِ ،لهُمْ قلوبٌ لا يفقهونَ بها،ولهُمْ أعينٌ لا يُبصرونَ بها،ولهُم آذان لا يسمعونَ بها، أُولئكَ كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ، أُولئكَ همُ الغافِلونَ)وقوله في سورة الحج (٢٢: ٤٦ أفلم يسيروا في الأرضِ فتكونَ لهُم قلوب يعقِلونَ بها)الآية

كذلك آيات النظر العقلي والتفكر كثيرة في الكتاب العزيز ، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر ، وأن الغافلين الذين يعيشون كالانعام لا حظَّ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الانفس، ولا تثقف العقول ،ولا تصعد بها في معارج الكمال ، بعرفان ذي الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى (قُلْ إنّما أعِظُكم بواحدة أنْ تقوموا لله مثنَى وفُرادَى ثمَّ تتفكَّروا) وقوله (٣٠ : ٨ أولَمْ يتفكّروا في أنفُسِهم ما خلقَ اللهُ السَّموات والأرْض وما بينهُما إلاَّ بالحقِّ وأجلٍ مُسمًّى)وقوله في

صفات العقلاء أولي الالباب (٣ : ١٩١ ويتفكَّرونَ في خَلقِ السَّمواتِ والأَرْضِ) وقوله بعد نفي علم الغيب والتصرف في خزائن الارض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته في اتباع الوحي (٦ : ٧ قُلْ هَل يستوِي الأعمَى والبصيرُ أفلا تتفكَّرونَ)

وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عاقلان في الارض، من أن التفكر هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه

كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكر واستقلال العقل على البشر حتى جاء الاسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر، وأعتقهم من هذا الرق، وقد تعلم هذه الحرية أمم الغرب من المسلمين، ثم نكس هؤلاء المسلمون على رءوسهم فحرموها على أنفسهم الا قليلا منهم حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم. وقد اعترف علماء الغرب لعلماء سلفنا بسبقهم وإمامتهم لهم، ونقل شيخنا الاستاذ الامام طائفة من أقوالهم في كتاب الاسلام والنصرانية

***

(٣) الاسلام دين العلم والحكمة

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم تناهز المئة، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها، فمن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا سورة الاسراء (١٧ : ٣٦ ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به علمٌ إنَّ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسئُولًا) اي لا تتبع ما ليس لك به علم يثبت عندك بالرؤية البصرية، أو بالروايات السمعية، أو بالبراهين القطعية، فان الله يسألك عما أعطاك من آلات هذا العلم الثلاثة

قال الراغب في تفسير «لا تقف»: أي لا تحكم بالقيافة والظن. وقال البيضاوي

ما ملخصه : ولا تتبع مالم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب اه ومنه قوله تعالى في العلم المأثور في التاريخ (ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ومنه قوله تعالى في علوم البشر المادية (٣٠:٦ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٧ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) الخ وقوله في العلم الروحي (١٧ : ٥٨ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

وهاتان الآيتان في بيان ضعف علم البشر وقلته حتى الدنيوي منه لا يزال يعترف العلماء أيهم أوسع علماً بمضمونهما، وبأن علمهم لا يتجاوز الظواهر، وقد صرح بعض فحول علماء الغرب بأنهم كلما ازدادوا علما علموا من حاجتهم إلى تحقيق ماسبق والزيادة عليه مالم يكونوا يعلمون كما قال الامام الشافعي:

كلما أدبني الدهـ ـر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددت علما زادني علما بجهلي

وقوله تعالى في العلم العقلي (٢٢: ٨ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظري بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين والوحي. وقوله في العلم الطبيعي (٣٠ : ٢٢ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) بكسر اللام أي علماء الكون. ومثله قوله بعد ذكر اخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب (٣٥ : ٢٨ إنما يخشى الله من عباده العلماء) الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأطواره

وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها، وهو يشمل اكثر العلوم والفنون أو جميعها ، وفي معناها آيات في سور أخرى

عظم القرآن شأن العلم تعظيما لا تعلوه عظمة أخرى بقوله تعالى (٣ : ١٨ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ) فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته، وجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة ، ويدخل فيها الانبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات في قوله (٥٨ : ١١ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ) وأمر أكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله (٢٠ : ١١٤ وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ما ورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى (١٠ : ٣٦ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُم إِلاَّ ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا)ومثله(٥٣:٢٧ وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ الاَّ الظَّنَّ وإِنَّ الظَّنَّ لا يُغنِي من الحَقِّ شَيْئًا) وقوله في قول النصارى بصلب المسيح (٤ : ١٥٦ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلمٍ الاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ)

وبلغ من تعظيمه لشأن العلم البرهاني أن قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه وهو اكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال (٧ : ٣٢ قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنها وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيرِ الحَقِّ وأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَم يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وأَنْ تَقولوا عَلَى اللهِ ما لا تَعلَمونَ)

وقال في بر الوالدين الكافرين (٢٩ : ٨ وَوَصَّيْنا الانسانَ بِوَالِدَيهِ حُسْنًا وَإِنْ جاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ما ليسَ لكَ بهِ عِلمٌ فلا تُطِعهُمَا)

ومعلوم من الدين بالضرورة أن الشرك بالله لا يكون بعلم ولا ببرهان ، لأنه ضروري البطلان ، وترى تفصيل هذا فيما بعده من تعظيم أمر الحجة والدليل وما يليه من ذم التقليد

الحكمة

وأما الحكمة فقد قال تعالى في تعظيم شأنها المطلق (٢:٢٦٩يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً وما يذّكّرُ إلا أُولوا الألبابِ) وقال تعالى في بيان مراده من بعثة محمد خاتم النبيين (٦٢:٢ هوَ الذي بَعثَ في الأُمّيينَ رسولاً منهم يتلو عليهمْ آياتهِ ويزكّيهمْ ويَعلّمهُم الكتابَ والحكمةَ وَإنْ كانوا منْ قبلُ لفي ضلالٍ مُبين) ، وفي معناها آيتان في سورتي البقرة وآل عمران . وقال لرسوله ممتناً عليه(١١٢:٤ وَأنزلَ عليكَ الكتابَ والحكمةَ وَعلّمكَ ما لم تكنْ تعلمُ ، وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيما) وقال له (١٦ : ١٢٥ أُدعُ إلى سَبيلِ ربّكَ بالحكمةِ والمَوعظةِ الحسنةِ) وقال له في خاتمة الوصايا بأمهات الفضائل والنهي عن كبار الرذائل ، مع بيان عللها وما لها من العواقب (١٧ : ٣٩ ذلكَ مِمّا أوحى إليْكَ ربُّكَ منَ الحكمةِ) وقال لنسائه رضي الله عنهن (٣٣ : ٣٤ واذْكُرنَ ما يُتلى في بيوتكُنّ منْ آياتِ اللهِ والحكمة)

وقد آتى الله جميع أنبيائه ورسله الحكمة ، ولكن أضاعها أقوامهم من بعدهم بالتقاليد والرياسة الدينية ، ونسخها بولس من النصرانية بنص صريح . قال الله تعالى في اليهود(٤:٥٤ أمْ يحسُدونَ النّاسَ على ما آتاهمُ اللهُ منْ فضلهِ ، فقدْ آتينَا آلَ ابراهيمَ الكتابَ والحكمة وآتيناهمْ مُلكاً عظيما) ،

فالكتاب أعلى ما يؤتيه تعالى لعباده من نعمه ويليه الحكمة ويليها الملك . وقال في نبيه داود عليه السلام (٢ : ٢٥١ وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ وعَلَّمهُ مِمَّا يشَاءُ) وقال لنبيه عيسى عليه السلام (٦ : ١١٣ وَإِذْ عَلَّمْتكَ الكِتابَ والحِكمةَ والتَّوْراةَ والانجيلَ) وقال (٣١ : ١٢ ولقدْ آتينا لُقمانَ الحِكمةَ) وذكر من حكمته وصاياه لابنه بالفضائل ومنافعها ونهيه عن الرذائل معللة بمضارها .

فالحكمة أخص من العلم ، هي العلم بالشيء على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل ، فهي بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والاخلاق وأسرار الخلق ، ويدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الاسراء التي نقلناها آنفا في صفحتي ١٤٤و١٤٥(ذلكَ مِمَّا أوحى إليكَ ربُّكَ منَ الحِكمةِ).

ويكثر في القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق للحقائق الذي يكون به العالم حكيما عاملا متقفاً ، فراجع منها في سورة الأنعام ٦ : ٢٥ و ٦٥ و ٩٨ وفي سورة الأعراف ٧ : ١٧٨ وفي سورة الأنفال ٨ : ٦٥ وفي سورة التوبة ٩ : ٨٢ و ٨٨ و ١٢٣ وحسبك ما في هذه السور الأربع تعريفاً بالفقه وانه هو الحكمة لا علم ظواهر الأحكام من الطهارة ، والبيع والاجارة الخ فان تسمية هذا بالفقه اصطلاحية لا قرآنية ، ومنه ما هو ضد فقه القرآن كالحيل التي تعلم الناس التفصي من حكمة القرآن

(٤) الاسلام دين الحجة والبرهان

قال تعالى (٤ : ٧٣ يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكم بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُم وَأَنزَلْنا إِليكم نُوراً مُبِيناً) وقال (٢٣ : ١١٧ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخرَ لا بُرْهانَ لهُ بهِ فإِنَّما حِسابُهُ عِندَ رَبِّهِ ، انَّهُ لا يُفلِحُ الكافِرُونَ)

قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتج به مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيما لشأن البرهان ، وذلك انه تعالى يبعث الامم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال (٢٨ : ٧٥ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فقلنا هَاتُوا بُرْهَانَكُم ، فعلموا أَنَّ الحقَّ للهِ وَضلَّ عنهم ما كانوا يفترُونَ)

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والارض من سورة الانبياء (٢١ : ٢٢ لوْ كَانَ فِيهِمَا آلهةٌ إلا اللهُ لفسدَتا) ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال (٢٤ أَمِ اتخذوا مِنْ دونهِ آلهةً قُلْ هاتوا برهانكمْ)الآية ، ومثله في سورة النمل (٢٧ : ٦٤ أَمَّنْ يبدؤُ الخلقَ ثمَّ يعيدُه ومَنْ يرزُقكم منَ السَّماءِ والارْضِ ؟ أإلهٌ معَ اللهِ ؟ قلْ هاتُوا برْهانكمْ إنْ كنْتمْ صادِقين)

وقال في سياق محاجة ابراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان شركهم (٦ : ٨١ وكيفَ أخافُ ما أشْركتمْ ولا تخافونَ أنَّكمْ أشركتمْ باللهِ ما لمْ يُنزِّلْ بهِ عليكمْ سُلطانًا ؟ فأيُّ الفريقَينِ أحقُّ بالأمنِ إنْ كنْتمْ تعلمُونَ) ثم قال في آخره (٨٣ وتلكَ حُجتنا آتيناها ابراهيمَ على قومهِ ، نرفعُ درجاتٍ منْ نشاءُ ، إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليم) فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي في العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه

ومما جاء فيه البرهان بلفظ السلطان قوله تعالى (٤٠ : ٣٥ الذينَ يجادلونَ

في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) الآية ، وفي معناها من هذه السورة (٥٦ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) الآية، وفي عدة سور أخرى أنه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته (وسلطان مبين)

***

(٥) الاسلام دين القلب والوجدان والضمير

قال الفيومي في المصباح : ضمير الانسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر ، وقال والقلب من الفؤاد معروف ـ يعني أنه ضميره ووجدانه الباطن (قال) ويطلق على العقل . اه وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله في تفسير آية الاعراف (١) وقد ذكر في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية

منها قوله تعالى في سورة ق (٣٧ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقوله في سورة الشعراء (٨٨ يوم لا ينفع مال ولا بنون ٨٩ إلا من أتى الله بقلب سليم) ومنها مدحه لخليله ابراهيم ﷺ بقوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) وقوله حكاية عنه (٢: ٢٦٠ ولكن ليطمئن قلبي) وقوله في صفة المؤمنين (١٣: ٢٨ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقوله في صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) الخ ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والاخبات لله وتمحيصها من الشوائب ، وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيغ ، وعبر عن فقدها للاستعداد

---

(١) راجع صفحة ٤١٩ من جزء التفسير التاسع

للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها ، أي إنها كالمختوم المطبوع عليه فلا يدخله شيء جديد ، أو كالمعدن أحاط به وغلب عليه الرين وهو الصدأ أو الدنس فلا تقبل الصقل والجلاء

وإذ كان الاسلام دين العقل والبرهان، وحرية الضمير والوجدان، فقد أبطل ما كان عليه النصارى وغيرهم من الاكراه في الدين والاجبار عليه ، والفتنة والاضطهاد لمخالفيهم فيه، والآيات في ذلك كثيرة بيناها في محلها ، ومن دلائلها ذم القرآن للتقليد وتضليل أهله

***

(٦) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والجدود

كل ما نزل من الآيات في مدح العلم وفضله واليقين فيه واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان ، والمطالبة بالبرهان ، وذم اتباع الظن والخرص فيما يطلب فيه الايمان والعلم — يدل على ذم التقليد، وقد ورد في ذمه والنعي على أهله آيات كثيرة كقوله (٢ : ١٧٠ وإذا قِيلَ لهمُ اتَّبِعُوا ما أنزَلَ اللهُ قالوا بَلْ نَتَّبعُ ما ألفَيْنا عليهِ آباءَنا ، أوَلوْ كانَ آباؤهُمْ لا يعقِلونَ شيئًا ولا يهتَدُونَ) وقوله تعالى (٥ : ١٠٤ وَإذا قيلَ لهُمْ تعالَوْا إلى ما أنزَلَ اللهُ وَإلى الرَّسولِ قالوا حَسبُنا ما وَجدْنا عليهِ آباءَنا ، أوَلَوْ كانَ آباؤهم لا يعلَمونَ شيئًا ولا يَهتَدُونَ) ذمهم من ناحيتين (إحداهما) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقي في العلم والعمل، وليس هذا من شأن الانسان الحي العاقل ، فان الحياة تقتضي النمو والتوليد ، والعقل يطلب المزيد والتجديد (والثانية) أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر في التمييز بين الحق والباطل والخير والشر ،

والحسن والقبيح، بطريق العقل والعلم وطريق الاهتداء في العمل ويؤيده قوله (٧: ٢٨ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا، قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة (٤٣ : ٢٠ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ٢١ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ٢٢ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ٢٣ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)

وتراجع الشواهد على هذا في قصة ابراهيم مع قومه في سور الانبياء والشعراء والصافات

فالقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والاديان السابقة الى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول الى العلم والهدى في الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فان هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر والقلب التي امتاز بها البشر، وبهذا العلم والهدى امتاز الاسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الامم أفواجا، ثم نكس المسلمون على رءوسهم إلا قليلا منهم، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمروهم به، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الامم التي وكل الله دعوتها اليهم، وصاروا حجة على دينهم، فكيف يدعون له وحجته القرآن وهم يحرمون الاهتداء به(١) حتى ان أدعياء العلم الرسمي(٢) فيهم ينكرون

(١) راجع ص ١٣٤ (٢) المراد بالعلم الرسمي الذي يعتمد مدعيه في انتحاله على الشهادة الرسمية من المدرسة التي تعلم فيها دينية كالازهر او مدنية، وكم حامل شهادة بالعلم وهو جاهل

أشد الانكار على من يدعونهم إلى اتباع كتاب الله وهدي رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله ، ونحن معهم في بلاء وعناء، نقاسي منهم ماشاء الجهل والجمود من استهزاء ، وطعن وبذاء ، وتهكم بلقب (المجتهد) الذي احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء

ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الاسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم فيه أفواجا حتى يعم الدنيا، لان التعليم العصري في جميع مدارس الارض يجري على طريقة الاستقلال في الفهم واتباع الدليل في جميع بلاد الافرنج والبلاد المقلدة لهم ، ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الاديان تقليدية ويعتدونها نظما أدبية واجتماعية للامم ، فلهذا يرون الأولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدي ، وبهذا يعسر علينا أن نقنعهم بامتياز الاسلام على دينهم ؛ لانه يقل فينا من يقدر على إظهار الاسلام في صورته التي خصه بها القرآن ، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين ، رضوان الله عليهم أجمعين

بيد أن محافظة الافرنج على نظام النصرانية بدون إيمان إذعاني سيزول فقد كثرت الجمعيات الدينية والعلمية التي تصرح بانكار ألوهية المسيح وأكثر تقاليد الكنائس كما تقدم تفصيل ذلك في ص ١٥٨

دحض شبهة ، وإقامة حجة

يتوهم بعض المقلدين ان دعوة المسلمين الى الاهتداء بالكتاب والسنة والاستقلال في فهمهما التي اشتهر المنار بها في عصرنا ، هي التي جرأت بعض الجاهلين على دعوى الاجتهاد في الشريعة والاستغناء عن تقليد الأئمة والانتقاد عليهم وعلى أتباعهم بما هو ابتداع جديد ، واستبدال للفوضى بالتقليد ، وهو وهم سببه الجهل

بالدين وبالتاريخ ، فمذاهب الابتداع والالحاد قديمة ، قد نجمت قرونها في خير القرون وعهد أكبر الأئمة ، وكان أشدها إفساداً للدين الدعوة الى اتباع الأئمة المعصومين ، الذين لا يسئلون عن الدليل ، على خلاف ما كان عليه أئمة السنة من تحريم اتباع أحد لذاته في الدين بعد محمد المعصوم الذي لا معصوم بعده ﷺ ، ولكن المقلدين لهؤلاء المحرمين للتقليد قد اتبعوا القائلين بعصمة أئمتهم حتى ملاحدة الباطنية منهم ، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم بل بأقوال كل من ينتمي اليهم من أدعياء العلم على اعتقادهم وإقرارهم بأنهم غير معصومين .

وإنما تروج البدع في سوق التقليد الذي يتبع أهله كل ناعق ، لا في سوق الاستقلال والاخذ بالدلائل ، ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لا تنساب جميع الدجالين من أهل الطرائق وغيرهم الى أئمة المذاهب المجتهدين ، وهم في دعوى اتباعهم من الكاذبين ، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة أحق منهم باتباع الائمة ، ولا نعني بالاهتداء بالكتاب والسنة ان كل منهم إمام مجتهد مطلق كمالك والشافعي (رض) فهذه أعلى درجة في العلم ، والعلم درجات كما قال الله عز وجل . وقد كان يوجد في السلف قبل تدوين المذاهب عوام وخواص كلهم يهتدون بهما

وصاحب المنار قد وقف نفسه على الرد على جميع الملاحدة والبهائية والقاديانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا وهو لم يدع مذهبا له يدعو اليه ، ولم يخالف إجماع الامة ، ولا فرق بين الائمة ، ولله الحمد والمنة

(٧) الحرية الشخصية في الدين بمنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه المزية من مزايا الاسلام هي نتيجة المزايا التي بينا بها كونه دين الفطرة فأما منع الاكراه فيه وعليه فالاصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة (١٠: ٩٩ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ ١٠٠ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا

بإذْنِ اللهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ١٠١ قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ)

علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه ﷺ من ايمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للايمان ، وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه ، والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر [1]

ثم قوله تعالى له عند ما أراد أصحابه أخذ من كان عند بني النضير من أولادهم عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم (٢:٢٥٦ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ) الآية — فأمرهم ﷺ أن يخيروهم فمن اختار اليهودية أجلي مع اليهود ولا يكره على الاسلام ، ومن اختار الاسلام بقي مع المسلمين كما بيناه في تفسير الآية

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لاجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الاول لشرعية القتال في الاسلام وسيأتي بيانه في المقصد الثامن من هذا الكتاب

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهودة عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن ، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، وقد بيناها في الكلام على وظائف الرسل عليهم السلام ، وحسبك منها قوله عز وجل لرسوله ﷺ خاتم النبيين (٨٨ : ٢١ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ٢٢ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

---

(١) راجع تفسير هذه الآيات من آخر سورة يونس في آخر الجزء ١١ من تفسير المنار

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

(الاصلاح الانساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان)

وحدة الأمة - وحدة الجنس البشري - وحدة الدين - وحدة التشريع بالمساواة في العدل - وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد - وحدة الجنسية السياسية الدولية - وحدة القضاء - وحدة اللغة

جاء الاسلام والبشر أجناس متفرقون ، يتعادون في الانساب والالوان ، واللغات والاوطان والاديان ، والمذاهب والمشارب ، والشعوب والقبائل ، والحكومات والسياسات ، يقاتل كل فريق منهم مخالفه في شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه في البعض الآخر ، فصاح الاسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الانسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم ، ونهاهم عن التفرق والتعادي وحرمه عليهم ، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية ، وبيان أصول الكتاب الالهي وسنة خاتم النبيين في الجامعة الانسانية ، لا يمكن بسطها إلا بمصنف كبير ، فنكتفي في هذا المقصد من إثبات الوحي المحمدي بسرد الاصول الجامعة في هذا الاصلاح الانساني الداعي إلى جعل الناس على ملة واحدة ، ودين واحد ، وشرع واحد وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما ان جنسهم واحد ، وربهم واحد . ونبدأ بالاصل الجامع في هذا ونقفي عليه بالاصول والشواهد المفصلة له

﴿ الاصل الاول للجامعة الاسلامية الانسانية وحدة الامة ﴾

قال الله تعالى في سورة الانبياء مخاطبا أمة الاسلام بعد ذكر خلاصة من قصصهم (٢١ . ٩٢ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ *)

(*) قرأ الجمهور (أمتكم) بالرفع على أنها خبر و (أمة) بالنصب على أنها حال لازمة و (واحدة) صفة لأمة

ثم بين لها في سورة المؤمنين أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للامة فقال
(٢٣ : ٥١ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥٢) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)
ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه ، وأما خاتم النبيين فأمته جميع الناس، وقد فرض الله عليهم الايمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم ، فالايمان بخاتمهم كالايمان بأولهم وبمن بينهما، فمثلهم كمثل الملوك أو الولاة في الدولة الواحدة ، ومثل اختلاف شرائعهم بنسخ المتأخر منها لماقبله كمثل تعديل القوانين في الدولة الواحدة. أيضا الى أن كمل الدين كما تقدم (ص ١٦٠ ـ ١٦٢)

(الاصل الثاني) الوحدة الانسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم، وشاهده العام قوله تعالى (٤٩ ، ١٣ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) وقد بلغ النبي ذلك في حجة الوداع ، فتلا الآية وقال ما خلاصته أنه ليس لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود فضل ـ ولا العكس ـ الا بالتقوى. من حديث العداء بن خالد في المعجم الكبير للطبراني. وهذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف ، وإلى ترك التعادي بالتخالف

(الاصل الثالث) وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطري الذي جاء به غيره من الرسل ، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر ، وشاهده الأعم قوله تعالى(٧ : ١٦٨ (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)ولما كان الاسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى (٢ : ٢٥٦(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)،

(الاصل الرابع) وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لاحكام الاسلا

في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والملك والسوقة ، والغني والفقير ، والقوي والضعيف ، وسنذكر بعض شواهده في إصلاح التشريع من المقصد السادس

(الاصل الخامس) الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين في اخوته الروحية وعباداته ، وفي الاجماع للاجتماعي منها كالصلاة ومناسك الحج ، فملوك المسلمين وأمراؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام في صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج ، ولا تجد شعوب الافرنج المنتسبين إلى النصرانية يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الاسلام بالضرورة للعمل بها من أول الاسلام الى اليوم ، قال تعالى (٤٩ : ١٠ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وقال في أحكام المشركين المحاربين (٩ : ١١ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)

(الاصل السادس) وحدة الجنسية السياسية الدولية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي متساوية في الحقوق العامة كحماية أهلها والدفاع عنهم إلا حق الاقامة في جزيرة العرب أو الحجاز فانه خاص بالمسلمين ، لان للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد ، وحكم الاسلام في معابد الملل الداخلة في ذمته انها خاصة بأهلها ولها حرمتها ، لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم ، المسلمون وغيرهم في هذا سواء

(الاصل السابع) وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة ، إلا أنه يستثنى منه الاحكام الشخصية الدينية ، فان الاسلام يراعي فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه في ذلك . فهو يسمح لغير المسلمين في أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى رؤساء ملتهم ، وهذا ضرب من المساواة ليس له في غير الاسلام ضريب ، لانه اشراك في الحكم والتشريع ، وأما إذا تحاكموا الينا

فاننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الناسخة لشرائعهم ، والاصل فيه قوله تعالى (٥ : ٤٢ فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) وقوله بعد آيات (٤٩ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)

(الاصل الثامن) وحدة اللغة ، ووجهها أنه لا يمكن أن يتم الاتحاد والاخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة. وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة ، يتعاونون بها على التعارف والتآلف ، ومناهج التعليم والآداب ، والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية ، وهذه الامنية قد حققها الاسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمها والتعبد بها ، والاتحاد باخوتهم فيها ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك كرر في القرآن بيان كونه كتابا عربيا ، وحكما عربيا ، وكرر الامر بتدبره والتفقه فيه ، والاتعاظ والتأدب به ، وأماغير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون لحكمه ، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك ، وكذلك كان الامر في الفتوحات الاسلامية العربية كلها

وقد فصلت في المنار والتفسير مسألة وجوب تعلم اللغة العربية في دين الاسلام وكونه مجمعا عليه بين المسلمين كما قرره الامام الشافعي (رض) في رسالته ، وهو الذي جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، ثم خلفاء الامويين والعباسيين ، الى أن كثر الاعاجم ، وقل العلم ، وغلب الجهل ، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه الله في العبادات من القرآن والاذكار [1]

(١) راجع ذلك في ص ٣١٠ من جزء التفسير التاسع

الشواهد من السنة على وحدة الجنس واللغة

كان النبي ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» رواه الامام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) وكان يخص بمقته وإنكاره التفرق في الجنس النسبي أو اللغة. أما الاول فمشهور ومنه ان أباذر (رض) وهو من السابقين الاولين المتقين تغاضب مع بلال الحبشي مولى أبي بكر (رض) وتسابا فقال له أبوذر: يا ابن السوداء فشكاه بلال الى النبي ﷺ فقال لابي ذر «أعيرته بأمه؟ انك امرؤ فيك جاهلية» رواه البخاري في مواضع ومسلم بدون ذكر اسم بلال. ولفظ البخاري في كتاب الادب عن أبي ذر كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنلت منها فذكرني إلى النبي ﷺ فقال لي «أساببت فلانا؟» قلت نعم. قال «أفنلت من أمه؟» قلت نعم، قال «انك امرؤ فيك جاهلية» قلت: على ساعتي هذه من كبر السن؟ قال «نعم هم اخوانكم» الخ الحديث وسيأتي في الوصية بالرقيق، وروي ان أبا ذر تاب توبة نصوحا حتى أمر بلالا أن يطأ على وجهه

وأما الثاني فيجمعه مع الاول ما رواه الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن مطاطية إلى حاقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال: هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا؟ (يعني ـ هذا المنافق ـ بالرجل النبي ﷺ وان الاوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لانهم من قومه، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلى نصره؟) فقام اليه معاذ بن جبل «رض» فأخذ بتلبيبه (١) ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته، فقام النبي ﷺ مغضبا يجرّ رداءه

---

(١) اللبب بفتحتين موضع النحر، وتلبيبه ما على لببه ونحره من الثياب اي قبض عليها وجذبه بها

حتى أتى المسجد ثم نودي : ان الصلاة جامعة * وقال ﷺ «يا أيها الناس إن الرب واحد، والاب واحد، وان الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي» فقام معاذ فقال فما تأمرني بهذا المنافق يارسول الله ؟ قال « دعه إلى النار » فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ماوقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام ؟ أرأيت لو حافظوا على هذه الاخوة الاسلامية أكانت حدثت فيهم تلك الشعوبية المجوسية الاولى ، وهذه العصبية التركية الاخرى ؟ كلا إنهم لو حافظوا عليها لعمموا أخوتها ، ولأصلحوا بها شعوب الارض كلها .

يعترض بعض أولي النظر القصير والبصر الكليل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبيعة البشر، ويرد عليهم بأن توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة البشر إن أريد بالبشر جميع أفرادهم . وان الحكماء مازالوا يسعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة مع علمهم أن ترقي بعض اللغات بترقي أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة والعصبية يستحيل معه أن يرغبوا عنها الى غيرها، ولم يسع أحد منهم لجمعهم على دين واحد . وان القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الانسان تأبى أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد (١١ : ١١٨ وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدةً وَلا يَزالونَ مُخْتَلِفينَ إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلكَ خَلقَهُمْ) وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذي يثيره الخلاف فيهم ـ هذا الخلاف الذي جعل أعظم شعوب الارض وأرقاهم في العمران يبذلون

*) هذه الجملة يدعى بها الى صلاة العيدين وكل اجتماع عام في المسجد

في هذا العهد أكثر ماتستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحروب التي تنذر عمرانهم الخراب والدمار

فاذا كان مقتضى طبع البشر أن لا يتفقوا على شيء واحد من لغة ولا دين ولا غيرهما من الامور التي تختلف فيها الآراء فهذا لا يمنع دعوتهم كلهم إلى الحق والخير.

وقد استشكل هذا بعض العلماء من حيث المخاطب بتنفيذه فقلت لهم ان المخاطب بتعميم لغة الاسلام، هم أولو الامر المخاطبون بتعميم دعوة الاسلام، وإقامة شرع الاسلام، وقد جري على ذلك الصحابة والخلفاء من بعدهم كما تقدم

دعا الاسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الامم فكانوا يدخلون فيه أفواجا، حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي إلى أقصى الهند والصين، ولولا ما طرأ عليه من الابتداع، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد، وعلى شعوبه من الجهل والفساد، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الامم، فمن غرائزهم اختيار الافضل إذا عرفوه، بل علمنا القرآن أن هذا سنة عامة في الاجتماع البشري بل في كل تنازع بين الحق والباطل، والنافع والضار، والصالح والفاسد، انما يكون الغلب للافضل، والثبات والبقاء للامثل، فراجع الآيات في دمغ الحق للباطل، ثم اعتبر فيه بهذا المثل الماثل (١٧:١٣ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ)

قال أحد كبار علماء الالمان في الاستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة : انه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له لماذا؟ قال لانه هو الذي حول نظام الحكم الاسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب ، ولولا ذلك لعم الاسلام العالم كله ولكنا نحن الالمان وسائر شعوب أوربة عربا مسلمين

قد أعجبت هذا الالماني عصبيته القومية، وخيلاؤه الاوربية ، التي عتلت قومه وجيرانهم الى جحيم الحرب الاخيرة عتلا (١) فأخسرت اوربة عشرين مايونا من الرجال، والوف الملايين من الاموال، وباء فيها قومه بالخزي والنكال، وسيطرة الاستذلال ، وانما كان كره ان يكونوا قد اهتدوا بالاسلام ، بما صرفت بصره عصبيته الالمانية ، عن رؤية المصلحة الانسانية الجامعة، ولو نظر فيها فأبصرها لعلم ان الافضل والامثل والاكمل للبشر توحيد شعوبهم بحيث يتفاضلون بعلوم افرادهم واعمالهم ، لا بأنسابهم وأوطانهم ولغاتهم المفرقة بينهم، وهو قد علم من قبل أن هذه الجامعة الانسانية لا سبيل اليها الا بهداية الاسلام فلا تنال الا به، ولو اهتدت به اوربة اليوم لزالت اضغانها، ووجهت علومها وفنونها الى اسعاد البشر وعمارة الارض كلها، فان اصرار الافرنج على الكبرياء بجلدتهم البيضاء واحتقارهم للسود والحمر والسمر والصفر ، وهضمهم لحقوقهم ، واستباحتهم لظلمهم، لمن اكبر العار على حضارتهم ، وان استثناءهم للاصفر الياباني من هذا الاحتقار ، لما يلطخهم بعار فوق عار؛ وإن حضارة الاسلام الانسانية الجامعة لتعلو عليها الوفا من الاميال لا الامتار ،

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الاصول التي توحد الامم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسي ، لا بالقهر العسكري من رأي او الهام من نبع من نفس محمد صلى الله عليه وسلم الامي في سن الكهولة ففاق بها جميع الانبياء والحكماء ؟ أم الأقرب الى العقل أن تكون بوحي من الله تعالى أفاضه عليه ؟

---

(١) عتله الى الشيء أو المكان جره بقهر ودفعه اليه بعنف

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

« تقرير مزايا الاسلام العامة في التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات»

(ونلخص أهمها بالاجمال في عشر جمل)

(الجملة الاولى) كونه وسطا جامعاً لحقوق الروح والجسد ، ومصالح الدنيا والآخرة . وهو نص قوله تعالى (٢ : ١٤٣) وقد تقدم ذكرها وبيان معنى الشهادة على الناس فيها قريبا « ص ١٦١ » وبينا في تفسيرها في أول الجزء الثاني من تفسير المنار ان المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود ، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد واذلال النفس والزهد كالهندوس والنصارى ، وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم

(الثانية) كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالايمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الاخلاق، ومحاسن الاعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال ، ولا بالشفاعات وخوارق العادات ، وتقدم بيانه أيضاً

(الثالثة) كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف كما يزعم أعداء الاديان، وتقدمت شواهده في كونه عاما مكملا ومتمما لدين الله على ألسنة رسله في الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ وفي الكلام على الرسل من المقصد الثاني (ص ١٦٠) وانما تفصيل أصوله في تلك الوحدات الثمان التي بيناها آنفا في المقصد الرابع

(الرابعة) كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إعنات ، قال الله عز وجل (٢ : ٢٨٦ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وقال بلغت حكمته (٢ : ٢٢٠ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ) وقال عظمت رأفته (٢ :١٨٥ يُرِيدُ

اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ) وقال جلت منته (٢٢: ٧٧ وَجَاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هوَ اجتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) وقال عمت رحمته (٥ : ٧ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيكُمْ مِنْ حَرَجٍ)

ومن فروع هذا الاصل ان الواجب الذي يشق على المكلف اداؤه ويحرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقا كالمريض الذي يرجى برؤه والذي لا يرجى برؤه ومثله الشيخ الهرم — الاول يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر، والثاني لا يقضي بل يكفر باطعام مسكين فدية عن كل يوم إذا قدر. وأما المحرّم فيباح للضرورة بنص القرآن ، وإن كان تحريمه أو النهي عنه لسد ذريعة الفساد فيباح للحاجة كما بيناه في تفسير آيات الربا وآيات الصيام ، وآية محرمات الطعام *

(الخامسة) منع الغلو في الدين وإبطال جعله تعذيبا للنفس باباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الامر بالأكل من الطيبات في سورة البقرة وسورة المائدة وفي تفسير (٧: ٣١ يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ (٣٢) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

وقال تعالى (ياأهل الكتاب لا تغلو في دينكم) وهو في (١٥: ١٧) و(٦: ٧٧) وفي هذا النهي اعتبار للمسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر . والاحاديث الصحيحة في نهي المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك

*) قد بينا يسر الاسلام وسهولته في مواضع من المنار وتفسيره اوسعها في تفسير « ٥ : ١٠٤ » وقد جمع في رسالة مستقلة

الطيبات وعن الرهبانية والخصاء مبينة لهذه الآيات وهي مصداق تسمية النبي ﷺ لملته بالحنيفية السمحة

(السادسة) قلة تكاليفه وسهولة فهمها وقد كان الاعرابي يجيء النبي ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه في مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول « أفلح الاعرابي إن صدق » وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له. ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسرا ، والعمل بها كلها متعذراً ، ولا يعترض على هذه المزية بالصلوات الخمس في كل يوم وليلة فان أقل ما تجزىء به كل صلاة منها يمكن أن يؤدى في خمس دقائق ومنها صلاة وقتها عقب القيام من النوم في الصباح وصلاة قبل النوم في الليل ، فهل يشق على المرء أن يؤدي في سائر يومه ثلاث صلوات متفرقة في ربع ساعة منه ؟

« فان قيل » انه يشترط فيها الطهارة « قلنا » ان طهارة البدن والثياب مطلوبة شرعا وطبا في كل وقت، فهي تكون قبل الصلاة فلا تضيع على المسلم وقتا ولا عملا في أثناء النهار إلا نادرا ، وكذلك الغسل الواجب قلما يجب إلا في الليل أو الصباح ، وأما الوضوء فلا يشق منه في أثناء العمل الا غسل الرجلين على الذين يلبسون الجوارب والاحذية العصرية ، ومن لبسها على طهارة يجوز له المسح بدلا من الغسل ، وأما فوائد هذه الصلاة وهذه الطهارة في النفس والبدن، فهي لا تقدر بثمن ، فالصلاة تطهير للنفس وتزكية لها بمناجاة المؤمن لربه فتصده عن الفحشاء والمنكر

(السابعة) انقسام التكليف إلى عزائم ورخص، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص وابن عمر يرجح العزائم والناس درجات في التقصير والتشمير والاعتدال فيوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات قال الله تعالى (٣٥: ٣٢ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

(الثامنة) نصوص الكتاب وهدي السنة مراعى فيها درجات البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها، فالقطعي منها هو العام ، وغير القطعي تتفاوت فيه الافهام ،

فيأخذ كل أحد منه بما أداه اليه اجتهاده ، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعل عند ما نزلت آية البقرة في الخمر والميسر الدالة على تحريمهما دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض ، وأقر كلا على اجتهاده إلى أن نزلت آيتا المائدة بالتحريم القطعي .قال تعالى(٢٩: ٤٣ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ) وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعي يفهمه كل أحد ، والاول مذهب الحنفية . وأما الثاني وهو التحريم فهومذهب جمهور السلف أيضاً ، وأما الآيات الظنية الدلالة وأحاديث الآحاد الظنية الرواية أو الدلالة ، فهي موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده في العبادات والاعمال الشخصية، وإلى اجتهاد أولي الامر في الاحكام القضائية والأمور السياسية، وقد بينا هذا في مواضع من التفسير والمنار

(التاسعة) معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى فليس لاحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا لخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً ولا أن يحاسبه على مايعتقد أو يضمر في قلبه ، وإنما العقوبات على المخالفات العملية للاحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم،وقد فصلنا هذا في أحكام المنافقين من خلاصة تفسير سورة براءة — التوبة

(العاشرة) مدار العبادات كلها على اتباع ماجاء به النبي ﷺ في الظاهر ، فليس لاحد فيها رأي شخصي ولا رياسة ، ومدارها في الباطن على الاخلاص لله تعالى وصحة النية ، والآيات والاحاديث في الأمرين كثيرة

كل واحدة من هذه العشر جديرة بأن تجعل مقصداً خاصا من مقاصد الوحي، ويستدل بها على أنه من عند الله عز وجل ، لا من الآراء والالهامات النفسية لمحمد ﷺ الامي في عهد الكهولة ، جاءت مصلحة لما أفسده رؤساء الأديان كلها من السيطرة على عقائد الناس وأعمالهم ، والتحكم في وجدانهم ، وهو لم يكن يعلم من تفصيل هذه المفاسد شيئا ، وإنما غرضنا الاختصار ، لان أهل هذا العصر مترفون كثيرو الشواغل فيملون التطويل

المقصد السادس من مقاصد القرآن

(بيان حكم الاسلام السياسي الدولي: نوعه وأساسه وأصوله العامة)

الاسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم لان ماجاء به من إصلاح البشر في جميع شئونهم الدينية، ومصالحهم الاجتماعية والقضائية ، يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل ، وإقامة الحق ، والاستعداد لحماية الدين والدولة ، وفيه أصول وقواعد

(القاعدة الاساسية الاولى للحكم الاسلامي)

الحكم في الاسلام للأمة، وشكله شوري، ورئيسه الامام الاعظم أو (الخليفة) منفذ لشرعه ، والامة هي التي تملك نصبه وعزله، قال الله تعالى في صفات المؤمنين (٤٢ :٣٨ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) وقال لرسوله ﷺ (٣ :١٥٩ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه في كتاب الله تعالى ، وقد بينت في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الامة لانها مصلحة تختلف باختلاف الاحوال والازمنة ، ولو قيدت بنظام لجعل تعبديا [١]

وقال تعالى (٤ : ٥٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) وأولو الامر أهل الحل والعقد والرأي الحصيف في مصالحها الذين تثق بهم الامة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من سورتها

(١) راجع ص ٩٩ ج ٤ تفسير

(٨٣ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ . وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) فأولو الامر الذين كانوا مع الرسول وكان الامر يرد اليه واليهم في الشئون العامة للامة من الامن والخوف وغيرهما هم الذين كان ﷺ يستشيرهم في الامور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأي الأكثر وإن خالف رأيه، كاستشارتهم في غزوة أحد في أحد الامرين : الحصار في المدينة أو الخروج إلى أحد للقاء المشركين فيه . وكان رأيه ورأى بعض كبار الامة الاول ، ورأى الجمهور الثاني، فنفذ رأى الاكثر ، ولكنه استشار في مسألة أسرى بدر خواص أولي الامر وعمل برأى أبي بكر كما فصلناه في تفسير سورة الانفال ، ولم تكن آية الامر له بالمشاورة قد نزلت فهي انما نزلت في غزوة أحد

وقد بينت في تفسير الآية الاولى (٥ : ٥٨) ما تدل عليه من قواعد الحكم الاسلامي وكونه أفضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر(١)

ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائي والسياسي هو حق الأمة المعبر عنها في الحديث بالجماعة أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة وفي سائر الاحكام العامة كقوله (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ، وما في معناها من سورة الانفال والبقرة وآل عمران ومثل قوله تعالى (٤٩: ٩ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي

---

(١) راجع ص ١٨٠ — ٢٢٢ ج ٥ تفسير

تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

وكذلك خطابه لهم في أحكام الاموال كالغنائم وتخميسها وقسمتها وأحكام النساء وغيرها (وقد بيناهذا كله في مواضعه من التفسير)

وقد صرح كبار النظار من علماء الاصول بأن السلطة في الاسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم ، قال الامام الرازي في تعريف الخلافة : هي رياسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الاشخاص. وقال في القيد الأخير (الذي زاده على من قبله) هو احتراز عن كل الامة إذا عزلوا الامام لفسقه . وقال العلامة السعد التفتازاني في شرح المقاصد عند ذكره هذا التعريف وما علل به القيد الاخير : وكأنه أراد بكل الامة أهل الحل والعقد واعتبر رياستهم على من عداهم أو على كل من آحاد الأمة اه وقد فصلنا مسألة سلطة الأمة في كتابنا « الخلافة أو الامامة العظمى »

فهذه القاعدة الاساسية لدولة الاسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررها القرآن في عصر كانت فيه جميع الامم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها في أمور دينها ودنياها ، وكان أول منفذ لها رسول الله ﷺ فلم يكن يقطع أمراً من أمور السياسة والادارة العامة للامة إلا باستشارة أهل الرأي والمكانة في الامة ، ليكون قدوة لمن بعده

ثم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون فقال الخليفة الاول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) في أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته : أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينوني ، وإذا زُغتُ فقوّموني . وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من رأى منكم فيَّ عوجا

فليقومه . فقال له أعرابي لو رأينا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا ، فقال الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه . وكان يجمع أهل العلم والرأي من الصحابة ويستشيرهم في كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أو قضاء من رسوله ﷺ وقال الثالث عثمان (رضي الله عنه) أمري لأمركم تبع . وكذلك كان عمل الخليفة الرابع علي المرتضى رضي الله عنه وكرم وجهه، ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ؛ ولا يصح أن يكون حكم الاسلام أدنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى، ووجد ذلك في أمم أخرى ، وامتاز الاسلام بجعله دينًا ثابتًا بقول الله وسنة رسوله العملية وسيرة الخلفاء الراشدين وإجماع الامة ، وان جهل ذلك من جهله من الفقهاء ، فجعلوها فضيلة مندوبة لا واجبة لارضاء الملوك والامراء

ذلك بأن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن الصراط المستقيم إلا قليلا منهم، وشايعهم علماء الرسوم المنافقون ، وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الاساسية لحكومة دينهم؛ وكان من حسن حظ الافرنج في حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقتفي في حكمه أثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز بقدر علمه ـ وهو صلاح الدين الايوبي (رح) الذي قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه «ماعسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته ، فالحق يقضي لك أو عليك» ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذاً لحكم الشرع ـ كالشحنة وهو صاحب الشرطة ـ وأن القضاة مستقلون بالحكم لانهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس. وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه، ثم درسوا تاريخ الاسلام فعرفوا منه ما

جهله أكثر المسلمين المتأخرين، حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الامة التي جاء بها الاسلام، وصاروا يدعونها لانفسهم، ويعيبون الحكومات الاسلامية باستبدادها، ثم بجعل الاسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصي، وصار المسلمون الجاهلون بدينهم وبتاريخهم يصدقونهم، ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم أنه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم، فكان هذا من أسباب ضياع أعظم مزايا الاسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه، وصدق عليهم أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم، وهم يعدون الملايين، فتدبر قوله تعالى في أعدائهم الاولين (٥٩ : ٢ يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

اصول التشريع في الاسلام

المعروف عند جمهور أهل السنة أن أصول التشريع الاساسية أربعة :

(١) القرآن المجيد، والمشهور عند علماء الاصول أن آيات الاحكام العملية فيه من دينية وقضائية وسياسية لا تبلغ عشر آياته وعدها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات، والظاهر أنهم يعنون الصريح منها، وأكثرها في الامور الدينية لان أكثر أمور الدنيا موكول إلى عرف الناس واجتهادهم

(٢) ما سنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان وتنفيذ لكتاب الله تعالى وقالوا أيضاً ان أحاديث الاحكام الاصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر

(٣) إجماع الامة واتفق أهل السنة على الاحتجاج باجماع الصحابة في الدينيات، والشيعة على اجماع أهل البيت في عرفهم، وفي اجماع المجتهدين من غيرهما تفصيل

(٤) اجتهاد الائمة والامراء والقضاة والقواد في الامور القضائية والسياسية والادارية والحربية، وخصه بعض الفقهاء بالقياس وأنكر بعضهم القياس وقيده آخرون كما فصلنا ذلك في مواضع أبسطها ما في تفسير آية (٥ : ١٠١)

وورد في هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين (منها) حديث معاذ أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ » قال أقضي بما في كتاب الله ، قال « فان لم يكن في كتاب الله ؟ » قال فبسنة رسول الله ﷺ قال « فان لم يكن في سنة رسول الله ؟ » قال أجتهد رأيي لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال « الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسول الله ﷺ » رواه أبو داود والترمذي من طريق الحارث بن عمرو وفيه مقال وله شواهد ، وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين وقد بيناه في محله وبه أمر عمر (رض) قاضيه شريح في كتابه المشهور في القضاء ولكن الفقهاء يقدمون الاجماع حتى العرفي عند علماء الاصول ـ وهو مختلف فيه ـ على النص المختلف في حكمه

والاصل في شرعية اجتهاد الرأي للحكام حديث « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » رواه الجماعة كلهم عن أبي هريرة وإلا الترمذي عن عمرو بن العاص

بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تُنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فانك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث بريدة. وقال مثل ذلك في انزالهم على ذمة الامير دون ذمة الله ورسوله لئلا يخفرها . وهذا من أوسع النصوص الصحيحة في تفويض الاحكام السياسية والعسكرية إلى الخلفاء والامراء وقواد الجيوش لانها من المصالح العامة التي تختلف باختلاف الزمان والمكان. والاحوال وهو مذهب الامام مالك (رح)

قواعد الاجتهاد من النصوص

أحكام الكتاب والسنة منها أحكام خاصة بالاعمال والوقائع ومنها قواعد عامة للتشريع ، والاحكام الخاصة منها ماهو قطعي الرواية والدلالة لا مجال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لمانع شرعي من فوات شرط كدرء حد بشبهة أو عذر ضرورة ، وقد أمر عمر (رض) في المجاعة ألا يحد سارق . ومنها ما هو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أو قاض أو قائد جيش كما تقدم قريباً في العبادات والمحرمات

وأما القواعد العامة فهي ما تجب مراعاته في الاحكام المختلفة ، وأهمها في الاسلام تحري الحق والعدل المطلق العام، والمساواة في الحقوق والشهادات والاحكام، وحفظ المصالح ، ودرء المفاسد، ومراعاة العرف بشرطه ،ودرء الحدود بالشبهات ، وكون الضرورات تبيح المحظورات ، وتقدير الضرورة بقدرها ، ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، وحسبك بالشواهد من القرآن على قاعدة إيجاب العدل المطلق والشهادة وتحريم الظلم

(نصوص القرآن في ايجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم)

لما كان العدل أساس الاحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم ، أكد الله تعالى الامر به والمساواة فيه بين الناس في السور المكية والمدنية .قال تعالى (١٦ : ٩٠ إِنَّ اللهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ والاْحسَانِ) وقال (٤ : ٥٧ إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أَنْ تؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهلِهَا ، وَإذا حَكمْتُمْ بَينَ النَّاس أَنْ تحْكمُوا بالعدْلِ) وقال (٥ : ١٣٥ يا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا كونُوا قوّامينَ بالقِسْطِ شهُدَاءِ لِلهِ وَلَوْ علىأَنْفسكمْ أَوِ الوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبينَ

إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا[١] وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

أمر تعالى المؤمنين بالمبالغة في القيام بالقسط وهو العدل فان القوام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالامر وعدم التهاون والتقصير فيه، وبأن تكون شهادتهم في المحاكمات وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا مصلحة أحد، ولو كانت على أنفسهم أو والديهم والاقربين منهم ، وأن لا يحابوا فيها غنياً لغناه تقرباً اليه أو تكريماً له ، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه ، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم أو الشهادة كراهة أن يعدلوا فيهما لمراعاة من ذكر من الناس ، وأنذرهم عقابه إن لووا أي مالوا عن الحق أو أعرضوا عنه

وقال تعالى (٥: ٨ يا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا كونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بالقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ علىأَنْ لا تَعْدِلوا ، اعْدِلوا هوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقوا الله إنَّ الله خَبيرٌ بما تعْملون) فهذه الآية متممة لما قبلها ، فهناك يأمر بالمساواة في العدل والشهادة بين النفس وغيرها ، وبين القريب والبعيد ، وبين الغني والفقير ، وههنا يأمر بالمساوة فيهما بين الانسان وأعدائه مهما يكن سبب عداوتهم ، لا فرق فيها بين ديني ودنيوى ، فالشنآن البغض والعداوة وقيل مع الاحتقار ، فمعنى قوله (ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شنآنُ قومٍ على أَنْ لا تعدلوا) لايحملنكم بغضهم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم ، فالعدل بالمساواة أقرب إلى تقوى الله . وأنذر تارك

---

(١) «أن تعدلوا» بفتح أن لتقدير لام التعليل وهو قياسي ، والتقدير فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا ــ أو لئلا تعدلوا، اختلف النحاة في تقدير الاعراب واتفقوا على أن المراد ألا يكون الهوى سببا لترك العدل. ويؤكده الآية الثانية

العدل لاجل الشنآن بمثل ما أنذر به تاركه للمحاباة ، أنذر كلا منهما بأن الله خبير بما يعمله لا يخفى عليه منه شيء ، فهو يحاسبه على عمله وعلى نيته وقصده منه ، فيثيبه أو يعاقبه على ما يعلم من أمره

فالعدل هو الميزان في قوله تعالى (٤٢ :١٧ اللهُ الذي أنزلَ الكتابَ بالحقّ والميزانَ) وقوله (٢٥:٥٧ لقدْ أرسلْنا رسُلَنا بالبيّناتِ وأنزلْنا معهمُ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ ، وأنزلْنا الحديدَ فيهِ بأسٌ شديد ومنافع للناس) الآية .فخير الناس من يصدهم عن الظلم والعدوان هداية القرآن ،ويليهم من يصدهم العدل الذي يقيمه السلطان، وشرهم من لا علاج له إلا حديد السيف والسنان، والمراد به العقاب

فقوام صلاح العالم بالايمان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد ،فيجتنبها المؤمن خوفا من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيهما ، وبالعدل في الاحكام الذى يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان

الشواهد على حظر الظلم ومفاسده وعقابه

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ماورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه ، فقد ذكر الظلم في مئات من آيات القرآن أسوأ الذكر ، وقرن في بعضها بأسوإ العواقب في الدنيا والآخرة، وبأن الجزاء عليه فيهما أثر لازم له لزوم المعلول للعلة، والمسبب للسبب، وان الناس هم الذين يظلمون أنفسهم (ولا يظلم ربّك أحداً) ومن أثره وعاقبته في الدنيا انه مهلك الامم ،ومخرب العمران . قال تعالى (١١: ١١٧ وما كانَ ربُّكَ ليُهلِكَ القُرى بظلمٍ وأهلُها مُصلحونَ) أي ماكان من شأنه ولا من سنته في نظام الاجتماع أن يهلك الامم بظلم منه لهم ، أو بشرك به يقع منهم [1]

[1] اشارة الى قولين للمفسرين

وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم ، كما قال (١٨: ٥٩ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) وقال في الاحكام ٥:٤٥ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ورد هذا في حكم القصاص

وحسبنا هذه الشواهد القليلة من الآيات الكثيرة المكررة في نوعي الظلم ظلم الافراد وظلم الامم، ومن الاول ظلم الانسان لنفسه وظلمه لغيره، ومنه الظلم في الحكم والظلم في القول والعمل من إيذاء بدني أو مالي اوغيرهما . وفاقا لحكمة التكرار التي بيناها من قبل

قواعد مراعاة الفضائل في الاحكام والمعاملات

من استقرأ الاحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والصدق والامانة والوفاء بالعهود والعقود ، والرحمة والمحبة والمواساة والبر والاحسان ، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والعقود والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت، وشره وأضره التجارة بالدين والرياء فيه وهو أساس النفاق الديني الذي هو شر الكفر وأحقره .

وأما العقوبات في الاسلام فهي قسمان (أحدهما) الحدود وهي أقلها وهي ما فرض من عقاب معين على جرم مبين بالنص كالقتل لحفظ الأنفس ، والزنا لحفظ العرض والنسل، والسرقة لحفظ المال ، والفساد في الارض بقطع الطرق لحفظ الأمن، والسكر لحفظ العقل . وبعض العلماء لا يجعل عقابه حداً لعدم النص في القرآن ولا في السنة في تحديده والحكمة في هذه الحدود المعينة إرهاب الاشقياء والفساق ، واشترط في اثبات الزنا شروط قلما تتحقق إلا باقرار الفاعل . وورد في السنة أمره بالستر

على نفسه وترغيبه عن الاقرار ، مع الامر بدرء الحدود بالشبهات ، روي مرفوعا بلفظ الشبهات وبدونه من طرق فيها مقال . ويقويه روايته عن عمر (رض) وفيه زيادة في الخبر والاثر « فان الامام لأن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة » وهو مشهور وعليه عامة الفقهاء.

وقالوا إن إقامة الحدود من حق الامام الاعظم «الخليفة» دون غيره من الحكام

(وثانيها) التعزير، وهو مفوض إلى اجتهاد الحكام مع وجوب العدل وحفظ المصالح العامة والخاصة ، وهو الأعمّ الأشمل

والعبرة في كل هذه القواعد التي فضل بها الاسلام جميع شرائع الانبياء وقوانين الحكماء والعلماء، أنها قد جاءت على لسان نبي أمي نشأ بين أميين ليس عندهم شرع منزل ، ولا قانون مدون ، فهل يعقل أن يكون إلهاما فجأه في سن الكهولة منبجسا من نفسه ، ولم يؤثر عنه شيء من مثله ؟ كيف يكون هذا وهو مخالف لاستعداد البشر من قبله ومن بعده ؟ أم المعقول أنه كما بلغنا وحي من ربه؟ ألا انه لهو وحي ربه

(٥٣ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)



المقصد السابع من مقاصد القرآن

﴿الارشاد إلى الاصلاح المالى﴾

بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه في إصلاح البشر من طريق التدين والايمان، والعمل والاذعان، ومن طريق العقل والبرهان، والفكر والوجدان، ومن طريق الحكم العادل والسلطان، ومن طريق إكمال نوع الانسان، ما يتعلق منه بالافراد، وما يتعلق منه بوحدة الجماعات والاجناس، وبقي ما يتعلق بفقهه في إصلاح المفاسد الاجتماعية الكبرى الذي يتوقف كماله على ما تقدم كله وهي :

(١) طغيان الثروة ودولتها (٢) عدوان الحرب وقسوتها (٣) ظلم المرأة واستباحتها (٤) ظلم الضعفة والأسرى وسلب حريتهما، وهو الرق المطلق — ذلك بأن جميع حظوظ الدنيا منوطة بها، ولا يتم الاصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل، والعلم والحكمة والحكم، وإننا نتكلم عليها بالاجمال، مبتدئين بارشاده إلى مسألة المال، والآيات فيها تدور على سبعة اقطاب، وهاك البيان

القطب الاول

القاعدة العامة في المال كونه فتنة واختباراً في الخير والشر

القاعدة الاساسية للقرآن في المال أنه فتنة أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح، إذ هو الوسيلة إلى الاصلاح والافساد، والخير والشر، والبر والفجور، وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه، وكنزه واحتكاره، وجعله دُولة بين الاغنياء، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس

وقد كان وما زال مثيراً للعداوات بين الافراد والجماعات من الاقوام

والدول ، وحلال المشكلات وشفاء المعضلات فيها ، حتى ذهب بعض علماء الاجتماع الى جعله هو السبب لجميع الانقلابات السياسية والاجتماعية وكذا الدينية حتى الاسلامية كما بينت هذا في التفسير ونقضته بما يعلم برهانه مما هنا ، وناهيك من المبالغة في اكبار أمر المال قول الحريري في قصيدة الدينار من المقامة الدينارية

* لولا التقى لقلت جلت قدرته *

وقد قصر علماء الفقه والادب والتربية من أمتنا في إعطاء المال حقه من المباحث المختلفة المناحي والمقاصد التي دونت في هذا العصر في عدة علوم ، ولكن هذه العلوم مازادت البشر إلا فساداً، ولا يجدون علاج لهذا الفساد إلا في القرآن

قال الله عز وجل (٣ : ١٨٦ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ) وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده (٢٧ : ٤٠ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)الآية وقال (٣٤ : ٣٧ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا) الآية وقال (٣٠ : ٣٩ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ، وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) وقال (٣ : ١٤ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) الآية وقال تعالى (٨ : ٢٨ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) ومثلها في سورة التغابن (٦٤ : ١٥) ويليها الترغيب في الانفاق وقصر الفلاح

على الوقاية من شح النفس . وقال تعالى (١٨: ٤٦ المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربكَ ثوابًا وخيرٌ أملا) انظر هذا مع قوله تعالى في أول هذه السورة وهي الكهف (٧ إنَّا جعلنا ما على الأرضِ زينةً لها لنبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملا) والمراد من العمل ما يتعلق بما على الارض من العمران وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه لله بشكره ، ثم ما ضربه فيها من المثل بصاحبي الجنتين ، والمثل للحياة الدنيا بنبات الارض[1]

وقال تعالى في تعليل قسمة الفيء بين مستحقيه (كي لا يكونَ دُولةً بينَ الأغنياءِ منكم) والدولة بضم الدال المال المتداول أي لئلا يكون المال محصوراً في الاغنياء متداولا بينهم وحدهم . (وهذا يسمونه اليوم بالرأسمالية)

والشواهد في فتنة الكلام في القرآن كثيرة تجد الكلام عليها في مواضع من تفسير المنار ولا سيما الجزء العاشر منه[2]

فمن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بانفاق المال ، والشقاء بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله (٢ : ١٩٥ وأنفقوا في سبيلِ اللهِ ولا تُلقوا بأيديكُم إلى التهلُكةِ) الآية (٣) أي إن منع انفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال في الترغيب (وأحسِنوا ، إنَّ اللهَ يحبُّ المحسنينَ) وكذا قوله تعالى من سورة الليل (٩٢ : ٦ فأمَّا مَنْ أعطَى واتَّقى (٧) وصدَّقَ بالحُسنى (٨) فسنُيسِّرُه لليُسرَى(٩) وأمَّا مَنْ بخِلَ واستغنى وكذَّبَ بالحُسنى (١٠) فسنُيسِّره

---

(١) راجع فيها الآيات ٣٨ - ٤٦ (٢) راجع في الفهرس كلمة المال فتنته
(٣) ص ٢٠٩ ج ٢ تفسير .

لِلْعُسْرَى (١١) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

هذا كله تفصيل لقوله تعالى قبله (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) ومعناه بالاجمال والايجاز إن سعيكم في الكسب والانفاق مختلف مبدأ وصفة وغاية وثمرة (فأما من أعطى) ما عليه من الحقوق الشخصية والقومية والمصالح الواجبة والمندوبة (واتقى) سوء عاقبة منعها وضرره في الافراد وفي الامة (وصدق بالحسنى) وهي ما وعد الله من الجزاء على الاحسان بما هو أحسن منه من مضاعفة الثواب بمثل قوله (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) وهو شامل لجزاء الدنيا والآخرة (فسنيسره) بمقتضى سنتنا في تأثير صفات النفس في الاعمال، وتأثير الاعمال في الاحوال الخاصة والعامة (لليسرى) أي الخطة أو الطريقة الفضلى في اليسر والسهولة والمنفعة له وللناس فيحبه الناس ويحبه الله (وأما من بخل) بما عليه من هذه الحقوق (واستغنى) بماله عن حب الناس وحمدهم، وعن حب الله ومثوبته (وكذب بالحسنى) التي بيناها آنفاً بعدم طلبها وتحريها بالاعطاء والانفاق، وإن اعترف بها باللسان، (فسنيسره) بمقتضى سنتنا المبينة آنفاً (للعسرى) من الخطتين، وسوءى الطريقتين، فيكون سبباً لعسر البشر وعدواً لهم ولربهم، ويكون له شر الجزاء منهم ومنه عز وجل في الدارين

ويؤيد ذلك شواهد القطب الثاني من آيات المال وهي:

القطب الثاني

(ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير)

قال تعالى في سورة العلق (٩٦ : ٦ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ) أي حقا إن الانسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنيا بالمال ، مستغنيا بعينه وكنزه أو قصره على شهواته عما في بذله من نفع الناس ومرضاة الله تعالى وثوابه في الآخرة . وقد نزلت هذه وما بعدها في أبي جهل أشد أعداء النبي ﷺ والاسلام من أول ظهوره وهي أول ما نزل في في ذلك . ومثلها في سورة ١١١ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) الخ [1] ومثلها في سورة الهمزة (١٠٤ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) نزلت في الوليد وأمية بن خلف وكذا قوله تعالى (٧٤ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ

---

(١) « تب » : خبر أو دعاء بالتباب وهو خسران يفضي الى الهلاك ، ومعنى تبت يداه : خسر ماجمعه بهما من المال ، ومعنى (وتب) وخسر نفسه بعد خسران ماله « ماأغني عنه ماله » أي مامنع التباب عنه ماله « وما كسب » من النتائج والارباح والجاه والولد الذي ظن أنه ينفعه ، وكان أمر ابنه بفراق بنت النبي « ص » بعد النبوة عداوة له . وما كان أسوأ ما أصابه من التباب : افترس ابنه عتبة أسد في طريق الشام وقد أحدقت به العير تحمل التجارة . ومات هو بعده بالعدسة بعد غزوة بدر التي ساعد المشركين عليها بماله ، وترك ميتا حتي أنتن ، ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه . اه ملخصا من البيضاوي قال وهو إخبار عن الغيب طابق وقوعه

لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) الخ الآيات ، وقد نزلت في الوليد بن المغيرة. وكذا آيات سورة (ن٦٨) من قوله (١٠ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ـ الى قوله ـ ١٤ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

وكان هؤلاء أغنى زعماء قريش الذين عادوا النبي ﷺ واستكبروا عن اتباعه بغناهم من أول عهده بتبليغ الدعوة ثم قال تعالى فيهم إذ كان يجمع المال منهم أبو سفيان لقتاله يوم بدر (٨:٣٦ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) وكذلك كان وفيهم وفي أمثالهم من مترفي أقوام الانبياء نزل قوله تعالى (٣٤.٢٥ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

ومن الآيات العامة في غريزة البشر قوله تعالى (٤.١٢٨ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ) وقوله من سورة المعارج (٧٠ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) الخير المال الكثير وأكثر الاغنياء مناعون للمال إلا من استثنى الله بعد هذه الآيات بقوله (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) الخ

بمثل هذه الآيات ينفر الوعاظ الناس ويزهدونهم في المال والدنيا فيبالغون وانما المذموم الغرور والطغيان والبطر والاستكبار عن الحق افتتانا بالمال، ولذلك قرنه في بعض الآيات بالاولاد، وكذا البخل به والشح وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت ، وشواهده في آيات القطب الثالث وهي :

القطب الثالث

(ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في انفاقه)

قال تعالى (٣.١٨٠ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وقال في سياق الترغيب في الانفاق في سبيل الله من طيبات الكسب والاخلاص فيه والنهي عن الرياء والمن والاذى فيه(٢: ٢٦٠ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) الآية. فسروا الفحشاء بالبخل أي الشيطان يصدكم عن الانفاق في سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذي فحش شره وضرره. وقال بعد الامر بالاحسان بالوالدين وبذي القربى واليتامى والمساكين والجيران (٤. ٣٥: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٣٦ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ) وقال فيمن عاهد الله لئن آتاه من فضله مالا وخيرا ليصدقن منه(٩: ٧٧ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ٧٨ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) وقال (٤٧: ٣٨ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) أي وان تتولوا عن الانفاق في سبيل الله يهلككم بزوال دولتكم ويستبدل بكم قوما آخرين ينفقون

أموالهم في المصلحة العامة من الدفاع عن الملة ، وإقامة الحق والعدل في الامة .
وقال تعالى (٤: ١٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ) وقال (٢ ١٨٨ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) وقال في اليهود (٤: ١٦١ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)

وقال فيهم (أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ) أكل أموال الناس بالباطل يشمل كل ما ليس له مقابل صحيح مشروع ويدخل فيه الغش والحيل والخداع الدنيوي والديني والرشوة ، والسحت بالضم الحقير الذي يلزم صاحبه العار ويوصف بالخسة فهو يسحت مروءته أي يذهب بها وقد قلت في وطن الحكام الظالمين من المقصورة الرشيدية

وكيف لا يُسحته الله وهم للسحت أكالون فيه والرُّشا

وقال (٩: ٣٤ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٥ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ : هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) الوعيد على كنز المال بمنع تداوله والانتفاع العام به ، وبمنع الحقوق منه (١)

---

(١) راجع تفسيرها في (ص ٣٩٥ ـ ٤١٠) من جزء التفسير العاشر

القطب الرابع

مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزاؤه على الايمان والعمل الصالح

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام (٧١) حكاية عنه (١٠ فقلتُ استغفِروا رَبَّكم إنّهُ كانَ غفّارًا ١١ يُرْسِلِ السماءَ عليْكم مِدْرارًا ١٢ وَيُمْدِدْكُمْ بِاموالٍ وَبَنِينَ وَيجعَلْ لكمْ جنّاتٍ وَيَجْعَلْ لكمْ أنهارًا) وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سورته (١١ : ٥٢) بل قال تعالى في بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه (٢٠ : ١٢٢ قالَ اهبِطا منها جميعًا بعضُكم لبعضٍ عدُوٌّ فإِمّا يأتِيَنّكمْ مني هُدًى فمَنْ اتّبعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشقى (١٢٣) ومَنْ أعرَضَ عنْ ذِكري فَإنّ لهُ مَعيشةً ضَنكا) الآيات . فجزاء اتباع هداية الدين الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها ، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها . وفي معناه قوله تعالى من سورة الجن (٧٢ ١٣ وَأنّا لمّا سَمِعْنا الهُدى آمنّا بِهِ، فمَنْ يُؤمِنْ بِربّهِ فلا يخافُ بخسًا ولا رَهَقًا) أي لا يهضم حقه ، ولا يظلم بذل يرهقه ، لأن عزة الايمان تمنعه وتحفظه ، وهذا يشمل الدنيا والآخرة ، ثم قال في أمر الدنيا منها (١٦ وأن لوِ استقاموا على الطّريقةِ لأسقيناهُم ماءً غدَقًا ١٧ لنفتِنَهُمْ

فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) (١)

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفاً على الامر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام (٩:٢٧ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) أي وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالاسلام وفتوحه وغنائمه (٢) وكذا قوله تعالى للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر (٨ : ١٠٠ إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم) وكذلك كان ، فقد أغنى الله العرب الفقراء بالاسلام فجعلهم أغنى الامم والاقوام ٣)

وقد امتن الله تعالى على نبيه الاعظم بالغنى بعد الفقر بقوله (٩٣.٣ ووجدك عائلا فأغنى) وامتن على قومه بتوفيقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك (هي سورة قريش ١٠٦) وسمى المال الكثير خيراً بقوله في صفات الانسان (وإنه لحب الخير لشديد)وقال فيمن يحضره الموت(٢: ١٨٠ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين) الآية

وإنما كان المؤمنون المتقون لله الشاكرون لنعمه أحق بنعم الدنيا من الكافرين

---

(١) هذا معطوف على ما قبله من أول السورة (قل أوحي إلي) أي وأوحي إلي أنهم لو استقاموا على الطريقة المثلى التي جاءهم بها الاسلام لوسعنا عليهم الرزق وأصله الماء الغدق أي الكثير الذي ينبت به الزرع ويدر الضرع - (لنفتنهم) أي نمتحنهم فيه أيشكرون النعم أم يكفرونها ومن يعرض منهم عن هداية ربه بالقرآن يدخله في عذاب صعد (بفتحتين) أي شديد المشقة فتكون النعم سببا لتعبه وشقائه

(٢) راجع تفسير الآية في ص ٢٧٧ ج ١٠ تفسير (٣) راجع ص ١٠٠ منه

لنعمه والفاسقين الظالمين ، لأنهم أحق وأجدر بالشكر عليها ، والشكر استعمال النعمة في الحكمة التي منحت لاجلها من الحق والعدل والاحسان والبر والعمران، وهو الذي يرضي الله تعالى فيها ، ومن سننه تعالى فيها ان الشكر لها بهذا المعنى سبب للمزيد منها ، وان الكفر لها بسوء استعمالها سبب لسلبها او سلب فوائدها كما قال تعالى (١٤: ٧ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتم لَأَزيدَنَّكم ولَئِن كفرتم إِنَّ عذابي لَشديد) وقال (٨: ٥٣ ذٰلكَ بأَنَّ اللهَ لم يَكُ مُغَيِّراً نِعمةً أنعمهَا عَلى قومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسِهم)

فالمؤمنون والكافرون يشتركون في أسباب سعة الرزق وكسب المال من زراعة وصناعة وتجارة ، لان هذه الاسباب دنيوية لا تختلف باختلاف الاديان كما قال تعالى (١٧ : ٢٠ كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهؤُلاءِ من عَطاءِ رَبِّكَ ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحظوراً) أي ما كان ممنوعا عمن يريد به لذات العاجلة، ولا عمن يريد به سعادة الآخرة، وإنما يفضل بعضهم بعضاً في استعمال المال ، فاستعماله في الفسق والشر والظلم والسرف والخيلاء كفر للنعمة وسبب لمحقها نفسها أو محق بركتها ، بكثرة الضرر والفساد المترتب عليها ، فمن المشاهد أن أكثر الاغنياء المسرفين الفاسقين يفتقرون أو يصابون بالأدواء المنغصة ، وأما الامم المترفة المسرفة الظالمة فتضعف وقد تفقد استقلالها . واستعماله في البر والخير سبب للمزيد فيها . وقد حققنا هذا الموضوع في مواضع أخرى ، ومنه قوله تعالى في الزينة والطيبات من الرزق (٧: ٣٢ قل هي للذينَ آمنوا في الحياةِ الدُّنيا خالصةً يومَ القيامة) أي هي لهم في الدنيا بالاستحقاق، ويشاركهم فيها غيرهم بمقتضى الاسباب ، ولكنها تكون في الآخرة خالصة لهم[1] لانهم يتوسلون بالشكر لله عليها إلى سعادة الآخرة.

(١) راجع تفسيرها في ص ٢٩٨ ج ٨ تفسير

الكاملة الدائمة ، ولولا ذلك لجعل زينة الدنيا خاصة بالكافرين كما قال (٤٣ : ٣٣
وَلَوْلا أن يكونَ النَّاسُ أُمَّةً واحدةً لجعلْنا لمن يكفرُ بالرحمٰنِ لبيوتِهم
سُقُفاً من فضَّةٍ ومعارجَ عليْها يظهرونَ ٣٤ ولبيوتِهم أبوابا
وسُرُرًا عليْها يتَّكئُونَ ٣٥ وزُخرُفًا. وإنْ كلُّ ذٰلك لمَّا متاعُ الحياةِ
الدُّنْيا والآخرةُ عندَ ربِّكَ للمتَّقينَ)

أي ولولا كراهة أن يكون الناس كلهم كفاراً بجعل نعيم الدنيا وزينتها للكافرين وحدهم لجعلنا لبيوتهم سقفا وابوابا من فضة وسلالم من فضة يصعدون عليها إلى غرفات قصورهم ، وجعلنا لهم فيها سررا كذلك وزخرفا أي ذهباً، وما كل ذلك إلا متاع الدنيا وهو قليل زائل ، بالنسبة إلى نعيم الآخرة العظيم الدائم ، ولكن الانسان يفتتن بالحاضر المشاهد ، ولذلك جعل الله سعة الدنيا وزينتها بالاسباب الكسبية المشتركة ، وجعل المؤمنين أحق بها وأكثر انتفاعا لشكره تعالى عليها بالاعتدال والقصد في أنفسهم ، والتوسعة على غيرهم كما قررناه آنفا . ويؤيده ما في القطب الخامس من إرشاد القرآن إلى حفظ المال والاقتصاد فيه.

وهذا التشريع والتثقيف والأدب العالي في الحضارة الاسلامية يعلو بها على حضارات جميع الامم المسرفة الفاسقة ، فهل كان هذا وما قبله وما يذكر بعده مما نبع من نفس محمد الامي في العقد الخامس من عمره خلافاً لطبائع البشر ، إذ لم يعهد منهم ان تفيض من عقولهم في هذه السن، مالم يكونوا فكروا فيه وزاولوه في سن الصبا والشباب، أم الاقرب إلى عقل المؤمن ان يكون وحياً من الله تعالى ؟ كلا ، إن الامرين من الخوارق والعجائب فمن يؤمن بالله يجب عليه ان يقول انه لا يقدر عليه غيره . ومن لا يؤمن به لا يجد أمامه إلا ان يقول إن محمدا أفضل من جميع البشر بنفسه ، إذ صدر عنه ما لم يصدر مثله عن غيره ، ولا هو من شأن طبيعته وغريزته

القطب الخامس

﴿ ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع والاقتصاد فيه ﴾

قال تعالى (٤: ٥ ولا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالَكُمُ التي جَعلَ اللهُ لكم قِياما) قيام الشيء وقوامه (بالكسر والفتح) مايستقيم به ويحفظ ويثبت. أي جعلها قوام معايشكم ومصالحكم، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم (وارْزُقوهم فيها واكْسُوهم وقولوا لهم **قوْلًا معْروفا (٦) وَابتَلوا اليتامىٰ حتى إذا بلَغُوا النكاحَ فإنْ آنَسْتم مِنهم رُشْداً** فادفعوا إليهم أموالَهم) الآية. الابتلاء التجربة والاختبار، أمر باختبارهم وألا تدفع اليهم أموالهم الا بعد ظهور الرشد في أعمالهم، وهو الصلاح والاستقامة في معاملتهم، لئلا يضيعوا الاموال فيما يضر أو فيما لا ينفع

وقال تعالى في صفات المؤمنين (٢٥ : ٦٧ والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قَواما) الاسراف التبذير والافراط، والقتر والقتور والإقتار الاقلال والتضييق في النفقة. يقال قتر على عياله، ومثله قدر له بالدال مكان **التاء ومنه (الله يَبسُطُ الرزقَ لمن يشاء من عبادِهِ ويَقدِرُ له) وهو مكرر في عدة سور**

وقال تعالى (٦٥ : ٧ لِيُنفِقْ ذو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ، ومن قُدِرَ عليه رِزقه فلْيُنفِقْ مما آتاه الله) وهذا نزل في النفقة على المرأة المطلقة في العدة، وهو إرشاد عام، والقاعدة في الاصول ان العبرة بدلالة العموم، لا يقيد بخصوص سبب النزول. وقال في النفقات العامة (٢ : ٢ ومما رزقناهم ينفقون) و«من» للتبعيض،

فكلٌ من الغني ذي السعة، والفقير ذي العسرة، مأمور بأن ينفق مما آتاه الله لا كل ما آتاه الله، وهذا أعظم أصول الاقتصاد، فمن أنفق بعض ما يكتسب قلما يفتقر،

وتقدم في وصايا سورة الاسراء الحكيمة (ص١٤٥) ذكر آيات النهي عن التبذير والمبالغة في بسط اليد والمبالغة في قبضها، وما لكل منهما من سوء العاقبة، (١٧ : ٢٦ وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وابنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا)

ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها ماسميت حكمة. ألا ترى أنه قال عقب النهي عن التبذير (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) لأنهم يفسدون نظام المعيشة باسرافهم، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال، ولذلك قال عقبه (وَكَانَ الشَّيطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) ثم قال (٢٩ وَلَا تَجعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) فعلل الاسراف في الانفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوما من الناس ومحسوراً في نفسه، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى، ويطلق على من انحسرت قوته وانكشفت عن عجزه، والمحسور المغموم أيضا. وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة، يوقعه اسرافه في العُدم والفقر الخ وحسير البصر كليله وقصيره ويكنى به عمن لا يفكر في عواقب الامور،

ولو أن المسلمين تدبروا هذه الآيات الحكيمة في الاقتصاد واهتدوا بها لاستغنوا بارشادها عن جميع الكتب والوصايا في حفظ ثروتهم، ولندر أن يوجد فيهم فقير. ولو كان هذا القرآن نابعا من غريزة محمد ﷺ ورأيه وشعوره لما وجدتها فيه، فقد كان حب البذل والاحسان هو الغالب على طبعه، وصاحب هذه الخليقة قلما يفكر في الاقتصاد، وإنما هي وصايا رب العباد

القطب السادس

(إنفاق المال في سبيل الله آية الايمان)

(والوسيلة لحياة الامة وعزة الدولة وسعادة الانسان)

هذا هو القطب التهذيبي الاعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه، وما ذكر قبله فهو وسائل له، وما يذكر بعده فهو بيان العمل به، وأظهر الشواهد فيه ان الله تعالى جعله هو الفصل بين الاسلام الصحيح المقترن بالاذعان ، المبني على أساس الايمان ، وجعل دعوى الايمان بدون شهادته باطلة ، وإن كانت دعوى الاسلام تقبل مطلقا لأن أحكامه العملية تبنى على الظواهر، والله تعالى هو الذي يحاسب على السرائر، وعليها مدار الجزاء في اليوم الآخر. فالاسلام عمل قد يكون صوريا غير صادر عن اخلاص وإذعان ، والايمان يقين قلبي يستلزم أعمال الاسلام ، ولكن الاسلام الصوري الصادر عن استحسان لا عن نفاق ، يكون أقرب الوسائل إلى يقين الايمان ، والاصل في هذه المسألة قول الله عز وجل (٤٩ : ١٤ قَالَتِ ٱلأَعْرَابُ (١) آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ) فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الايمان وصدق مدعيه ، وقوله (لا يلتكم) معناه لا ينقصكم

«١» الأعراب اسم لسكان البوادي دون سكان المدائن والقرى والآيات نزلت في قبيلة بني أسد أسلموا في قحط ومجاعة ليتصدق عليهم المسلمون ثم حسن إسلا

ويلي هذا الشاهد آية البر الناطقة بأن بذل المال على حبه بالاختيار ، أول آيات الايمان، ويليه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة التي يجبيها إمام المسلمين وسلطانهم بالالزام ، ويليهما سائر أمهات الفضائل ومعالي الاخلاق ، وهي قوله تعالى (٢:١٧٧ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ ، وَأَقَامَ ٱلصَّلاَةَ وَآتَىٰ ٱلزَّكَاةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ، أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ) وفي قوله تعالى (وَآتِي المالَ على حُبِّهِ) قولان (أحدهما) أعطى المال وبذله على حبه إياه كقوله (لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) (والثاني) ان الضمير في حبه لله تعالى كقوله (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) أي حب الله تعالى . وتجد بيان الذروة العليا من تفضيل حب الله ورسوله على المال وغيره من متاع الدنيا في قوله تعالى (٩:٢٤ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ وَٱللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ)

ومن الايات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله

تعالى (٤ : ٩٥ لاَ يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ)

وقال تعالى (٥٧ : ١٠ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ؟ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ) الآية

وقد ذكر إنفاق المال في وجوه البر والخير من أمر ونهي ووصف في عشرات من آيات الذكر الحكيم ، وكذلك الصدقة وما تصرف منها من فعل ووصف ، وكذلك الزكاة ، وأبلغ من ذلك التعبير عن التصدق والانفاق باقراض الله تعالى ووعد مقرضه بالمضاعفة له

ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه، وبيان آدابه، عشرون آية من أواخر سورة البقرة هي من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١ - ٢٨١ مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث[1]

ومن البلاء المبين أن نرى الشعوب الاسلامية في هذه القرون الاخيرة قد قصرت عن جميع الشعوب القوية في بذل المال للجهاد في سبيل الله الذي يحفظ استقلالهم، ويعتز به ملكهم ، وتعلو به كلمة الله تعالى فيهم ، ثم في غيرهم ، وفي طرق البر التي ترتقي بها أمتهم ، وتكون حجة على سائر الأمم في تفضيل دينهم على سائر الاديان ، وحاجة الامم اليه لانقاذ الحضارة من جشع عباد المال واستذلالهم للملايين من البشر به ، وما افضى اليه من فوضى الشيوعية الدينية والادبية المشار اليهما فيما يلي

(١) وراجع كلمة المال في الجزءين ١٠ و ١١ وغيرها

القطب السابع

(في الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والاصلاح المالى في الاسلام)

قد عقدت لتفسير قوله تعالى (٩: ١٠٣ خُذْ مِنْ أموالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وتُزَكِّيهِم بِهَا) فصلا في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح المالي للبشر وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان . بينت فيه مكانة المال من حياة الناس ، وما له من التأثير في الثورات والحروب والسياسة والعمران ، وغلو بعض الجماعات في جمعه وادخاره وأنظمته واستغلاله ، واستعباد الالوف وألوف الالوف من البشر به ، ويدعون في عرف هذا العصر بالرأسماليين، وقيام جماعات أخرى بالدعوة إلى إبطال النظام الدولي العام في المال ، ووضع نظام آخر لاشتراك جميع الناس فيه ويلقبون بالبلشفيين، وما بين هذين الفريقين من الجماعات من التعادي والخصام

ثم بينت ان هذه الفتن وما تنذر العالم به من الخراب والدمار لاعلاج لها إلا اتباع هداية الاسلام في الاصلاح المالي ، ولخصت أصول هذا الاصلاح في أربعة عشر أصلا هي (١) اقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل (٢) تحريم الربا والقمار (٣) منع جعل المال دُولة بين الاغنياء (٤) الحجر على السفهاء في أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم (٥) فرض الزكاة في أول الاسلام وجعلها اشتراكية مطلقة باعثها الوجدان لا إكراه الحكام، وانما تكون كذلك حيث لا حكومة ولا دولة للاسلام (٦) نسخها بعد وجود الدولة والحكومة بالزكاة المحدودة بربع العشر في النقدين والتجارة في كل عام مادام النصاب تاما، وبالعشر ونصف العشر في غلات الزراعة التي عليها مدار الاقوات أو مطلقا، وزكاة الانعام المعروفة ، وفاتني هنالك ذكر الخمس في الركاز وهو ماينبش من المال المكنوز القديم والمعدن (٧) فرض نفقة الزوجية والقرابة (٨) إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين وضيافة الغرباء (٩) بذل المال في كفارات بعض الذنوب (١٠) ندب

صدقات التطوع للمحتاجين (١١) ذم الاسراف والتبذير والبخل والتقتير (١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرطهما ، لتوقف ترقي الصناعة والحضارة عليها ، (١٣) مدح القصد والاعتدال بل إيجابه (١٤) تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر اه باختصار، وكنت قد شرحت قبله مصارف الزكاة في تفسير آيتها (٨: ٦٠ إنما الصَّدقاتُ للفقراءِ والمساكين) الخ

ثم عقدت فصلا آخر في خلاصة السورة « وهي سورة التوبة » المشتملة على هذه الآيات في أحكام الاموال في الاسلام يدخل في ثلاثة أقسام (١) المسائل الدينية والاجتماعية في الاموال (٢) أنواع الاموال ومصارفها (٣) فوائد إصلاح الاسلام المالي للبشر فالرجوع إلى هذه المباحث في هذا الجزء من التفسير يغنينا عن اعادتها هنا

وخلاصة القول في هذه القواعد العلمية في إصلاح ثروة البشر وجعلها خيراً عاما كما سماها الله تعالى في كتابه ، واتقاء شرور التنازع عليها - بالوازع الديني ، والتشريع الدولي ، أنها هي التي يصلح بها أمر البشر على اختلاف أحوالهم واستعدادهم ، فيكونون سعداء في دنياهم وفي دينهم ، ولن نجد مثلها في دين من الاديان ولا شيء من كتب القوانين والحكمة البشرية ، وان البشر لعلى خطر عظيم مما سقطوا فيه من التعادي على المال حتى أعيتهم الحيل ، وسبيل النجاة ممهدة معبدة أمامهم وهم لا يبصرونها وهي الاسلام وهداية القرآن (٢ . ٢٥١ وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَىٰ ٱلْعَالَمِينَ)

وموضوع بحثنا في هذا المقصد وهو دلائل الوحي المحمدي انه لا يعقل أن يكون محمد النبي الأمي الذي عرفنا خلاصة تاريخه قد اهتدى بوحي من نفسه لنفسه في العقد السادس من عمره - اي بعد هجرته - إلى هذه الحقائق التي فاقت وعلت جميع الكتب الالهية والبشرية والنظم الدولية في أرقى عصور العلم والحكمة والقوانين ؟ وانما المعقول عند من يؤمن بأن للعالم ربا حكيما رحيما مدبراً أن يكون هذا بوحي منه عز وجل أفاضه على خاتم النبيين عند استعداد البشر له لا يحتاجون بعده إلى وحي آخر



المقصد الثامن من مقاصد القرآن

﴿ إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على مافيه الخير للبشر ﴾

﴿ نظرة عامة في فلسفة الحرب والسلم والمعاهدات ﴾

التنازع بين الاحياء في مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة، وإفضاء التنازع إلى التعادي والاقتتال بين الجماعات والاقوام، سنة من سنن الاجتماع، أو ضرورة من ضروراته قد تكون وسيلة من وسائل العمران، فان كان التنازع بين الحق والباطل كان الفلج للحق، وإن كان بين العلم والجهل كان الظفر للعلم، وإن كان بين النظام والاختلال كان النصر للنظام، وإن كان بين الصلاح والفساد كان الغلب للصلاح، كما قال تعالى في الحق والباطل (٢١ : ١٨ بل نقذفُ بالحق على الباطلِ فيدمغه فاذا هو زاهق) وقال في بيان نتيجة المثل الذي ضربه لهما (١٣ : ١٧ فأما الزَّبدُ فيذهبُ جفاء (١) وأما ماينفعُ الناسَ فيمكثُ في الارضِ) وسبق ذكر هذه الآية كلها (في ص ٢١٥)

وأما التنازع والتعادي والتقاتل على الشهوات الباطلة، والسلطة الظالمة، واستعباد القوي للضعيف، والاستكبار والعلو في الارض، فان ضرره كبير، وشره مستطير، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء، ويورثهم الحقد ويؤرث بينهم العداوة والبغضاء، وقد اشتدت هذه المفاسد في هذا الزمان، حتى خيف أن تقضي على هذا العمران العظيم في وقت قصير، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل

١﴾ (الزبد) بالتحريك ما يكون في أعلى السيل أو القدر التي تفور من الغثاء والرغوة. و(الجفاء) بالضم ما يقذفه الوادي او القدر من جوانبه عند امتلائه من ذلك وهو ما لا نفع فيه، وأما إبليز السيل الذي يرسب منه وإبريز الصائغ من الذهب الذي توقد النار عليه لتصفيته وهو النافع للناس (فيمكث في الارض) ويبقى في بوط الصائغ «بوتقته»

التخريب والتدمير ، كالغازات السامة ومواد الهدم والتحريق تقذفها الطيارات المحلقة في جو السماء ، على المدائن المكتظة بالالوف من الرجال والنساء والاطفال ، فتقتلهم في ساعة واحدة أو ساعات معدودة

وقد حارت الدول الحربية في تلافي هذا الخطر حتى ان أشدهن استعداداً للحرب بالاساطيل الهوائية والبحرية وآلات التدمير وكثرة الاموال لأشدهن خوفا على حياة أمتها المستعدة لجميع أنواع القتال ، وعمران بلادها المحصنة بأحدث وسائل الوقاية ، وترى دهاقين السياسة في كل منها يتفاوضون مع أقرانهم لوضع نظام لتقرير السلام ، ودرء مفاسد الخصام ، بمعاهدات يعقدونها ، وأيمان يتقاسمونها ، ثم ينفضّون خائبين ، أو ينقضون ما أبرموا متأولين ، ويعودون إلى مثله مخادعين

اعجوبة القرآن في فساد معاهدات الزمان

وقد بين الله تعالى في كتابه سبب هذه الخيبة بما وجدنا مصداقه في هذه الدول الاوربية بأظهر مما كان في عرب الجاهلية الذين نزل هذا البيان في عهدهم ، كأنه نزل في هؤلاء الافرنج دون غيرهم ، وهو من عجائب القرآن في لفظه ومعناه ، وذلك قوله تعالى بعد الامر بالايفاء بعهده ، والنهي عن نقضه (١٦ : ٩٢ ولا تكونوا كالتي **نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة** هي أربى من أمة) والمعنى لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث « وهو جمع نكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى » حال كونكم تتخذون عهودكم دخلا بينكم « والدخل بالتحريك الفساد والغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه » لاجل أن تكون أمة أربى وأزيد رجالا ، وأكثر ربحا ومالا . وأقوى أسنة ونصالا ، من أمة أخرى

والمراد ان معاهدات الصلح والاتفاق بين الامم يجب أن يقصد بها الاصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الاخلاص دون الدخل والدغل الذي يقصد به أن

تكون أمة هي أربى نفعاً وأكثر عدداً وجمعاً من الامة الاخرى ، وهو ما عليه هذه الدول في جميع معاهداتها ولاسيما المعاهدة الاخيرة بعد الحرب العامة (معاهدة فرسايل)

ولو طلبوا المخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوهما في دين الاسلام ، فهو هو دين الحق والعدل والسلام ، وهاك بعض قواعد الحرب والسلم في القرآن

﴿ أهم قواعد الحرب والسلام ، في دين الاسلام ، وشواهد من القرآن ﴾

قد استنبطنا من آيات سورة الانفال ٢٨ قاعدة من القواعد الحربية العسكرية والسياسية في القتال والصلح والمعاهدات أجملناها في الباب السابع من خلاصة تفسير السورة وأحلنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها ، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة (١٣) قاعدة حربية أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها ، وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الاسلام — و ٢٠ حكما من أحكام الحرب والجزية سردناها في خلاصة تفسير هذه السورة* نكتفي هنا ببضع قواعد منهما ومن غيرهما من السور ، لان المقام مقام إيراد الشواهد المجملة على أنواع الاصلاح الاسلامي من القرآن للاستدلال به على أن جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الامي الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد ، إلا قليلا من رعي الغنم في الصبا والتجارة في الشباب ، وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الاديان الالهية ، وكتب الحكمة والقوانين البشرية ، فنقول :

﴿ القاعدة الأولى في الحرب المفروضة على الأعيان ﴾

ورد الامر بقتال المعتدين لكف عدوانهم ولما سيأتي من درء المفاسد وتوطيد المصالح مقترناً بالنهي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم ، والشاهد عليه قوله تعالى (٢ : ١٩٠ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين) وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقا دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ ، ومن ثم بينا في تفسير هذه الآية من جزء التفسير

(*) تراجع في ص ١٢٣ و ١٣٩ — ١٤٤ ج ١٠ من التفسير

الثاني أن حروب النبي صلى الله عليه وسلم للكفار كانت كلها دفاعاً ليس فيها شيء من العدوان ، ثم فصلت في تفسير آية السيف من سورة التوبة ان قتال مشركي العرب ونبذ عهودهم بعد فتح مكة كان جاريا على هذه القاعدة، مع كون سياسة الاسلام في العرب غير سياسته في سائر الاقوام ، من حيث إرادة إسلامهم باختيارهم وإبطال ما كانوا عليه من الشرك غير المقيد بشرع متبع ، وإرادة جعل جزيرتهم معقلا للاسلام وحده على اتساع سياسته مع غيرهم بإقرارهم على أوطانهم وأديانهم

وبينت فيه أن بعض الصحابة كان قد ثقل عليهم نبذ عهود المشركين المقتضي لقتالهم مع سبقهم لنقض العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى بين الله لهم ذلك بأنهم إنما نقضوا عهده ونكثوا أيمانهم ، لأنهم لا عهود لهم يلتزمونها بعقيدة وجدانية ، ولا نظام متبع ، وقال (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟) أي بالقتال ثم بنقض العهد فهم المعتدون(١)

وإنما اشتبه على الغافلين الأمر بما كان في بعض الغزوات والسرايا من بدء المسلمين بها ذاهلين عن حالة الحرب بينهم وبين المشركين باعتداء المشركين الاول واستمراره. فالدفاع لا يشترط ان يكون في كل معركة وكل حركة

وهذا الذي كان في آخر أحكام القتال معهم يؤيد ما نزل في أول الاذن للمسلمين بالقتال وهو قوله تعالى في سورة الحج (٢٢ : ٣٩ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٤٠ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) وتتمة الآيات في القاعدة الثانية :

ولما نقضوا العهد الذي عقده النبي صلى الله عليه وسلم معهم في الحديبية في أواخر سنة ست للهجرة وعزم على فتح مكة سنة ثمان نزلت سورة الممتحنة (٦٠) في النهي عن ولاية المشركين ، وفيها التصريح بأن النهي خاص بالذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من وطنهم لاجل دينهم ، فهو نهي عن موالاتهم ومودتهم دون البر والعدل إلى كل مشرك . فتأمل الآيات ٧ و٨ و٩ منها

---

(١) راجع تفسير هذه الآيات من أوائل سورة التوبة في جزء التفسير العاشر

﴿ القاعدة الثانية في الغرض من الحرب ونتيجتها ﴾

وهي أن تكون الغاية الايجابية من القتال — بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الامن — حماية الاديان كلها وعبادة المسلمين لله وحده وإعلاؤهم كلمته، وتأمين دعوته، وتنفيذ شريعته، وهي في مصلحة البشر كلهم، وإسداء الخير اليهم، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم، والشاهد الاول عليه قوله تعالى بعد ذلك الاذن لهم الذي تلوناه آنفا (٢٢ : ٤٠ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤١ الذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

ذكر في تعليل إذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور (أولها) كونهم مظلومين معتدى عليهم في أنفسهم، ومخرجين نفياً من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني، أو الديني والدنيوي

وقد جعلنا هذه الغاية للقتال قاعدة مستقلة من قواعد سورة الانفال معبرين عنها « بحرية الدين ومنع فتون أحد واضطهاده لارجاعه عن دينه » واستدللنا عليها بقوله تعالى (٨ : ٣٩ وقَاتِلوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيكون الدين كلهُ للهِ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلونَ بَصِير) وقد كان المشركون يضطهدون المسلمين بكل ما قدروا عليه من الايذاء والتعذيب لاجل ردهم عن دينهم، وأما المسلمون فلم يفعلوا ذلك في الصدر الاول ومن عساه شذ عن ذلك قليلا بعده فقد خالف حكم الاسلام الذي حرم الفتنة والاضطهاد والاكراه في الدين وشرع فيه الاختيار بل جعله شرطا لصحته

(ثانيها) انه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الانبياء كصوامع العباد وبيع النصارى وصلوات اليهود «كنائسهم» ومساجد المسلمين، بظلم عباد الاصنام ومنكري البعث والجزاء، وهذا سبب ديني عام صريح في حرية الدين في الاسلام وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها وكذلك كان.

(فان قيل) ولماذا لم يقر الاسلام المشركين على دينهم كما أقر اليهود والنصارى والمجوس؟ (قلت) ان الشرك الذي كان عليه العرب لم يكن ديناً مبنياً على عبادة الله ومصلحة عباده كسائر الاديان حتى التي خالطها الشرك، فانهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث والجزاء على الاعمال عند الله تعالى على قاعدة «إن خيراً فخير، وإن شراً فشر» ولا كانوا يدينون الله تعالى بعمل الصالحات وتحريم المنكرات وأصول الدين العامة قوله تعالى. (مَنْ آمنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالحاً فلَهُمْ أجرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ ولاَ خَوْفٌ عليهم ولاهم يَحْزَنُونَ)

(ثالثها) أن يكون غرضهم من التمكن في الارض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للأنفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى، والمربية للأنفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته — وإيتاء الزكاة المصلحة للامور الاجتماعية والاقتصادية والامر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس — والنهي عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه أو غيره من الناس

إن جميع الدول الحربية تدعي بعض هذه المقاصد العالية في حروبها رياء وانتغاء لحسن السمعة، ولكن أفعالها تكذب دعاويها كلها، ولاسيما النهي عن المنكر فهي تبيح للناس ـ الذين تمكنها القوة الحربية في بلادهم ـ جميع المنكرات والفواحش التي تفسد الاخلاق والآداب وروابط الاجتماع. بل تحول بينهم وبين العلم والتهذيب والصلاح بقدر الطاقة، إلا تعليم لغاتها وتاريخ عظمتها وديانة شعبها، لاجل هدم

مقوماتهم المالية والقومية حتى لا يرجى لهم النجاة من رق الاستعمار وذله، لا ليكونوا مساوين للفاتح المستعمر في العلم والثروة والعزة والقوة، كما هو معروف في جميع الممتلكات والمستعمرات الاوربية، خلافا لما كان عليه المسلمون الاولون في فتوحهم العدل

﴿ القاعدة الثالثة إيثار السلم على الحرب ﴾

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها إذ علم بهما ان الحرب ضرورة يقتضيها ماذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد، وأن السلم هي الاصل التي يجب أن يكون عليها الناس، فلهذا أمرنا الله بايثارها على الحرب اذا جنح العدو لها، ورضي بها، والشاهد عليه قوله تعالى(٨: ٦١ وإنْ جَنَحوا للسَّلم فاجنَحْ لها وتوكَّلْ على الله، إنَّهُ هو السَّميع العليم) فراجع تفسيرها في ص٦٩ و١٤٠ من جزء التفسير العاشر

﴿ القاعدة الرابعة الاستعداد التام للحرب لاجل الارهاب المانع منها ﴾

إن الذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الامة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ومن رباط الخيل في كل زمان بحسبه على أن يكون القصد الاول من ذلك إرهاب الاعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلادها أو مصالحها أو على أفرادها أو متاع أو مصلحة لها حتى في غير بلادها، لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها، مطمئنة في حريتها بدينها ودماء أهلها ومصالحها وأموالها، وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسليح السلمي، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعا فتكذبها أعمالها، ولكن الاسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله دينا مفروضاً فقيد به الأمر باعداد القوى والمرابطة للقتال، وذلك قوله عز وجل (٨: ٦٠ وأعِدُّوا لهمْ مَا اسْتطعْتمْ مِنْ قُوَّةٍ ومن رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبونَ بهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكم)ـ فراجع تفسيرها في ص٦١ ج١٠ أيضا

﴿ القاعدة الخامسة الرحمة في الحرب ﴾

إذا كان الغلب والرجحان في القتال للمسلمين المعبر عنه بالاثخان في الاعداء ، وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم، فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالاسر ، ثم يخيرهم في الاسارى إما بالمن عليهم باطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم ، وذلك نص قوله تعالى في سورة محمد ﷺ (٤٧ : ٤ : **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعدُ وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض) الآية(١)وقد أوردناها وبينا معناها في تفسير (٨: ٦٧ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض) الآية(ص ٨٣ ج ١٠ تفسير)**

﴿ القاعدة السادسة الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة فيها ﴾

وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سراً أو جهراً كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية من أحكام الاسلام القطعية، والآيات

---

١) أذاع أعداء الاسلام فيما تجنوا به عليه ان معنى هذه الآية ان القرآن يأمر أتباعه أن يقتلوا الكفار حيثما لقوهم حتى إن لورد كرومر الشهير الذي كان عميد الدولة البريطانية بمصر ذكر هذا في خطبة له . و إنما الآية في لقاء الأعداء الحربيين في القتال ، والكفار في شرع الاسلام ثلاثة أصناف: حربيون وتعرف أحكامهم من هذه القاعدة وماقبلها - ومعاهدون و يعرف بعض أحكامهم مما بعدها ، ومنهم المستأمنون ، وذميون وهم الذين يدخلون في حكم المسلمين وقد تقدم ان الاسلام يسوي بينهم وبين المسلمين في جميع أحكامه القضائية والسياسية و يوجب حمايتهم والدفاع عنهم حتى بالقتال لمن يعتدي على دينهم أو أنفسهم أو أموالهم

في ذلك متعددة محكمة لا تدع مجالا لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة، وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالحيلة «منها» قوله تعالى (١٦، ٩١ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها)** الآية جمع بين الامر بالايفاء بها والنهي عن نقضها ثم أكد ذلك بالمثل البليغ في قوله (٩٢ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها) وقد بيناه آنفا في مقدمة هذا المقصد «ومنها» أنه وصف المؤمنين الابرار بقوله في آية البر (٢:١٧٧ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) «ومنها» أنه عاب اليهود الذين نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ وجعلهم من شر الدواب (٨:٥٥ و٥٦) «ومنها» أنه لما أمر بنبذ عهود المشركين الذين نقضوا عهد النبي والمؤمنين استثنى منهم على كونهم أهل دار واحدة فقال (٩:٤ إلا الذين عاهدتم **من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم، ان الله يحب المتقين)** ثم قال **(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فما استقاموا** لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين) وبلغ من تأكيد الوفاء بالعهود ان الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين لنا من الكفار كما قال في غير المهاجرين منهم (٨:٧٢ وإن استنصروكم في الدين **فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)(١) فهل يوجد وفاء** بالعهود أعظم من هذا في حكومة دينية بأمر الله تعالى ؟

﴿ القاعدة السابعة الجزية وكونها غاية للقتال لا علة ﴾

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية (٩: ٢٩ **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) مانصه:**

---

(١) راجع تفسيرها في صفحة ١٠٨ ج ١٠ تفسير

هذه غاية للامر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها إذا كان الغلب لنا ، أي قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم ، أو تهديد أمنكم وسلامتكم وحرية دعوتكم ، كما فعل الروم فكان سبباً لغزوة تبوك، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما ، فالقيد الاول لهم وهو أن تكون صادرة عن يد أي قدرة وسعة فلا يظلمون ولا يرهقون. والثاني لكم وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم، والخضوع لسيادتكم وحكمكم، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الاسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التي يرونكم بها أقرب إلى هداية أنبيائهم منهم، فان أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد ، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة في العدل ولم يكونوا حائلا دونهما في دار الاسلام والقتال لما دون هذه الاسباب التي يكون بها وجوبه عينياً أولى بأن ينتهي بإعطاء الجزية ، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وحريتهم في دينهم بالشروط التي تعقد بها الجزية ، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين ، ويسمون أهل الذمة لان كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله ﷺ ، وأما الذين يعقد الصلح بيننا وبينهم بعهد وميثاق يعترف به كل منا ومنهم باستقلال الآخر فيسمون بأهل العهد والمعاهدين*)

حكمة الجزية وسببها وما تسقط به

هذا — وان الجزية في الاسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلا عن المغارم التي يرهقونهم بها، وإنما هي جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذي يمنعهم أي يحميهم ممن يعتدي عليهم كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس

(*) راجع القواعد في ٦—٩ ص ١٤٠ و ١٤١ ج ١٠ تفسير وما تحيل عليه من الآيات

بمقاصد الشريعة وأعدلهم في تنفيذها . والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها في تفسير الآية بعد ما تقدم آنفا

«منها» ما كتبه خالد بن الوليد رضي الله عنه لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وهو « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، اني عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة ، ومامنعنا كم فلنا الجزية وإلا فلا ، وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر » اه وهو صريح في أن الجزية جزاء على المنعة والحماية تدوم بدوامها ، وتمتنع بزوالها

ويؤيده بالعمل ماذكره البلاذري في فتوح البلدان والازدي في فتوح الشام من رد الصحابة «رض» لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك بأمر أبي عبيدة «رض » وقد صرحوا لهم أنهم قد أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة . فعجب أهل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم اليهم ودعوا لهم بالنصر على الروم

فظهر بما ذكرنا ان الاسلام حرم حرب الاعتداء والظلم ، وقصر حرب الدفاع على دفع المفاسد وتقرير المصالح العامة للبشر فجعلها ضرورة تقدر بقدرها ، وأن السلام الصحيح الشريف لا يمكن تمتع العالم به إلا بهداية الاسلام ، ووضع قوانين الحرب على قواعده

ومن تأمل هذه القواعد رأى انه لم يسبق الاسلام إلى مثلها دين من الاديان ، ولا قانون دولي ، ولا إرشاد فلسفي أو أدبي ، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل ، أفليس هذا وحده دليلا واضحاً لدى من يؤمن بوجود رب للبشر عليم حكيم ، بأن محمداً العربي الامي قد استمدها بوحي منه عز وجل ، وان عقله وذكاءه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة في هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحي؟ فكيف إذا أضفنا اليها ماتقدم وما يأتي من المعارف الالهية والادبية والاجتماعية والأنباء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ ؟



المقصد التاسع من مقاصد القرآن

(إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية)

كان النساء قبل الاسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الامم وفي جميع شرائعها وقوانينها حتى عند أهل الكتاب، الى أن جاء الاسلام، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فأعطى الله النساء بكتابه الذي أنزله عليه، وبسنته التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل، جميع الحقوق التي أعطاها للرجال، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الاحكام، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها، حتى كان النبي ﷺ يقول « ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم » رواه ابن عساكر من حديث علي كرم الله وجهه

كان كبار العقول من الصحابة رضي الله عنهم يرون ما أصلحه الاسلام من فساد وظلم ورذيلة في الامة العربية فيكبرونه إكباراً ويعدونه من دلائل نبوة محمد ﷺ إذ لم يكن يمتاز عليهم قبل النبوة بشيء من العلم ولا البلاغة، بل بالاخلاق وسلامة الفطرة فقط ؛ ولذلك كان عمر بن الخطاب المصلح الكبير والمنفذ الأكبر لسياسة الاسلام وهدي محمد ﷺ من بعده في الفتوح والعدل وإدارة شئون الشعوب يقول : إنما تنقض عُرَى الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية . ولو كان رضي الله عنه واقفا على تواريخ الامم والشعوب لعلم أن ما جاء به الاسلام انما هو إصلاح لشئون البشر كافة، وثنيهم وكتابيهم، همجيهم وحضريهم، لا في شيء واحد بل في كل شيء، وانني أُشير هنا إلى أهم أصول الاصلاح النسوي التي بسطتها في كتاب وسيط في حقوق النساء في الاسلام

بينت في مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الارض اجمالا بقولي :

« كانت المرأة تشترى وتباع ، كالبهيمة والمتاع ، وكانت تكره على الزواج وعلى البغاء ، وكانت تورث ولا ترث ، وكانت تُملَك ولا تملِك ، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل ، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بمالها من دونها ، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها إنسانا ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا ؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة أم لا؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة ، وأن يكمَّ فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام : لأنها أحبولة الشيطان ، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته وكان بعض العرب يرون ان للأب الحق في قتل بنته بل في وأدها «دفنها حية» أيضاً . وكان منهم من يرى انه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية »

وكتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الاسلام ما نصه

« قد أبطل الاسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن ، واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن ، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة ، فشرع الوصية والارث لهن كالرجال ، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية ، وأعطاهن حق البيع والشراء والاجارة والهبة والصدقة وغير ذلك . ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره من الاعمال المشروعة، وإن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدة بارادة زوجها في جميع التصرفات المالية ، والعقود القضائية »

واني ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالايجاز

(١) كان بعض البشر من الافرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الاعجم أو من الشياطين لا من نوع الانسان وبعضهم يشك في ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم امثال قول الله تعالى (٤٩: ١٣ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ) الآية . وقوله (٤: ١ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)

(٢) كان بعض البشر في أوربة وغيرها يرون ان المرأة لا يصح أن يكون لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً فجاء الاسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معاً بلقب المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، والآيات في ذلك معروفة .

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهي زوجه خديجة بنت خويلد (رض) وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن ثم بايع الرجال بما جاء فيها — ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعاً رسمياً وضع عند امرأة هي حفصة أم المؤمنين وظل عندها من عهد الخليفة الاول أبي بكر الصديق إلى عهد الخليفة الثالث عثمان (رضي الله عنهم) فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الامصار لاجل النسخ عنها والاعتماد عليها .

(٣) كان بعض البشر يزعمون ان المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة — وهذا الزعم أصل لعدم تدينها — فنزل القرآن يقول (٤: ١٢٣ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ : مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٤ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ

يَدْخلوُنَ الْجنَّةَ وَلاَ يُظْلَمونَ نَقيرًا) ويقول (٣: ١٩٥ فاستَجابَ لَهم رَبُّهمْ أَنّي لا أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُمْ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعضُكمْ مِن بَعْضٍ) الآية . وفيها الوعد الصريح بدخولهم جنات تجري من تحتها الانهار

(٤) كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلا للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية ، والمحافل الادبية ، ولا في غيرهما من الامور الاجتماعية والسياسية ، والارشادات الاصلاحية ، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى (٩: ٧١ وَالْمؤْمِنُونَ والْمؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمرونَ بِالْمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمونَ الصّلاَةَ ويُؤْتونَ الزَّكَاةَ ويُطيعُونَ اللّهَ وَرَسولَهُ ، أُولَئِكَ سَيرْحَمُهُمُ اللّهُ ، إِنَّ اللّهَ عَزيزٌ حَكِيمٌ)

فأثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين ، وتدخل فيها ولاية النصرة في الحرب ولكن الشرع أسقط عنهن فريضة القتال فكان حظهن من النصرة تهيئة الطعام والشراب للمقاتلين ومداواة جرحاهم ، وكن يصلين الجماعة مع الرجال ويحججن معهم ، ويأمرن بالمعروف ، وينهين عن المنكر ، حتى إن بعضهن كن ينكرن على عمر بن الخطاب قوله جهراً فيرجع عنه إذا كان خطأ ، وهو الذي كان يهابه الرجال كالنساء

وقد قفى الله تعالى على هذه الآية بأعظم آية في جزاء الفريقين جمعت بين بيان النعيم الجثماني والنعيم الروحاني وهي (٩: ٧٢ وَعَدَ اللّهُ المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الانهارُ خالدين فيها ومساكنَ طيبةً في جناتِ عدْنٍ ورِضوانٌ من اللهِ أكبرُ ، ذلك هو الفوزُ العظيم)

(٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره ، وبعضهم

يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الاسلام هذا الظلم ، وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع ، قال الله تعالى (٤ : ٧ للرجال نَصيبٌ مِمَّا ترَكَ الوالِدانِ والأقْرَبونَ ولِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمَّا ترَكَ الوالدانِ والأقْرَبونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أو كَثُرَ نَصيباً مَفروضاً)

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الاميركية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا ، وان المرأة الفرنسية لاتزال مقيدة بارادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائية ، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضربا من استرقاق الرجال للنساء فجعله الاسلام عقداً دينيا مدنيا لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والالفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الانسانية وانتشارها من الوالدين إلى الاولاد ، على ما أرشد اليه قوله تعالى (٣٠ : ٢١ ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنفسِكُمْ أزْواجاً لِتَسكُنوا إليْها وجَعلَ بَينَكُمْ مودَّةً ورَحْمةً ، إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(٧) القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لانه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عزوجل في الزوجات (٢ : ٢٢٨ ولهُنَّ مِثْلُ الذي عليْهِنَّ بالمَعروفِ ، ولِلرِّجالِ عليْهِنَّ دَرَجةٌ) وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى (٤ : ٣٤ الرِّجالُ قوَّامونَ

على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم)
فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والاولاد لا تكلف الزوجة منه شيئا ولو كانت أغنى منه، وزادها المهر، فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلا مفروضا عليه بمقتضى العقد حتى إذا لم يذكر فيه لزمه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية، ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضي على حين نرى بقية الامم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره أو يعضلونها بالمنع منه مطلقا وإن كان زوجها وطلقها فحرم الاسلام ذلك، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته

(٨) كان الرجال من العرب وبني اسرائيل وغيرهم من الامم يتخذون من الازواج ماشاءوا غير مقيدين بعدد، ولا مشترط عليهم فيه العدل، فقيدهم الاسلام بأن لا يزيدوا على أربع، وان من خاف على نفسه أن لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة، وإنما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والاحصان لانها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع في أحوال: منها أن تكون الاولى عقيما أو تدخل في سن اليأس من الحمل، أو تكون ذات مرض مانع منه أو من إحصان الرجل، وقد يكون التعدد من مصالح النساء خاصة إذا كثرن في أمة أو قبيلة كما يكون في أعقاب الحروب، او هجرة كثير من الرجال لاجل الكسب

وناهيك بأمة تحرم شريعتها الزنا وتعاقب عليه، فهل من مصلحة النساء أو الانسانية أن تبقى النساء الزائدات على عدد الرجال محرومات من الحياة الزوجية وحصانتها وكفالة الازواج ومن نعمة الامومة؟ وهل من المصلحة أو المنفعة العامة أو الخاصة أن يباح لهن الزنا وما يترتب عليه من المصائب البدنية والاجتماعية التي نراهن مرهقات برجسها في بلاد الافرنج والبلاد التي ابتليت بسيطرتهم عليها أو تقليدها لهم؟

وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه في كتاب «حقوق النساء في الاسلام» ما هو مقنع لكل عاقل منصف بأن ما شرعه الاسلام في التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر كافة، والنساء خاصة، فهو قد أباح ذلك بشرطه الشديد ولم يوجبه، وهن في شريعته مخيرات في قبول العقد على رجل متزوج وعدمه، بل تجيز الشريعة للمرأة أن تشترط في عقد نكاحها جعل عصمتها بيدها لتطلق نفسها اذا شاءت بناء على ماذهب اليه بعض أئمة الفقه في صحة كل شرط يتعاقد عليه الناس غير مخالف لنص قطعي في الكتاب والسنة ولا سيما شروط الزوجية عملا بحديث «أحق الشروط ان توفوا به ما استحللتم به الفروج» رواه البخاري في مواضع من صحيحه واصحاب السنن

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضروريات الحياة الزوجية اذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الاحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الاسلام فيه بالاصلاح الذي لم يسبقه اليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون، وكان الافرنج يحرمونه ويعيبون الاسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فأسرفوا فيه اسرافا منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الاسرة والعشيرة، ومما نقلته الصحف من أسباب حكم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة ووجه الرجل في إرساله أو قصه وحلقه، وشكوى المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعته للكتب أو الصحف في الدار، وشكواها من نتن رائحته لعدم استحمامه، وشكوى الرجل من كثرة كلام المرأة حتى بالمسرة (التلفون) ومثله كثير

جعل الاسلام عقدة النكاح بيد الرجال ويتبعه حق الطلاق لانهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدها وحلها وكونهم أثبت من النساء

جأشاً وأشد صبراً على ما يكرهون ، وقد أوصاهم الله تعالى فوق هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال (٤: ١٩ وعاشروهن بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فيه خيراً كثيراً) وأعطت الشريعة المرأة حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي اذا وجد سببه من العيوب الخلقية أو المرضية كالرجل وكذا اذا عجز الزوج عن النفقة. وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها لزواج ، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه – إلى غير ذلك من الاحكام التي بيناها في تفسير الآيات المنزلة فيها وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الاسلام ، (نداء للجنس اللطيف)

(١٠) بالغ الاسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى ، وأكد النبي ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الاب . ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الاخوات ، بأخص مما وصى به من صلة الارحام، بل جعل لكل امرأة قيما شرعياً يتولى كفايتها والعناية بها ، ومن ليس لها ولي من أقاربها وجب على أولي الامر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها، وقد أثبتنا في ذلك الكتاب طائفة من تلك الوصايا

وجملة القول انه ماوجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الامم أعطى النساء ما أعطاهن الاسلام من الحقوق والعناية والكرامة ، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم، الى محمد النبي الامي المبعوث في الاميين؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين المبرهنين ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد العاشر من مقاصد القرآن

﴿ تحرير الرقبة ﴾

ان استرقاق الاقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر ، بل هو معهود في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضاً كالنمل ، فاذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فانها تأسر ماسلم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المئونة وخزنها في مخازنها وغير ذلك

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرق مشروعا عند الافرنج إلى أن حررت الولايات الاميريكية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصا لمصلحة البشر العامة ، فان لهم فيه مصالح خاصة ولا جنوحا للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الاحمر الوطني الاصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، بل يستبيح الشعب الابيض تعذيب المخالف له في لونه في الولايات المتحدة على كل ذنب بما لا يبيحه القانون ، فيتخطفه دعارهم من أيدي الحكام والشرطة وينكلون به أشد تنكيل ، ويمثلون به أفظع تمثيل ، كما أن انكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم ، ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوائهم ، وطأمنت من إشناق كبريائهم [1]

(١) آخر ما نشرته الجرائد في هذه الأيام من هذه السنة الميلادية (١٩٣٤) عنهم أن طلبة جامعة أكسفورد انتخبوا رئيسا لبعض جماعاتهم فنال أكثر الأصوات طالب هندي فاضطرب الشعب الانكليزي لهذه النازلة ، وارتفعت في إنكارها الأصوات من كل مكان : أهندى أسمر يكون فوق الانكليز البيض في شيء ما ؟؟

وغيرهما من الافرنج المستعمرين شر منهما ظلما وقسوة وكل منهم يأبون أن يصلوا في كنائس مستعمراتهم مع أبناء البلاد فيتنا وبون الصلاة فيها

فلما ظهر الاسلام ، وأشرق نوره الماحي لكل ظلام ، كان مما أصلحه من فساد الامم إبطال ظلم الرقيق وإرهاقه . ووضع الاحكام لإبطال الرق بالتدريج السريع ، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجماع البشري من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء المستعبدين

فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدها فيحور إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان

وكذلك جرى في السودان المصري ، فقد جرب الحكام من الانكليز أن يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستقلين فيه مكتفين به فلم يمكن ، فاضطروا إلى الاذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا تسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم

هداية الاسلام في تحرير الرقيق وأحكامه

قد شرع الله تعالى لابطال الرق طريقتين : تحديد تجديد الاسترقاق في المستقبل أو تقييده . وتحرير الرقيق القديم بالتدريج ، الذي لاضرر ولاضرار فيه

﴿الطريقة الاولى﴾ منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الاقوياء للضعفاء بكل وسيلة من وسائل البغي والعدوان ، وقيده باسترقاق الاسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاسد وتقرير المصالح ، ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة(١) وهي شروط لم تكن قبله مشروعة عند المليين ولا عند أهل الحضارة فضلا عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون ، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الامم تفعله معاملة لهم بالمثل ، بل شرع لأولي الامر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في إمضائه أو إبطاله بأن خيرهم في أسرى الحرب الشرعية بين أمرين (أولهما) المن

(١) راجع المقصد الثامن من مقاصد القرآن ص ١٤٧ - ١٥٤

عليهم بالحرية فضلا وإحسانا ورحمة (ثانيهما) الفداء بهم وهو نوعان فداء المال ، وفداء الأنفس اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم ، بنص الآية ٥٧ : ٤ التي أوردناها في القاعدة الخامسة من قواعد الحرب[1] ، ولما كنا مخيرين فيهم بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم جاز أن يعد هذا أصلا شرعيا لا بطال استئناف الاسترقاق في الاسلام ، فان ظاهر التخيير بين هذين الامرين ان الامر الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز لو لم يعارضه أنه هو الاصل المتبع عند جميع الامم وأقره الاسلام لانه أمر عالمي دولي يقع به التعامل بين الاعداء في الحرب ، فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرحم بهم وأعدل كما يعلم مما يأتي ، ولكن الآية ليست نصا في الحصر ، ولا صريحة في النهي عن الاصل ، فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقا غير قطعية ، فيبقى حكمه محل اجتهاد اولي الامر[2] إذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقوه ، وإذا وجدوا المصلحة في ترجيح المن عليهم بالحرية وهو إبطال اختياري له أو الفداء بهم عملوا به

ورأيت بعض المشتغلين بالفقه يقولون ان الاسترقاق والسبي من حقوق المحاربين الخاصة لا من حقوق أولي الامر العامة ، فليس للامام الاعظم ولا للقائد العام في الحرب المفوض من قبله مع أركان حربه أن يجبروا المقاتلين على المن عليهم ولا على الفداء بهم لاقتضاء المصلحة العامة لأحد الامرين ، بدليل ان النبي ﷺ لم يجبر المسلمين على التخلي عن سبي هوازن إجبارا ، بل جعله بتطييب أنفسهم ، ووعد من لا تطيب نفسه بترك حصته بالتعويض عليه ، وفي هذا الفهم غلط من وجوه كثيرة «منها» ان مثل هذه المسألة إذا لم تكن من المصالح العامة التي تناط بأولي الامر فليس في الامم مصالح عامة قط «ومنها» انه يعارض نصا في القرآن بواقعة حال عملية «ومنها» ان النبي ﷺ جمع في تلك الحال بين حكمة الدين ورحمته العامة وبين تربية المسلمين التي اقتضاها الزمان والمكان ، والقوة والضعف في الايمان ، وحال طلقاء مكة والمؤلفة

(١) راجع ص ١٥٣ (٢) راجع آخر ص ١١٩ وأول ما بعدها

قلوبهم في إظهار الاسلام فوعد وفد هوازن باحدى الطائفتين مع علمه بأنهم يختارون السبي .. ثم انه أعطى المؤلفة قلوبهم من الغنائم أكثر من غيرهم ، ولم يعط الانصار شيئا . وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيتين (٢٥ و ٢٦) من سورة التوبة (٩) *

وإنما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين — أي المن على الاسرى والفداء بهم — في حالات قليلة لا تدوم كأن يكون المحاربون للمسلمين قوما قليلي العدد كبعض قبائل البدو يقتل رجالهم كلهم أو جلهم فاذا ترك النساء والاطفال والضعفاء من الرجال لأنفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال في حياتهم ، فيكون الخير لهم أن يكفلهم الغالبون ويقوموا بشئونهم المعاشية ، ثم تجري عليهم أحكام الطريقة الثانية في تحريرهم ، وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت حرائر ، أو محصنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الاقل . وكذلك الاطفال يكفلهم المسلمون ويربونهم على عقائد الاسلام وفضائله ، ثم ينالهم العتق في الغالب لما سيأتي في وجوهه ، فيكونون كسائر أحرار المسلمين علماء وأغنياء وحكاما وأمراء . وقد أفضى هذا إلى تغلب المماليك من الاعاجم على السيادة والسلطان في الامة ، بعد إهمال هداية الدين في دولها

وقد سن النبي ﷺ لأمته ترجيح المن على الاسارى والسبايا بالعتق قولا وعملا في غزوة بني المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين كما هو مفصل في كتب السيرة النبوية وغيرها ، إذ لم يكونوا أسروا من المسلمين أحداً لان المسلمين قد أثخنوهم وظهروا عليهم ، فعلم منها ان روح الشريعة الاسلامية ترجيح جانب الفضل والاحسان عند القدرة ، ومنه عتق الاسرى والسبايا والمن عليهم بالحرية بلا مقابل حاضر ، ولا خوف مستقبل ، بل لمحض الاحسان

ولا تنس أن أكثر المشركين الذين كانوا يقاتلون النبي ﷺ من الاعراب (البدو) وكانت حالة الحرب معهم مستمرة كما تقدم (ص ٢٥٤) فلم يكن من المصلحة ارجاع سبيهم اليهم يشقى بشقائهم وشركهم ، وظلمهم وقساوتهم ، من قتل للاولاد ووأد للبنات ، وتأمل فعله ﷺ مع بني النضير من اليهود اذ استأذنه أصحابه بأخذ أولادهم الذين تهودوا معهم فأمرهم بتخييرهم (راجع ص ٢٠٨)

(*) راجع صفحة ٢٥٧ ج ١٠ تفسير

﴿ الطريقة الثانية ﴾

﴿ ماشرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وندبا وهو أنواع ﴾

(النوع الاول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازبة وفيه عشر مسائل)

(١) الحرية في الاسلام هي الاصل في الانسان كما كتب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب «رض» إلى عامله على مصر عمرو بن العاص « وقد اشتكى عليه قبطي » ياعمرو منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الاصل ان الرق لا يثبت باقرار المرء على نفسه ، وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه فيكلف إثباته

(٢) ان الاسلام حرم استرقاق الاحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشروطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام . روى البخاري وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «قال الله تعالى ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه اجره» وفي حديث الثلاثة الذين لا يقبل الله منهم صلاة «ورجل اعتبد محرراً» أي جعله كالعبد في استخدامه كرها أو أنكر عتقه أو كتمه ، وهو في سنن أبي داود وابن ماجه

(٣) شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من مالكه بمال يدفعه ولو أقساطا ، ويسمى هذا في الشرع الكتاب والمكاتبة وأصله قوله تعالى (والذين يبتغون الكتابَ مما ملكت أيمانُكم فكاتبوهم إنْ علمتم فيهم خَيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) أمر بمكاتبتهم إن علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وانه خير لهم ، وأمر باعانة المالك لمكاتبه على أداء ما باعه نفسه به ، ويدخل فيه الهبة وحط بعض الاقساط عنه ، وجعل في مال الزكاة المفروضة سهما تدخل فيه هذه الاعانة ، وندب غير المالك لذلك ايضا

ذهب بعض العلماء إلى أن الامرين في الآية للوجوب : الامر بالمكاتبة

والامر بالاعانة عليها ، والاكثرون على أن الاول للندب والثاني للوجوب ، وفي صحيح البخاري بعد ذكر الاية :قال روح عن ابن جريج قلت لعطاء أواجب علي إذا علمت انله (اي لمملوكه) مالا أن أكاتبه ؟ قال ما أراه إلا واجبا .وقال عمرو ابن دينار قلت لعطاء أتأثره عن احد؟ قال لا ، ثم أخبرني ان موسى بن أنس أخبره ان سيرين(١) سأل أنسا المكاتبة وكان كثير المال فأبى فانطلق سيرين إلى عمر فدعاه عمر فقال كاتبه،فأبى فضربه بالدرة وتلا(فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً)فكاتبه اهـ

(٤) إذا خرج الارقاء من دار الكفر ودخلوا دار الاسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الاسلامية تنفيذ ذلك ومستنده في السنة معروف ، وقد انعكس الامر في هذا العصر فصار الارقاء الذين يخرجون من دار الاسلام الى دار الكفر أو ما في حكمها هم الذين يعتقون ، والمراد بالكفر هنا غير الاسلام

(٥) ان من أعتق حصة له من عبد عتق كله عليه من ماله إن كان له مال، وإن كان لغيره حصة فيه فله أحكام،وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرهما ،منها حديث ابي هريرة ان النبي ﷺ قال «من اعتق نصيبا او شقيصا في مملوك فخلاصه عليه في ماله إن كان له مال وإلا قوم عليه فاستسعى[٢] به غير مشقوق عليه» وحديث ابن عمر مرفوعا ايضا «من اعتق نصيبا له في مملوك اوشركا له في عبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتيق » والشقيص كالنصيب وزنا ومعنى

(٦) من عذّب مملوكه او مثل به او خصاه عتق عليه ،فقد روى الامام احمد إن زنباعا أبا روح وجد غلاما له مع جارية له فجدع أنفه وجبّه ،فشكاه إلى النبي ﷺ فسأله فاعترف وذكر ذنبه فقال النبي ﷺ للغلام « اذهب فأنت حر » ويؤخذ منه أن الجب والخصاء حرام وموجب لعتق العبد ، وينفذه الحاكم عليه ، فكل ما كان يخصى من المماليك ففيه مخالفة للشرع الاسلامي بخصائهم وبعدم عتقهم

---

(١) هو والد محمد بن سيرين العالم التابعي المشهور

(٢) أي كلف المملوك أن يسعى في جمع المال الباقي من ثمنه بما لا مشقة عليه فيه ، فيالله ما أعجب هذه الرحمة في الاسلام

وفي رواية له (الامام احمد) أخرجها أبو داود وابن ماجه : جاء رجل إلى النبي ﷺ صارخا فقال له « مالك ؟ ». قال سيدي رآني أقبل جارية له فجب مذاكيري فقال النبي ﷺ « علي بالرجل » فطلب فلم يقدر عليه فقال ﷺ للغلام « اذهب فأنت حر » وفي جامع الاصول من حديث سمرة بن جندب وابي هريرة أن النبي ﷺ قال « من مثّل بعبده عتق عليه »

(٧) إيذاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ولا كفارة لذنبه إلا عتقه فقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه » وللشيخين والترمذي عن سويد بن مقرن قال : كنا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا إلا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال « أعتقوها » وقيل له انه ليس لبني مقرن خادم غيرها فرخص لهم باستخدامها ما دامت الحاجة واطلاقها اذا زالت.

وروى مسلم وغيره عن أبي مسعود البدري قال كنت أضرب غلاما بالسوط فسمعت صوتا من خلفي « اعلم أبا مسعود » فلم أفهم الصوت من الغضب، قال فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فاذا هو يقول « اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود » فألقيت السوط من يدي ، وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيبته فقال « اعلم أبا مسعود ان الله أقدر منك على هذا الغلام — وفي رواية عليه — فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال « أما لو لم تفعل للفحتك النار — أو — لمستك النار »

فهذا وما قبله بعض هدي محمد ﷺ في الرحمة ومعاملة الرقيق الذي لا يزال يصفه رجال الكنيسة ورجال السياسة من الافرنج وتلاميذهم بما علم القاصي والدان من الكذب والافك والبهتان. كيف لا وهو الرحمة العامة للعالمين (راجع ص ١١٤-١١٧)

(٨) التدبير عتق لازم ، وينعقد بقول السيد لعبده أنت مدبر وأنت حر عن دبر مني أي بعد ان أدبر عن هذه الدنيا وكذا أنت حر بعد موتي ، اذا قصد

به التدبير، فان أطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح أنه تدبير تقوية لجانب العتق الذي هو من مقاصد الشرع الاساسية ومنهم من يرجح جانب الوصية

ومن أحكام التدبير انه لازم في الحال لايجوز الرجوع عنه كالوصية ،وانه لايجوز للمدبر (بالكسر) بيع المدبر (بالفتح) عند مالك وأبي حنيفة.وان من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق إلى باقيه،وقال جمهور العلماء ان أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق فاذا عتقت عتقوا معها

(٩) عتق أمهات الاولاد – وهو ان الجارية التي تلد لسيدها ولداً تصيرحرة من رأس ماله بعد موته فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز له بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف وأولهم عمر وعثمان (رض)

ففي حديث عمر عند الامام مالك« أيما وليدة ولدت من سيدها فانه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فاذا مات فهي حرة»ولو ان أم الولد تورث لورثها أولادها فكانت ملكا لهم وهذا مناف لمقاصد الشرع وأصوله وآدابه

(١٠) ان ملك أحد أحداً من أولي القربى عتق عليه وأعم ماورد فيه حديث سمرة بن جندب مرفوعا « من ملك ذارحم محرم فهو حر »رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي والحاكم وصححوه وهذا بمعنى ماقبله من عتق أمهات الاولاد

(النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات)

والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام

(أحدها) واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة أو ثمنها ككفارة قتل النفس خطأً ، وكفارة الظهار وهو تشبيه الرجل زوجه بأمه وكان طلاقا في الجاهلية ، وكفارة إفساد الصيام عمداً بشرطه وقيده المعروفين في الفقه

(ثانيها) واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة

(ثالثها) مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

(النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود)

جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة في(الرقاب)بنص القرآن هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه(الكتابة) ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الالوف وألوف الالوف من الدراهم والدنانير، فلو نفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لأمكن تحرير جميع الرقيق في دار الاسلام

(النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى أي ابتغاء مرضاته)

قد ورد في الكتاب والسنة وآثار السلف من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ، ومما يدل على أنه من أعظم العبادات وأصول البر آية البر من سورة البقرة (٢:١٧٦)

ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله ﷺ « أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً [١] استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار » متفق عليه من حديث ابي هريرة ، وفي رواية « عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه » وحديث ابي ذر قال سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال« إيمان بالله، وجهاد في سبيله » قلت فأي الرقاب أفضل؟ قال«أعلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها »الحديث

ومن أشهرها حديث ابي موسى الاشعري « أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها واعتقها وتزوجها فله اجران» رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وفي الصحيحين أيضاً ان أبا هريرة لما روى قوله صلى الله عليه وسلم « للمملوك الصالح أجران » قال :والذي نفسي بيده لولا الجهاد والحج وبر أمي لأحببت ان أموت وأنا مملوك .

(١) اتفق العلماء على شرعية عتق الكافر وأنه قربة وإنما اختلفوا في عتقه في الكفارة

(الوصية بالمماليك)

أضف إلى هذا وصايا الله ورسوله بالمماليك ومنها تخفيف الواجبات عليهم، وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والاقربين، ونهي النبي ﷺ عن قول السيد «عبدي وأمتي» وأمره أن يقول «فتاي وفتاتي وغلامي» وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون، ويعينوهم على خدمتهم إن كلفوهم ما يغلبهم كما في حديث أبي ذر في الصحيحين وغيرهما الذي تقدم في (ص٢١٣) والمناسب منه هنا ان المعرور بن سويد قال رأيت اباذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك، وذكر ما تقدم من الحديث وتتمته هي قوله ﷺ في المماليك «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فان كلفتموهم فأعينوهم» أي عاملوهم معاملة الأمثال. وفي الصحاح ايضاً انه كان يوصي بالنساء وما ملكت الايمان حتى في مرض موته إلى أن التحق بالرفيق الاعلى ﷺ وسأله ابن عمر كم أعفو عن الخادم؟ قال «اعف عنه كل يوم سبعين مرة» وهذه مبالغة معناها اعف عنه كلما أذنب،

وقد تفلسف بعض المتنطعين فيما يسمونه النقد التحليلي فقال إن محمداً ﷺ كان يوصي بالرقيق لأنه ربي في حجر أمة - يعني به إرضاع ثويبة مولاة عمه أبي لهب - وان هذا التعليل لجهل عميق بالتاريخ وعلم النفس والفلسفة جميعاً، فثويبة أرضعته أياما عقب ولادته ولم تكن مربية له ولا أدرك ذلك فيؤثر في نفسه. ولكن هذا التشريع العظيم الذي جاء في كهولة الأمية فوق جميع شرائع البشر وفلسفتهم وآدابهم شيء آخر لا ينبغي لعاقل، أن يعلله بما علله به هذا المتنطع المتحذلق، وما كان هذا التشريع وحده هو الذي يعلو هذا التعليل ويحطمه بل كل نوع من شريعته مثله، ثم ماذا يقال في مجموعها وجملتها؟

ولهذا كان المسلمون في الصدر الاول يبالغون في تكريم الرقيق ومعاملتهم بالحلم حتى صاروا يقصرون في الخدمة. ولعمر الحق ان العبد المملوك في حكم الاسلام الاول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الاحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الافرنج من غيرهم أو نفوذهم

خلاصة البحث

(في تحرير الدلالة على إثبات الوحي ، وحجة الله به على جميع الخلق)

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الانبياء عندنا وعند النصارى ، ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسي ، والكلام في إعجاز القرآن اللغوي والعلمي . وما أحدثه من الثورة العالمية والانقلاب الانساني من كل وجه ، ثم أضف اليها هذه العشرة الانواع من مقاصد القرآن، في إصلاح البشر وتكميل نوع الانسان، من جميع نواحي التشريع الروحي والادبي والاجتماعي والمالي والسياسي، وهي التي اشتدت حاجة الشعوب والدول في هذا العصر اليها موضحة بأصول وقواعد هي أصح وأكمل وأكفل للمصالح العامة ، ودفع المفاسد القديمة والطارئة، من كل ما سبقها من تعاليم الانبياء ، وفلسفة الحكماء ، وقوانين الملوك والحكام، على اختلاف الاعصار ، مع العلم القطعي من تاريخ محمد ﷺ انه كان أمياً يؤثر بطبعه عيشة العزلة، فلم يتفق له الاطلاع على كتب الانبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين ، وانه لم يعرف عنه انه كان يبحث في شيء من العلوم ، ولا انه نطق بشيء من مسائلها ، ولا أنه عرف بالبلاغة والفصاحة ، أو عُنيَ بالشعر أو الرجز أو الخطابة، والعلم القطعي بأنه انما جاء بها في هذا القرآن بعد استكمال سن الاربعين ، وهي سن لم يعرف في استعداد أنفس البشر ومدركات عقولهم ولا في تاريخهم ان صاحبها يأتنف مثلها ائتنافا لم يسبق له البدء بشيء منه في أنف عمره، وآنفة شبابه وشرخه

راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطراً إلى الجزم بأن هذا كله فوق استعداد بشر أمي أو متعلم ، وانه لا يعقل الا أنه وحي من الله تعالى

فاذا فرضنا انه يحتمل أن يكون شيء منها من تأثير الوراثة والبيئة والتربية، وأن يكون قد تسرب إلى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقي في أسفاره القليلة، ولو انه فكر في حاجة البشر الى مثلها مما أدركه بذكائه الفطري من سوء حالهم، فهل يعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة، وهذه الخطرات الواردة، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الأمم كلها، وأن تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور إلى أن تظهر في سن الكهولة، بهذه الروعة من البيان، وسلطان البلاغة على القلوب، وقوة البرهان في العقول، فتحدث هذه الثورة في الامة العربية المغيرة لطباعها، المبدلة لأوضاعها، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها، ويتلو ذلك ما قصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله بها؟

وأعجب من هذا كله أن يظهر في هذا العصر ان أمم العلم والحضارة العجيبة أشد حاجة اليها ممن قبلهم؟ كلا إن هذا لم يعرف مثله في البشر

وإذ قد ثبت هذا فالواجب على كل من بلغه من البشر أن يتبعه ويهتدي به لتكميل انسانيته، واعدادها لسعادة الدنيا والآخرة. فان اعترضته شبهة عليه فليبحث عنها أو لينبذها، فما كان لعاقل ثبت عنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته في حفظ صحته، أو مداواة مرضه لشبهة في بعض مسائله، أو خيبة الاطباء في بعض معالجاتهم للمرضى. فهو أعظم خوارق العادات فيهم، فلم يبق إلا انه علم موحى به من الله عز وجل مفروض على كل عاقل بلغته دعوته ان يتبعه ويدعو اليه،

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٦:١٤٩)

«رضيت بالله ربا، وبالاسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا»

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد ان محمداً رسول الله، وانه خاتم النبيين، ورحمته العامة للعالمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين

الخاتمة

في تجديد التحدي بتعاليم الوحي المحمدي

(ودعوة شعوب الحضارة إلى الدين الاسلامي)

تلك عقائد دين محمد وقواعد تشريعه، وأصول اصلاحه الديني والاجتماعي والمالي والسياسي، مسرودة بالاجمال، مؤيدة بشواهدها من آيات القرآن، مجردة من حلل المبالغات الخطابية، وعاطلة من حليّ الخلابة الشعرية، ونحن المسلمين نتحدى الفلاسفة والمؤرخين من جميع الامم، ولاسيما أحرار الافرنج، بأن يأتونا بمثلها أو بما يقرب منها من تاريخ أعظم الانبياء، وأشهر الحكماء، وأبلغ الادباء، وأنبغ ساسة الاولين والآخرين، مع صرف النظر عن كونه ﷺ كان (كما بينا أولا وآخراً) أمياً، وجاء بذلك كله بعد استكمال السن التي صرح علماؤهم بأن الانسان يستحيل أن يبتدىء او يبتدع فيها علما او فنا، او يسن فيها شرعا او يضع قانونا، أو ان ينهض في العالم بانقلاب عظيم او عمل خطير، ما لم يكن قد ظهر استعداده له واخذه بمقدماته في ريعان الصبا، وشرخ الشباب، وقد بينا الفرق العظيم بينه وبين موسى وعيسى أعظم أنبياء بني اسرائيل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين

نتحداهم بهذا القرآن تحديا علميا إصلاحيا سياسيا في ارقى عهد للبشر في العلم الكسبي، مع صرف النظر عما كان من تحدي سلفنا باعجاز عبارته واسلوبها وبلاغتها العربية في ارقى عصورها، ونتحداهم به تحديا عمليا من حيث ان تنفيذ محمد ﷺ لاصلاحه في تأثيره وسرعته وعمومه من أكبر المعجزات التي تفوق استعداد البشر، فكيف وقد اجتمع العلم والعمل

وبيانه ان العلم بما يصلح به حال البشر في أفرادهم وجماعاتهم وشعوبهم علم واسع يقل في الاذكياء من يتقن المدون منه في الكتب الذي يلقن في المدارس، ثم يقل من يستطيع تنفيذ مايتعلمه منه في أمة يتولى أمر سياستها وادارة الاحكام فيها، فهل في الامكان أن يوجد انسان يضع هذا العلم ذا الشعب الكثيرة ، بل العلوم العالية ، ثم يكون هو الذي يتولى تنفيذها وإصلاح أمة كبيرة بها ، ويتم له النجاح في ذلك بنفسه في عصره ؟

ان هذا ليس في استطاعة أحد من البشر، ولم يقع من أحد منهم فيما غبر. وأصول هذا الاصلاح وفروعه محفوظة إلى اليوم وقد فسد أكثر البشر لتركهم الاهتداء بها!!

وأما تنفيذ محمد صلى الله عليه وسلم لهذه التعاليم فقد تم في عشر سنين من تاريخ الهجرة الذي كان بدء حياة الحرية، وقد ظل قبلها يدعو إلى أصولها المجملة عشر سنين أولا بالسر ثم بالجهر، مع احتمال الاضطهاد والايذاء والتعذيب والتهديد بالقتل والنفي الذي اضطر المؤمنين إلى هجرة بعد هجرة ، وبعد الهجرة العامة بالتبع له صلى الله عليه وسلم صار لهم قوة فكان المشركون يعتدون عليهم ويقاتلونهم في دار هجرتهم، فكانوا في حالة حرب وقتال مع المشركين كافة، وكذا أهل الكتاب المجاورين له. وكان صلى الله عليه وسلم عقد لليهود معاهدة بتأمينهم على دينهم وأنفسهم وأموالهم بشرط ألا يظاهروا المشركين عليه ، فنقضوا عهده المرة بعد المرة وظاهروهم بل اغروهم بقتاله، فاضطر إلى قتالهم واجلائهم من جواره في الحجاز، وظل المسلمون في نضال مع المشركين مدة ست سنين، مدافعين عن أنفسهم في كل قتال دفاع الضعيف ـ المؤيد من الله ـ للأقوياء المخذولين، وفي أواخر السادسة عقد معاهدة الحديبية مع المشركين على وضع القتال عشر سنين، ثم غدر المشركون ونقضوا العهد، فعادت حالة الحرب، وفتح المسلمون مكة عاصمة قريش الدينية والدنيوية، ومثابة جميع الامة العربية، في سنة ثمان من الهجرة، وحج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع في آخر سنة عشر، وأنزل الله تعالى عليه في يوم عرفة (٥: ٣ الْيَوْمَ يَئِسَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ * ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا)

ففي عشر سنين تم توحيد الامة العربية التي كانت أعرق أمم الارض في الشقاق والتفرق والعداء، وانما كان ذلك بتأثير كتاب الله وتأييده عز وجل لرسوله كما قال (٨: ٦٢ هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) وبما أعده تعالى له من مكارم الاخلاق، وما وفقه وأرشده اليه من حسن السياسة المبينة في قوله تعالى (٣: ١٥٩ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ) الآية

وذلك ان العرب كانت أعصى خلق الله على الخضوع والطاعة والانقياد، لعراقتهم في الحرية ، وشدة بأسهم ، وعدم ابتلائهم بالملوك المستبدين القاهرين ، والرؤساء الروحيين المسيطرين ، الذين يذللون الامم ويخضعونها لكل ذي سلطان قوي

فليدلنا علماء التاريخ العام على نبي من الانبياء ، أو حكيم من الحكماء ، أو ملك من الملوك الفاتحين والمشترعين، ربى أمة من الامم في عشر سنين او عشرين، فجعلها أهلا لفتح الامصار، والسيادة على الامم الحضرية، وسياستها بالعدل والرحمة، وتحويلها عن أديانها ولغاتها بالاقناع وحسن القدوة ، ولا نشترط ان تكون هذه الامة التي علمها وهذبها ووحدها رجل واحد كالامة العربية ولا ان يكون هذا الرجل اميّاً كمحمد ﷺ

فأين الوحدة الجرمانية والوحدة الطليانية في عصر العلوم والفنون والفلسفة والقوانين ونظم الاجتماع والحرب ، من الوحدة العربية المحمدية في عهد الامية والجاهلية ؟ بل أين الوحدة الاسرائيلية، في عهد الآيات والعجائب الكونية، من الوحدة العربية الخاصة ثم الوحدة الاسلامية العامة في عهد آيات القرآن وعلومه الالهية؟

ثم نفّذ ذلك التشريع الاعلى، والهداية المثلى، خلفاء محمد الراشدون، وكثير من ملوك المسلمين الصالحين ، بما شهد لهم به تاريخهم ، واعترف لهم به المؤرخون المنصفون من الافرنج وغيرهم ، بالجمع بهما بين العدل والرحمة، وبأنهم جددوا بهما الحضارة الانسانية ورقوها ، وأحيوا العلوم والفنون الميتة وهذبوها واستثمروها وكانوا أساتذة العلم فيها .

ثم كان من قوة هذا الدين في الحق والفضائل ان عادته جميع أمم الافرنج وحاربته بجميع قواتها الصليبية، الهمجية منها والمدنية، ثم بعلومها وفنونها ونظمها المدهشة ، ولا تزال تحاربه وتبذل الملايين من الدنانير لتحويل أهله عنه ، بعد زوال قوة دوله، وغلبة الجهل على شعوبه، بجميع أساليب الدعوة المسماة بالتبشير ، وبجميع وسائل القوة والنظام ، وتقترف دولهم وجمعياتهم الدينية في ذلك من رذائل الظلم والبغي والكذب مايتبرأ من مثله شرار المجرمين، ولم يستطيعوا له هدما ، ولا ان ينصّروا مسلما واحداً .

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى ٱللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (التوبة ٩: ٣٢و٣٣)

نتيجة التحدي بالوحي المحمدي

(دعوة شعوب المدنية : أوربة وأمريكة واليابان، بلسان علمائها إلى الاسلام)

(لإصلاح فساد البشر المادي وتمتيعه بالسلام، والاخاء الإنساني العام)

اذا عجز حكماء هذا العصر وعلماء الحياة والاجتماع والاخلاق والمؤرخون من أحرار الافرنج وغيرهم عن إخبارنا بوجود رجل مثل محمد فيما علم من تاريخه المعروف المشهور جاء بمثل هذا القرآن، في خصائصه ولا سيما التعاليم التي لخصنا كلياتها في هذا الكتاب وقدر ان ينفذها ويربي بها أمة كالامة العربية يكون لها بها من الاثر الديني والمدني في العالم مثل أثرها — وانهم لعاجزون عن ذلك قطعا — أفلا يكون عجزهم هذا برهانًا على ان دين محمد و كتاب محمد وهدي محمد وتربية محمد للأمة العربية، بما قلب به نُظُم العالم الانساني كلها ، وحولها إلى ماهو خير منها ، كل اولئك من خوارق العادات، ومالا يقبل المراء الظاهر من المعجزات ؟ بلى

واذ كان حقًا واقعًا ماله من دافع ، فما المانع من عد هذه التعاليم وحيًا من رب العالمين ، العليم الحكيم ، وما معنى كونها وحيًا إلا انها علم أفاضه الله تعالى على روح محمد وقلبه ، بطريقة خفية غير طرق العلم الكسبية المعروفة للبشر عامة، وفوق الالهامات القليلة التي تؤثر عن بعض الخاصة ؟ وما معنى كونها معجزة إلا انها جاءت على غير المعهود في علم البشر الكسبي ، وخلاف المقرر في علم النفس والفلسفة العقلية وسنن الاجتماع ، وتواريخ الامم ، وسير الحكماء والعلماء والملوك، وفوق المعروف عن الانبياء أيضا وإن كانت من جنسها . فالانبياء قد أنبؤا ببعض الغيوب الحاضرة في عصرهم والتي تأتي بعدهم — وأنبأ محمد ﷺ بما هو أصرح منها وأظهر وأكثر ، وبغيوب سابقة كانت قبل نبوته بقرون ، ولكن لم يجيء أحد منهم بمثل ما تقدم اجماله في المقاصد العشرة العالية من العلم والحكمة والتشريع .

قد بينا لكم أيها العلماء الاحرار، بطلان ما اخترعته عقول المنكرين لنبوة محمد ﷺ من العلل والآراء، لجعل ماجاء به من العلم الالهي الأعلى، والتشريع المدني الأسمى، والحكمة الادبية المثلى، نابعاً من استعداده الشخصي، وما اقتبسه من بيئته ومن أسفاره، مع تصغيرهم لهذه المعارف جهلا أو تجاهلا، وعلمتم أن بعض ماقالوه افتراء على التاريخ، وان مايصح منه عقيم لاينتج ما ادعوه، وعلمتم انه في جملته مخالف للعلم والفلسفة وطباع البشر وسنن الاجتماع ووقائع التاريخ

ونحن نتحداكم الآن بالاتيان بعلل أخرى لما عرضناه على أنظاركم من وحي الله تعالى وكتابه لمحمد ﷺ مع القطعي من تاريخه — علل يقبلها ميزان العقل المسمى بعلم المنطق، وسنن الانسان وعلم الاجتماع

فان لم تستطيعوا — ولن تستطيعوا — أن تأتونا بعلل تقبلها العقول، وتؤيدها النقول: فالواجب عليكم أن تؤمنوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته. وبكتابه المنزل عليه من عند الله تعالى لإصلاح البشر، وأن تتولوا الدعوة إلى هذا الايمان، ومعالجة أدواء الاجتماع الحاضرة به، بعد أن عجزت علومكم الواسعة، وفلسفتكم الدقيقة، عن وقف عدوى فساد الاباحة وعبادة الشهوات وفوضى الافكار في الامم، وعجزت عن منع ذول حضارتكم أن تنفق معظم أموالها المنتزعة من شعوبها ومستعمراتها في الاستعداد لحرب البغي والعدوان المدمرة، وتأريث العداوات بين شعوب الارض كافة، بل زادوا شعوبهم عداوة وشنآنا، وبغيا وعدوانا، بما هو شر مما عليه قبائل الهمج، وسباع الوحش والطير والسمك، فقد كان غاية شوط هذه العلوم الواسعة عند هذه الدول أعظم نكبة على البشر، فان أبيتم وتوليتم أيها العلماء عن دعوة الاسلام الى السلام، فعليكم إثم شعوبكم ودولكم وسائر الانام

(علوم البشر لا تستقل بهدايتهم)

﴿ لانهم لا يدينون إلا لوحي ربهم ﴾

ألا انه قد ثبت بالحس والعيان، ان العلم البشري وحده لا يصلح أنفس الناس، لانهم لايخالفون أهواءهم وشهواتهم الشخصية والقومية الى إتباع آراء أفراد منهم، وإنما يدينون بوازع الفطرة لما هو فوق معارفهم البشرية، وهو ما يأتيهم من ربهم، ولا يوجد في الارض دين عام كامل صحيح ثابت إلا دين الاسلام، وقد بينا لكم أصول تشريعه الروحي والسياسي والاجتماعي الصالح لكل زمان ومكان، وانه دين السلام والحق والعدل والمساواة التي تعطي كل شعب وكل فرد حقه، فبها وحدها يمكن البرء من الأدواء المالية والسياسية والحربية والاجتماعية كلها: فاليهودية دين موقت خاص غير عام وانتهى زمانها، والمسيحية إصلاح روحي لليهودية ليس فيها تشريع، ولا تصلح وصاياه الزهدية التواضعية لحضارة هذا العصر، وإنما هي موقوتة لاصلاح غلو اليهود والروم في الطمع الدنيوي والشهوات كما تقدم، والبرهمية والبوذية والمجوسية، على ما تعلمون فيهن من وثنية وخصوصية، وخرافات وعداوات، وتفاوت طبقات، وعد بعضها كالحشرات أو رجساً من عمل الشيطان، فلا يصلح شيء منها لتثقيف البشر بالتوحيد والعرفان، والاخاء الانساني العام، فلا ملجأ ولا وزر، ولا ملتحد للبشر، إلا بدين الاسلام (٣ : ١٩ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) فلئن اهتدت به أمة قوية منظمة لتصلحن به سائر الامم، ولتكونن لها السيادة العليا في جميع الارض، وليدخلن العالم الانساني في طور جديد من الترقي، والجمع بين منافع القوى المادية، والمعارف الروحية، ومنتهى السعادة الانسانية

الرجاء في العلماء المستقلين دون السياسيين

بلغنا انه دعا بعض العلماء منكم إلى عقد مؤتمر من كبار علماء الشعوب كلها للبحث في الوسائل التي يمكن أن تقي حضارة العصر من غوائل الشحناء القومية والدولية ، ولئن عقد هذا المؤتمر فلن يكون أمثل ولا أرجى من هذه المؤتمرات التي تعقدها الدول في جامعة الامم وعواصم السياسة، وهي لما تزد الأدواء القومية إلا إعضالا، والأخطار الدولية إلا تفاقما ، وإنما الدواء الواقي المضمون بين ايديهم وهم لا يبصرون ، وحجته البينة تناديهم ولكنهم لا يسمعون (٨ : ٣٣ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

وأما انتم ايها العلماء المستقلو العقول والافكار ، فالمرجو منكم أن تسمعوا وتبصروا. وأن تعلموا فتعملوا. فان كانت دعوة القرآن لم تبلغكم حقيقتها الكافلة لاصلاح البشر، على الوجه الصحيح الذي يحرك إلى النظر ، لما ضرب دونه من الحجب، أولانكم لم تبحثوا عنها بالاخلاص، مع التجرد من التقاليد المسلمة عندكم والاهواء ، ولان الاسلام ليس له زعامة ولا جماعات تبث دعوته، ولا دولة تقيم أحكامه وتنفذ حضارته ، بل صار المسلمون في جماتهم حجة على الاسلام وحجابا دون نوره ، الى غير ذلك من الحجب والاسباب، التي بينتها في مقدمة هذا الكتاب، فأرجو أن يكون هذا الكتاب كافياً في بلوغ الدعوة اليكم بشرطها المناسب لحال هذا العصر ، فان ظهر لكم بها الحق فذلك ما نبغي ونرجو لخير الانسانية كلها ، وإن عرضت لكم شبهة فيها ، فالمرجو من حبكم للعلم، وحرصكم على استبانة الحق، أن تشرحوها لنا لنعرض عليكم جوابنا عنها ، والحقيقة بنت البحث كما تعلمون

ولا أراكم تعدون من الشبهات الصادة عن الاسلام (بعد أن ثبتت أصوله بما ذكرنا) ان فيه اخباراً عن عالم الغيب الذي وراء المادة لا دليل عليها عندكم ، فانما

مصدر الدين عالم الغيب، ولو كان مما يعلمه البشر بكسبهم لما كانوا في حاجة إلى تلقيه من الوحي، وقد بينا أن تعاليم القرآن قد أثبتت أنه وحي من عالم الغيب، وقامت برهانا على وجود الله وعلمه وحكمته، فوجب أن تؤخذ أخباره بالتسليم، وحسبكم انه ليس فيه منها مايقوم البرهان على استحالته، وان منها ما كان يعد من وراء إدراك العقل، ثم كان من ثمرات العلم وجوده بالفعل، كتخاطب أهل الجنة وأهل النار على ما بينهما من البعد، ولا تكونوا ممن قال الله تعالى فيهم (٣ : ٦٦ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

معجزات القرآن الطبيعية والفلكية

وأما أخبار القرآن عن عالم الغيب المادي من تكوين وتاريخ، فمن معجزاته الايجابية انه جاء فيه كثير من التعبيرات التي كشف العلم والتاريخ في القرون الاخيرة من معانيها مالم يخطر في بال أحد من أهل العصر الذي نزل فيه، ومن معجزاته السلبية انه لم يثبت على توالي القرون بعد نزوله شيء قطعي ينقض شيئا من أخباره القطعية، على ان أخباره هذه انما جاءت لاجل الموعظة والعبرة والتهذيب، ويكفي في مثل هذا ان تكون الاخبار على المألوف عند الناس، ولا ينتقد عليها اذا لم تشرح الحقائق الفنية والوقائع التاريخية، لانها ليست مما يبعث الرسل لبيانه، ومنها مالا يمكن الوقوف عليه إلا بالتعمق في العلم، أو الاستعانة بالآلات التي لم تكن معروفة عند المخاطبين الاولين بالوحي، بل لايصح ان يأتي فيها مايجزمون بانكاره بحسب حالتهم العلمية، لئلا يكون فتنة لهم، وقد قال نبي الانسانية العام «أنتم أعلم بأمور دنياكم» رواه مسلم في صحيحه

ومن دقائق تعبير القرآن في النوع الاول (التكوين) التي اختلف في فهمها الناس،

ان مادة الخلق «دخان» وهو عين ما يسمى السديم ، وان السموات والارض كانتا رتقا أي مادة واحدة متصلة ففتقهما الله وجعل كلا منهما خلقا مستقلا ، وبث فيهما أنواع الدواب ، ولم يكن أحد يعتقد أو يتصور أن في شيء من هذه الاجرام السماوية حيوانا ، وانه جعل من الماء كل شيء حي ، وانه خلق جميع الاحياء النباتية والحيوانية أزواجا ، فجعل في كل منها ذكراً وأنثى ، وانه جعل كل نبات موزونا ، يعني ان عناصره متوازنة على نسب مقدرة ، وانه أرسل الرياح لواقح ، وانه « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » والتكوير هو اللف على الجسم المستدير ، وهو صريح في كروية الارض ودورانها اللذين كانا موضوع الجدال والنضال بين العلماء الى عهد قريب بعد الاسلام ، وأمثال هذا فيه كثير حتى ان بعض آياته في الشمس والقمر والنجوم وسبحها في أفلاكها وجريانها إلى أجل مسمى ، وفي تناثر الكواكب عند خراب العالم لا تفهم فهما صحيحا الا في ضوء علم الفلك الحديث.

وأعجب منه إثباته ان للخلق سننا لا تتبدل وبيانه لكثير منها ، ومن سنن الاجتماع التي لم يهتد البشر اليها بالبحث العلمي إلا بعد بيان القرآن لها بقرون . ولم أوردها في هذا البحث ، لأنها قد يقال انها مما يعرف بالعقل ، وليس من موضوع الوحي . وسأفصلها في الجزء الثاني المتمم لهذا الكتاب ، وأختم دعوتي هذه بتلاوة قول الله عز وجل في (آخر — حم — فصلت) :

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ؟ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ؟ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ)

اللهم إني قد بلغت ، اللهم إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، اللهم اشهد فأنت خير الشاهدين ، والحمد لله رب العالمين .

تم الكتاب

فهرس كتاب الوحي المحمدي

الطبعة الثالثة

فاتحة الطبعة الثانية وأهم مسائلها

الفصل الأول وأهم مسائله

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الرد على مقدمات درمنغام ونتيجتها

الفصل الرابع

الفصل الخامس

المقصد الأول من مقاصد القرآن

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

طبع على مطابع
مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر
هاتف: ٨٣١٦٤٠ - صرب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان